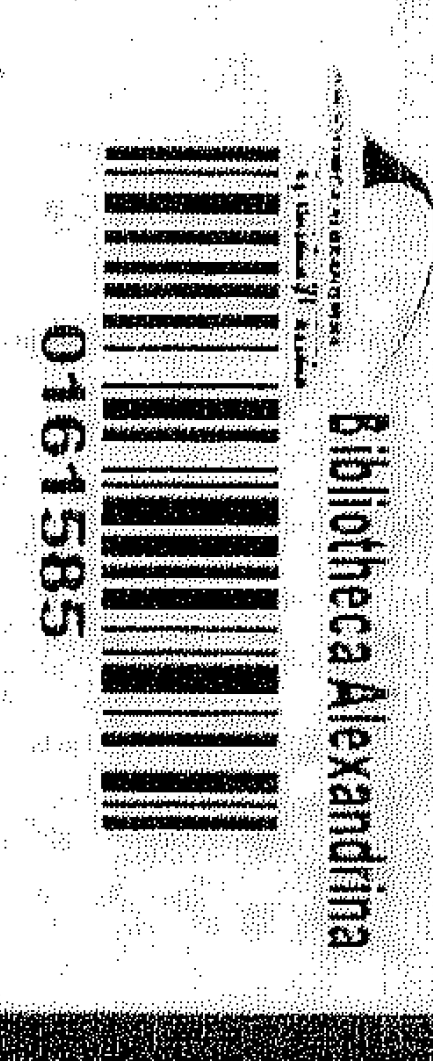
د. رأفت عبد الحميد

الدولة والكنيسة

٤

المسيحية الجديدة



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

الدولة والكنيسة

الجزء الرابع

الجزء الرابع

الدولة والكنيسة

المسيحية الجديدة

د. رأفت عبد الحميد

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــــاب : الدولة والكنيسة

المؤلـــــف : د. رأفت عبد الحميد

رقـم الإيداع : ١٩٩٩/١١٩٩٢

الترقيم الدولـى : ISBN
977 – 303 – 190 - x

تـاريخ النشـر : ٢٠٠١

الناشـــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــــة :

١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

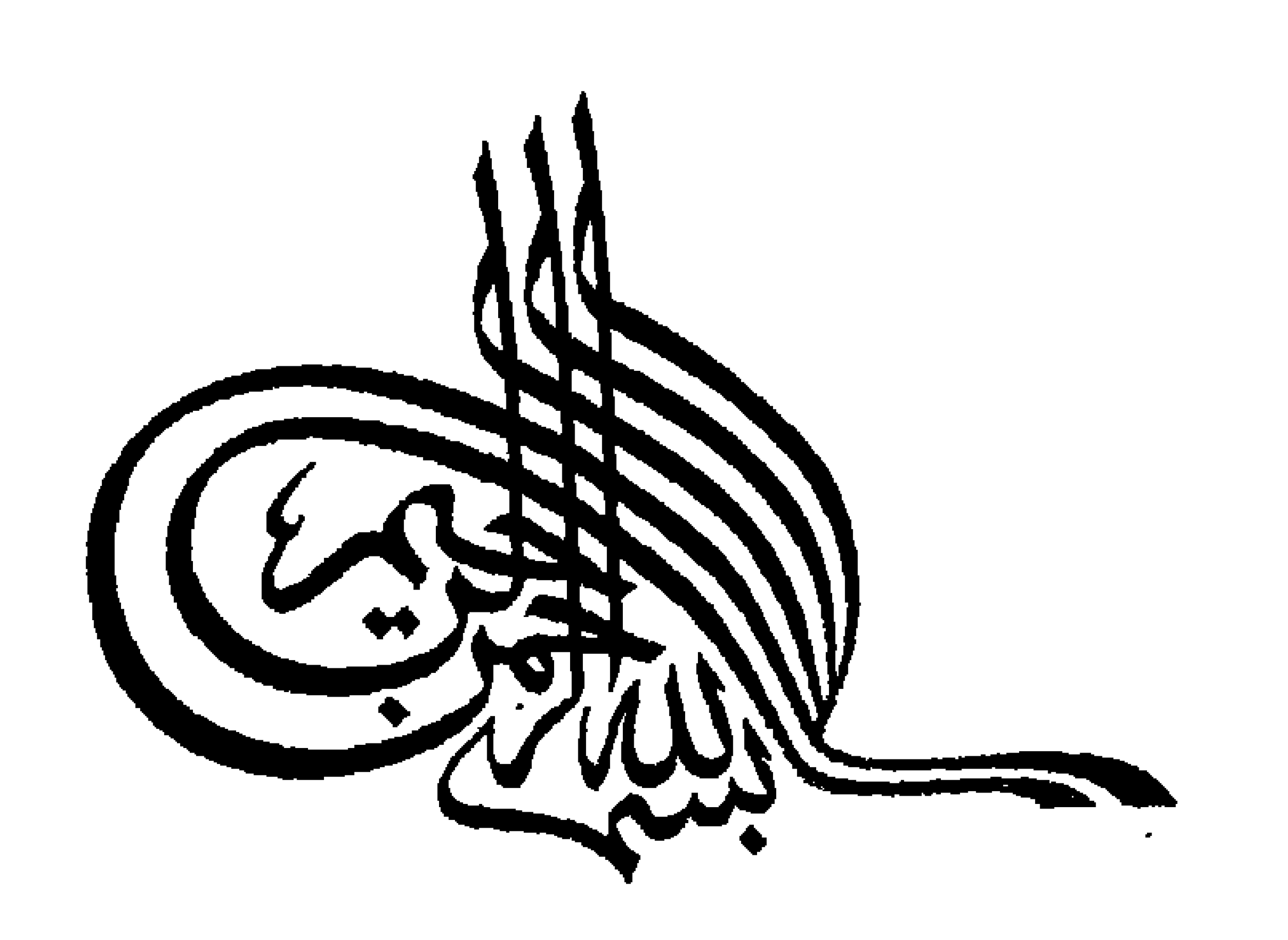
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الفاتحة

هذا هو الكتاب الرابع من الدولة والكنيسة، ومن قبل قدمت للمكتبة العربية الكتاب الثانى[1]. عن الوثنية والمسيحية، والثالث عن قيصر والمسيح، أما الذى بين أيدينا الآن فيتناول سيادة المسيحية فى صورتها الجديدة "النيقية". والكتب الثلاثة تشمل القرن الرابع الميلادى الذى يمثل أهمية خاصة فى دراسة تاريخ العصور الوسطى والعالم البيزنطى على قدر سواء، إذ يعد أحد القرون الثلاثة التى تبدأ به وبالسابع تنتهى، والى تشكل مرحلة الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمعناها التاريخى والحضارى. ويتميز القرن الرابع عن قرينيه بأنه شهد أحداثاً جساما كان لها أثرها البالغ فى مجريات التاريخ، بحيث عدت العلامات الرئيسية على طرق التحول من القديم إلى الوسيط ومن الرومانى إلى البيزنطى.

وتتمثل هذه فى ثلاث أساسية، الاعتراف بالمسيحية ديانة شرعية للإمبراطورية الرومانية فى أوائل القرن الرابع على يد قسطنطين، ثم إقرارها عقيدة رسمية فى نهاية القرن ذاك من جانب ثيودسيوس وبتأثير من أمبروز، ويعد هذا انقلاباً خطيراً فى التقليد الكلاسيكى الذى ظل لقرون عديدة يربط بين الوثنية مجد روما وعظمتها.

والثانية، انتقال العاصمة الإمبراطورية من روما القديمة عند التيبر إلى روما الجديدة على شطآن البسفور، والتى أبت ألا أن تحمل اسم مؤسسها فذاعت باسم القسطنطينية. ولم يكن هذا الانتقال يعنى مجرد بناء مدينة جديدة فحسب بل كان يحمل فى طياته عوامل التغير الكبير إلى عصور جديدة هى العصور الوسطى وعالم جديد هو العالم البيزنطى. فروما القديمة كانت تقوم وسط العالم اللاتينى، بلسانه، وفكره وثقافته وديانته، أما القسطنطينية فقد نشأت فى قلب بلاد اليونان بلغتهم الأكثر حيوية من قرينتها، ومدارسهم الفكرية وثقافتهم وفلسفاتهم التى خلا منها الغرب أو كاد، ومن ثم أضحت القسطنطينية بوتقة راح يتفاعل فيها وينصهر

---

(١) الكتاب الأول من الدولة والكنيسة – وهو فى مرحلة الإعداد يتناول المصادر التاريخية والكنسية.

هذا التراث الكلاسيكى اليونانى الرومانى، مع العقيدة المسيحية الجديدة، تأخذ منه وتعطيه لتخرج من بعد بصورة تخالف هيئتها الأولى وبساطتها ، يميزها هذا الجدال اللاهوتى الذى بدا ولا نهاية له، أو "قصر لابرنت" جديد بتعبير الكاتب الكنسى فى القرن الخامس، سقراط. وهو الجدال الذى غطى صفحة القرنين الرابع والخامس بصفة خاصة وصبغ وجه العالم البيزنطى والعصور الوسطى بطبيعته، وأن كان قد اختلف فى الشرق عنه فى الغرب؛ فبينما شهدت الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى القرن الخامس عشر اصطراعاً فكرياً لاهوتياً دائراً من حول المسيح وطبيعته ، عقائدياً إلى حد ما بحكم تأثير المدارس الفكرية والفلسفة اليونانية التى بدت بشكل اضح فى المدرسة السكندرية الأفلاطونية، والمدرسة الأنطاكية الأرسطية، كانت أوربا العصور الوسطى تعانيه فى مجال التنظيم الكنسى وسلطان كل من الإمبراطور والبابا، ستاره التقليد العلمانى وجوهره النزاع على السيادة العالمية بين البابوية والإمبراطورية.

أما الثالثة فتتمثل فى الغزو الجرمانى الذى اجتاح العالم الرومانى عقب هزيمة الإمبراطورية فى معركة إدرنة عام ٣٧٨، حاملين معهم نظمهم وتقاليدهم وطرائق تفكيرهم وحياتهم. حقيقة أن بعضهم عاش فترة طويلة على حدود الإمبراطورية عند الراين والدانوب، وتأثر إلى حد بالحضارة الرومانية، حتى غدا شديد الحماسة للمحافظة عليها، شأن ثيودوريش زعيم القوط الشرقيين، لكن هذا لا ينفى أن الجرمان أحدثوا فى العالم الرومانى خاصة نصفه الغربى تغييرات واسعة لا يقل تأثيرها عن العنصرين الآخرين.

هذه العناصر الثلاثة أخذت خلال القرون من الرابع حتى بداية السابع، تتفاعل مع بعضها البعض، ومع التراث الكلاسيكى، حتى أمكننا أن نتلمس على مشارف القرن السابع عالمين جديدين لكل منهما ما يميزه، هما العالم البيزنطى وأوربا العصور الوسطى. ومن هنا تأتى أهمية القرن الرابع الميلادى الذى تناولته الكتب الثلاثة باعتباره القرن الذى شهد وقائع هذه الأحداث وعاين بداياتها.

والكتاب الرابع الذى نقدم له الآن يتناول الربع الأخير من ذلك القرن، وقعت به من هذه الأحداث الثلاث حادثتان، هما هزيمة الجرمان للإمبراطورية، ومحاولة

تحطيم الوثنية لصالح المسيحية، وجعل الأخيرة دينا رسمياً، وتقاسمت ساحته شخصيتان هما الإمبراطور ثيودوسيوس والأسقف أمبروز، وكان هذا الاقتسام تطوراً تلقائياً وطبيعياً لمجريات الأمور. فحتى نهاية الثلاثينيات من القرن ذاك كانت شخصية قسطنطين وحدها هى التى تحتل مسرح الأحداث بعمليه الكبيرين، ممالأته للمسيحية وبناء القسطنيطية ، ولما كان صاحب اليد العليا على الكنيسة فقد كان على هذه الأخيرة أن تاتيه طائعة وإن كانت غير قانعة، وفى الثلاثينيات التالية كان أبناء قسطنطين على العرش، ولكن أحدا منهم لم يكن له شخصية أبيه وذكاؤه، فساد الساحة أثناسيوس السكندرى، لا انتصارا على الدولة ولكن صراعاً معها. أما هذا الربع الأخير فقد قدمت الدولة فى شخص ثيودوسيوس للمسيحية كل ما كانت من قبل به تحلم وإليه تتطلع، فجعلت منها العقيدة الأولى، ومهدت لها سبيل السيادة على الوثنية، وشاء قدرها أن يكون على رأسها آنذاك شخصية قوية هى أسقف ميلانو، أمبروز الذى تملك عقل ثيودوسيوس وفكره، وتسلط على شخص فالنتينيان الثانى وتحداه. ورغم صداقته الحميمة لثيودوسيوس وتقديره إياه، إلا ان ذلك لم يمنعه من "إذلاله" فى ميلانو عندما أقدم على إحداث مذبحة سالونيك، وكان الإمبراطور أذكى من ان يثير مع الكنيسة أزمة، فأجاب الأسقف إلى ما شاء معتبراً نفسه واحداً من رعاياها.

ولقد عالج الكتاب الذى بين أيدينا هذه الأحداث بالتفصيل من خلال العلاقة بين الدولة والكنيسة، الأحداث التى وقعت فى الإمبراطورية خلال ربع القرن الرابع الأخير، فعرضت لسياسة الإمبراطور فالنز العقيدية باعتباره آريوسيا، وعداء النيقيين له، وما كان من انتهاء الأمر بمقتله على يد الجرمان فى إدرنة، وطبيعة الغزو الجرمانى واعتناق الشعوب الجرمانية للآريوسية، وتأثير ذلك على علاقاتهم بالإمبراطورية. ثم تحدثت عن المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية فى عام ٣٨١ لإقرار أمور العقيدة، وما تمخض عنه من رفع قدر كرسى العاصمة الإمبراطورية الأسقفى إلى المرتبة التالية لروما مباشرة، باعتبار القسطنطينية روما الجديدة، مما كان له أبعد الأثر فيما بعد، خاصة فى القرنين التاليين، على الصراع الذى دار بين الكنائس الرسولية حول الزعامة، واستبقت إلى الحلبة روما والقسطنطيية والأسكندرية وأنطاكية وعلى استحياء بيت المقدس،

مستترة كلها برداء الجدال اللاهوتى حول طبيعة المسيح [٢]. وكانت أنطاكية بالذات أكثر المدن معاناة لهذا الصراع العقيدى الذى بدأ فى القرن الرابع وقاد كنيستها إلى الشقاق حتى بين أصحاب المذهب الواحد، وجر إلى فوضاه الدولة حيث شارك الأباطرة فى أحداث هذا الشقاق. ورغم أن الخلاف كان مسألة تخص الكنيسة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، إلا أن روما وميلانو وأكليرورس الغرب شاركوا فى هذا الصراع حفاظاً فقط على ذكرى الأسقف السكندرى أثناسيوس، دون ان يكونوا على معرفة أو مجرد دراية بجوهر هذا الشقاق وفحواه. ولما كانت المسيحية فى صورتها النيقية قد حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب الإمبراطورية، فقد كان من الضرورى تناول جهود الأباطرة فى القضاء على الفرق المسيحية الأخرى المعارضة وخاصة الآريوسية بطوائفها العديدة، وكذا سعيهم الدائب للخلاص من الوثنية التى كانت ما تزال حتى عام ٣٩١ هى الديانة الرسمية للإمبراطورية. وبينما دار الصراع فكراً فى الشرق من جانب الفلاسفة الوثنيين، وتعصباً من ناحية الأكليروس المسيحى والرهبان والدهماء، تمثلت المقاومة الوثنية فى الغرب حول مذبح النصر الذى كان مقاماً فى مبنى السناتو الرومانى ودارت المراسلات بشأنه بين الخطيب الوثنى المفوه والمتحدث باسم مجلس الشيوخ، سيماخوس والإمبراطور فالنتنيان، وهذا والاسقف أمبروز، وهذه المراسلات تمثل نفحات الأدب اللاتينى الرائع قبل احتضاره. وجاء الفصل الأخير تتمة ضرورية لبيان جهود كل من الدولة والكنيسة فى سبيل السيادة؛ فالفكر السياسى الرومانى لا يقبل بوجود كيان داخل الدولة، وفى الوقت ذاته ترفع الكنيسة شعارها "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وكان حتماً مقضياً أن يلتقى الاتجاهان على خلاف ، وتمثل هذا بصورة واضحة فى سياسة كل من ثيودوسيوس وأمبروز، وانتهى بأن كسبت الكنيسة الجولة الأولى والأخيرة فى هذا الميدان فى العالم البيزنطى.

رأفت عبدالحميد

القاهرة ٢٠٠٠

---

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذا الاصطراع الكنسى حول الزعامة فى القرن الخامس، راجع للمؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الخامس.


الفصل الأول
المسيحية الحكومية

الفصل الأول

المسيحية الحكومية

ودع أثناسيوس السكندرى شعب الكنيسة ودنياه فى الثانى من مايو عام ٣٧٣، بعد ان احتفظ بالكنيسة السكندرية ومصر جزيرة للنيقية وسط بحر الآريوسية فى الشرق الرومانى، إذ ظل ستا وأربعين سنة على كرسى الأسقفية يصطرع والآريوسيين أساقفة وأباطرة، ينالون منه ويطاولهم، يهزمونه وينتصر عليهم، حتى أعيتهم فى أمره الحيل وبلغ بهم وبه الصراع مبلغ الجهد، فتركوه وشأنه للمقادير حتى مات.

وكان آخر عهده برحلة العذاب الطويلة نفيه للمرة الخامسة على عهد الأمبراطور الآريوسى فالنز Valens وقد عاد منه إلى بيعته فى فبراير ٣٦٦ ليمضى بعد ذلك سبع حجج يجنى ثمار غرسه طوال ماولى من السنين، وحرص الجالس على العرش فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية الرومانية على أن لا يعكر صفو سلامه على امتداد ما بقى للأسقف من عمر، فقد كان يعلم ما عليه أثناسيوس Athanasius من قوة الشخصية وعناد ، مصدرها التفاف شعب الكنيسة من حول، وجموع الرهبان الضاربين فى فلوات مصر على امتدادها من فم النيل إلى طيبة، وسمعة عريضة حازها فى عالم المسيحية بين رجال الاكليروس فى الشرق والغرب سواء، ولم تواتِ الإمبراطور الفرصة للانتقام إلا بعد وفاة أثناسيوس، فأرسل رسله يؤيدهم جنده لاقتحام قلعة النيقة الحصينة، الإسكندرية، ولتحطيم قوة الرهبان بمهاجمة أديارهم خاصة فى وادى النطرون، عصب الأسقفية ولرفع لوقا Laucius الآريوسى طريد الإسكندرية، أسقفاً، مما دفع بطرس Petrus خلف أثناسيوس إلى الفرار بنفسه إلى الغرب محتذيا سبيل سلفه وأستاذه.

وبينما ارتضى فالنز كارهاً مسالمة الإسكندرية وأسقفها، حرص على أن يتخلص من معاقل النيقية الأخرى المتمثلة فى اللاهوتى الشهير باسل Basilius الكبادوكى أسقف قيسارية Caesarea الكبادوك فى آسيا الصغرى، وملتيوس Meletius الأنطاكى أسقف الأغلبية المعتدلة من النيقيين. بل وامتدت قساوات

اضطهاده إلى الفرق الآريوسية الأخرى المخالفة للمسيحية الحكومية، أعنى الآريوسية فى صورتها "الهوموية" Homoeos القائلة بـــ "التشابه" بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه، والتى بها يدين، والتى مات الإمبراطور قسطنطيوس Constantious وهو عن اتباعها راض.

وكانت "الهوموية" قد حققت نجاحها الساحق على الفكر الآريوسية المغايرة فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، والذى يعد تتمة للمجمع المزدوج فى ريمينى Ariminium بإيطاليا ، وسلوقية Seleucia بايزوريا فى آسيا الصغرى عام ٣٥٩، ثم مجمع نيقا Nice فى السنة هذه. ولم يؤثر فى تفوقها تحول بعض زعمائها عنها بعض الشيء كما حدث فى مجمع أنطاكية عام ٣٦١ فى أخريات أيام قسطنطيوس، أو المجمع الأنطاكى عام ٣٦٤ فى عهد جوفيان Iovianus ولا فت فى عضدها محاولة جوليان Iulianus لأحياء الوثنية، ولا تسامح الإمبراطورية جوفيان الممالىء للنيقية ، حتى إذا اعتلى العرش فالنز أصبحت "الهوموية" تمثل المسيحية الحكومية التى ارتضاها الإمبراطور.

ولم يكن قبول فالنز للمسيحية الهوموية اقتناعا بها أو فهما لمحتواها ولكن لأن فالنز لم يكن بمقدوره فكرا أن يبحث عن بديل لها، فقد كان جنديا من بانونيا Pannonia لم يهتم بتثقيف نفسه، يزدرى الثقافة ولا يحترم المثقفين (١). ولم تكن ظروفه العسكرية أو السياسية تسمح له بالتفرغ ولو لبعض زمن لمناقشة أمور العقيدة على نحو ما شهده عهد قسطنطيوس، فقد كان عليه أن يراقب بحذر وبصفة مستمرة الأطماع الفارسية عند جبهة الفرات، والزحوف الجرمانية الضاربة والمتململة عند الدانوب، والفتن السياسية وحركات التمرد التى وقعت ضده فى أوليات عهده، ومن ثم احتضن الهوموية التى ارتبطت فى ذهنه بالسلام الكنسى فى الجزء الخاضع لسيادته من الإمبراطورية. ودعم هذا أن يودوكسيوس Eudoxius أسقف القسطنطينية ويوزيوس Euzious أسقف أنطاكية حاضرتى الشرق، يدينان

(١) AMM. MARC. Res gest.XXIX, 1.

بهذا المعتقد(٢). ولما كان يعلم تماماً أنه لم يرفعه للعرش موهبة، وليس له من مسوغ لذلك إلا أخوه فالنتنيان Valentinianus إمبراطور النصف الغربى، ولا ثقافة عنده ولا خبرة، ولا حتى كانت له سيطرة على الجند كافية، فقد أدرك أن "الهومويين" هم له وسط متاهات الجدل العقيدى السائد فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، نعم المولى ونعم النصير(٣).

غير أن الهوموية لم تصل إلى السيادة إلا على أشلاء فرق آريوسية عديدة أخرى مخالفة، بالإضافة إلى النيقية فى الشرق، وكان من أبرز هذه الفرق الآريوسية، "الأنوموية" Anomoean التى ترفض "التشابه" كلية بين الآب والابن، وقد طغى عليها اسم مؤسسها الحقيقى يونوميوس Eunonius أسقف كيزيكوس Cyzicus وتلميذ آيتيوس Aetius السورى. و"الهومويوسية" Homoiousius التى ذاع صيت أصحابها باسم "أنصاف الآريوسيين" Semi-Arians والقائلة بـــ "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن. والماكيدونية التى تنتسب إلى ماكيدونيوس Macedonius الذى نادى بخلق الروح القدس(٤). هذا بالإضافة إلى العقيدة النيقية المخالفة للفرق الآريوسية كلها، وهى التى لقيت العنت الكامل على عهدى

---

(٢) لم يكن يوزيوس يستقر على حالة واحدة فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، فقد كان كثير الانتقال من فريق إلى آخر. راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، ص١٩٩، ٢٠١،، ٢٢٥-٢٢٦. وأيضاً الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص٤٠١-٤٠٢، ٤٧٨، ٥١٤، ٥٤٤، ٥٥٠.

(٣) يروى المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس تحول فالنز إلى "الهوموية" فى صورة تراجيدية كعادة مؤرخى الكنيسة دوماً، فيذكر أنه كان يبدى فى أول الأمر احتراماً للإيمان الرسولى، يعنى بذلك النيقية، ولكن عندما عبر القوط الدانوب وخربوا تراقيا، أعد جيشاً لملاقاتهم، ولم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، وإذ حرص على تناول العماد قبل أن يلقاهم ، كان قدره كقدر آدم الذى خضع لإغراء زوجه حواء، حيث خضع فالنز لزوجه دومينيكيا Dominicia وأصبح لها سميعاً مجيباً. ولما كانت آريوسية فقد جرته بالتالى إلى عقيدتها حيث عمد سنة ٣٦٨ على يد يودوكسيوس. أنظر THEOD. Hist. Eccl. IV, 11. والحقيقة أن الفترة التى أعقبت وفاة قسطنطين وحتى اعتلاء ثيودوسيوس العرش (٣٣٧-٣٧٩) شهدت من جانب الأباطرة خروجاً على ما سرى به القول من أن الناس على دين ملوكهم، حيث انعكست الآية فأصبح الأباطرة على دين ناسهم. وهذا واضح فى أبناء قسطنطين الثلاثة، وأيضاً على عهد فالنز وأخيه فالنتنيان.

(٤) عن هذه الفرق انظر للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث،، ص٣١٧-٣٤٥، ٤٠٢، ٤٦٥-٤٦٨، ٤٧٨-٤٨٣.

قسطنطيوس وفالنز لتمسك أتباعها بما استقر عليه رأى أساقفة المجمع المسكونى الأول المنعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ من القول بـــ "المساواة فى الجوهر" بين الآب والابن أو ما عرف بالهوموسية Homoousius.

وبينما كان الشرق الرومانى يعانى على هذا النحو من لابرنت الجدل العقيدى على حد تعبير المؤرخ سقراط Socrates [٥]. كان الغرب قد نأى بنفسه عن ذلك منذ ارتضى من البدء الايمان النيقى، ولم يحاول أن يشارك -إلا مكرها[٦] فى هذا الصراع العقيدى الدائر فى الشرق إبان الفترة التى حكمها قسطنطيوس منفرداً، بل يمكن القول بتعبير أدق إنه لم يكن باستطاعته المشاركة بحكم القصور الذى كان يعترى لغته وفكره إذا ما قورن آنذاك بالشرق الرومانى الذى كان يسوده الفكر والثقافة اليونانية. ولذا لم يَعْدُ المؤرخ جيبون Gibbon الحقيقة عندما راح يعقد مقارنة بين شطرى الإمبراطورية قائلاً "إن ولايتى مصر وآسيا اللتين اصطبغتا بالثقافة اليونانية، عانتا كثيراً من جراء الجدل الآريوسى، ذلك أن الدراسة الجادة للفكر الأفلاطونى والتأويلات الجدلية العابثة،، والاصطلاحات الغزيرة، أمدت كلها أكليروس الشرق وجموعه بمعين لا ينضب من التعبير الفياض والتأويلات. ووسط جدلهم المتقد سرعان ما ينسى الأساقفة الشك الذى تنصح به الفلسفة وتمتدحه، والخضوع الذى يفترضه الدين ويحتمه. أما شعب الكنيسة فى الغرب فكان ذا روح أقل فضولية، ذلك أن عواطفهم لم تكن تثيرها الموضوعات الغامضة، وعقولهم لم تعتد على ممارسة الجدل، ولغتهم الوطنية قاحلة غير قادرة على أن تقترب من مستوى اليونانية. وهكذا كان الجهل سبباً فى سعادة كنيسة غالة بحيث تمثل فى أن هيلاريوس Hilarius أسقف بواتييه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد المجمع المسكونى الأول غريباً عن العقيدة النيقية[٧]. يضاف إلى ذلك أن النصف

---

(٥) SOCRAT. Hist, eccl. II, 41.

(٦) اضطر الغرب قسراً أن يدخل حلبة الصراع من حول العقيدة إبان الفترة التى حكم فيها الإمبراطور الآريوسى قسطنطيوس منفرداً (٣٥٠-٣٦١) حيث حاول فرض الآريوسية على الغرب فى مجمعى آرل ٣٥٣ وميلانو ٣٥٥.

(٧) يذكر هيلارى هذه الحقيقة فى كتابه عن المجامع HILAR. De syn. 91 هذا بالإضافة إلى أن غالة نفسها كانت من أبعد ولايات النصف الغربى تأثراً بالأحداث العقيدية الجارية فى=

الغربى خلا أو كاد من المدارس الفلسفية اليونانية والاتجاهات الفكرية التى سادت النصف الشرقى بفعل وجود هذه المدارس به، وامتزاجها بالتراث الشرقى الذى خلفته الحضارات الشرقية القديمة، من أجل هذا كان الإمبراطور فالنتينيان الأول ذكياً وهو يبتعد بنفسه عن هذا المعترك الجدالى، عندما رفعته المقادير بسيوف الجند على عرش الإمبراطورية، عقب العهد القصير والموت المفاجىء لجوفيان. فقد استدعى إليه أخاه فالنز فى مدينة نيش Naissus واقتسما فيما بينهما إدارة الحكم فى الإمبراطورية، فذهب فالنتيان بالليريا وإيطاليا وإفريقيا وغالة وبريطانيا، بينما عاد فالنز بولايات الشرق. وأفصح إمبراطور الغرب الرومانى منذ الأيام الأولى لامتلاكه سلطة الدولة عن سياسته فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، واتضح هذا جلياً فى الموقف الذى اتخذه تجاه كل من "الماكيدونيين" وأنصاف الآريوسيين" الذين راحوا يعملون الآن سوياً منتهزين فرصة الشتات الذى تاهت فيه الفرق المسيحية المختلفة المتصارعة، فقد تقدموا إليه عن طريق هيباتيانوس Hypatianus أسقف هرقلية Heraclea يطلبون الأذن لهم بعقد مجمع كنسى لمعالجة المسألة اللاهوتية المعقدة، وكان رد فالنتينيان حاسماً فى هذا الصدد حين أجاب: "بين العلمانيين مكانى وليس من حقى أن أتدخل فى مثل هذه الأمور، اذهب وليجتمع رجال الكنيسة، أولئك الذين يخصهم الأمر ذاك إذا شاءوا"[٨].

ولا شك دفع فالنتيان إلى اتخاذ هذا السبيل، المقت العام الذى كان يحمله – شأن أخيه – لذوى الفكر والمثقفين، والكراهية الشديدة للثقافة، حقيقة كان مسيحياً مخلصاً لعقيدته، ولكنه كان جندياً قضى حياته فى الخدمة العسكرية، فلم يسمح له ذلك أن يحظى ولو بقدر من الثقافة يسير[٩]. وكان هذا وحده كافياً لأن يمسك فالنتينيان بزمام الأمور فى أقاليم سيادته محافظاً على الأوضاع العقيدية التى وجدها هناك، دون أن يسمح لأحد أن يعكر صفو سلام هذه المنطقة، وذلك بالأقدام على

=الشرق. ويعبر عن ذلك المؤرخ مارتن Martin بقوله "أن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة" انظر : Martin, histoire de France, Vol, p. 305.

(٨) SOZOM. Hist. Eccl. VI 7.

(٩) AMM. MARC. Res gest. XXVII 7; XXX 6.

إحداث أى تغيير فيما ألغاه الإمبراطور مستقراً أو يكاد فى النصف الغربى من الإمبراطورية، ولعل المؤرخ واطسون قد عبر عن ذلك بدقة فى قوله أن الإمبراطور لم يجد سبيلاً أفضل إلى الهدوء إلا الحفاظ على ما وجده سائداً بين رعيته(١٠).

وكان أساقفة الغرب، وحتى قبل أن يموت قسطنطيوس، قد أخذوا يتراجعون عما وافقوا عليه كرها فى مجمع ريمينى(١١) سنة ٣٥٩، منتهزين فرصة الأزمة الفارسية التى شغلت جهد وفكر الإمبراطور، وارتحاله إلى أنطاكية بعيداً ووجود جوليان، ابن عم الإمبراطور، قيصراً وهو الذى كان يضمر الوثنية ويحمل للمسيحية كل البغضاء، وراحوا يعلنون عودتهم ثانية إلى ما قبلوه فى عشرينيات القرن الرابع وهو قانون الإيمان النيقى، وزاد تعلقهم به أن وفد عليهم أثناسيوس منفياً ثم لائذاً(١٢) خاصة وأن القانون يتفق وطبيعتهم وثقافتهم، وعلى ذلك فإن أى محاولة لأعمال الفكر جرت، كان لها الفشل حليفاً، ومنن ثم لم تحظ الآريوسية بنصيب ما فى دنيا الغرب تلك. غير أن هذا لم يمنع من وجود أسقف آريوسى فى إحدى الأسقفيات القوية فى الغرب وهى ميلانو التى كان على كرسيها أوكسنتيوس Auxentius الآريوسى الذى ينتمى إلى فريق الأنومويين.

وطوال عشر سنوات (٣٦٤-٣٧٤) من إحدى عشرة سنة هى عهد الإمبراطور فالنتينتيان الأول ، ظل أوكسنتيوس يحتفظ بكرسيه الأسقفى مطمئناً إلى جانب الإمبراطور "المتسامح" بل ونعم بحمايته ضد حملات النقد التى كان يتعرض لها الأسقف من جانب هيلاريوس أسقف بواتييه، ويوسيبيوس Eusebius أسقف فرسالى Vercellae (فى إيطاليا) بصفة خاصة(١٣). وقد أدرك الرجلان أن بقاء أوكسنتيوس على أسقفية هامة لها فى الغرب شأنها، لابد يوقع الضر بالنيقية، ولهذا

(١٠) Watson, introd. To HILAR. Select works, p. 49.

(١١) راجع للمؤلف الدولة وَالكنيسة. الجزء الثالث، ص٣٤٩-٣٦٨، ٣٧٦-٣٧٩.

(١٢) تم نفى أثناسيوس إلى غالة على يد الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٥، حيث أمضى هناك عامين. وفى عام ٣٣٩ سارع بالفرار إلى الغرب بعد مطاردة قسطننطيوس له ومكث هناك سبع سنوات حيث عاد إلى الإسكندرية عام ٣٤٦.

(١٣) SOCRAT. Hist. ecci. III 10.

عولاً، وهيلارى بالذات، على طرده من ميلانو، ومن ثم سعياً بذلك حثيثاً لدى الإمبراطور فى المدينة نفسها سنة ٣٦٤، أى فى الأشهر الأولى لتسلمه مقاليد الأمور، وراحا يثيران الأساقفة والجموع ضد الأسقف الآريوسى، الذى لم يجد أمامه سبيلاً إلا الالتجاء إلى الإمبراطور.

وهذه الخطوة التى أقدم عليها الإمبراطور لمعالجة الأمر، تفصح بما لا يدع مجالاً للشك عن السياسة التى اعتزم اتباعها طيلة عهده، فقد أصدر أوامره بعقد مناظرة بين الطرفين، ولم يكن يصدر فى ذلك كما قدمنا عن معرفة باللاهوت أو المسائل الجدالية المعقدة التى تفصل بين الآريوسيين والنيقيين. لكن المسألة كانت من جانبه تسويفاً وكسباً للوقت حتى تنتهى اللجنة التى شكلها للتحقيق فى هذه القضية من رفع تقريرها إليه، ولذا فإن المصادر – وكلها تقف إلى جانب النيقية – تذكر أن هيلاريوس وإن كان قد كسب المناقشة إلا أنه خسر القضية، ذلك أن الإمبراطور لم يكن على استعداد لأن يثير فى منطقة نفوذه نوعاً من الفوضى العقيدية الضاربة فى الشرق أطنابها. ولهذا آثر الاعتقاد بما جاء فى تقرير اللجنة بأن أوكسنتيوس صاحب الحق الشرعى فى أسقفية ميلانو، خاصة بعد أن مات سلفه ديونيسيوس، وعليه أصدر قراره ببقاء أوكسنتيوس على كرسيه، ولم يلق بالا لجهود هيلاريوس الذى أطلق على قرار الإمبراطور اسم "مرسوم الأحزان"(١٤).

ولم تكن خطورة أوكستنيوس تتمثل فى كونه يحتل عرش أسقفية لها فى الغرب ثقلها وأهميتها هى ميلانو، ولكن لأن هذه الآونة شهدت جهوداً مكثفة،، لابد أن يكون الأسقف الآريوسى من ورائها، كانت تبذل فى الشطر الغربى من الإمبراطورية وأفريقيا فى محاولة للاعتراف بأن ما تم فى مجمع ريمينى يعد الأساس الحقيقى للإيمان المسيحى، وأن هذا المجمع بما ضم من أساقفة يفوق عددهم أساقفة نيقية(١٥). يصبح أكثر شرعية من المجمع النيقى، ولهذا فإن التصدى

---

(١٤) HILAR. Con Auxen. 7-8, 14 وإن كان هيلاريوس يلتمس العذر للإمبراطور فالنتينيان بقوله "إن الإمبراطور أبقى على أوكسنتيوس فى منصبه ظناً منه أن الأسقف يؤمن بالنيقية" وهذه العبارة وإن كانت دفاعاً عن الإمبراطور، إلا أنها تعد دليلاً على قلة ثقافة فالنتينيان أو انعدامها.

(١٥) كان عدد أساقفة نيقية ٣١٨ أسقفاً منهم ثمانية فقط من الغرب، أما مجمع ريمينى فقد حضره ٤٠٠ أسقف. انظر : SVIP. SEV. Hist. Sac. II 41.

لهذه المحاولة ومن وراءها لم يقتصر على منافحة أساقفة الغرب فقط، بل امتد أيضاً إلى الأسقف السكندرى أثناسيوس الذى كان يمثل دُرع النيقية فى الشرق الرومانى، إذ لم يتوان أسقف الإسكندرية عن تأييد الكنيسة فى الغرب، دفاعاً عن نيقية واعترافاً بحق هذا الجزء من العالم الرومانى وفضله عليه، فكتب فى عام ٣٦٩ رسالة مجمعية إلى أساقفة أفريقيا Ad Afros epistola synodica أشار فيها إلى الرسائل "العديدة والرائعة" التى بعث بها إليه داماسوس Damasus أسقف روما وأساقفة الغرب الذين عقدوا مجامع فى غالة وإيطاليا لإعلان ولائهم للإيمان النيقى(١٦). وحمل بعنف على أولئك الذين يسعون جاهدين لاستئصال مجمع نيقية وإعلاء شأن مجمع ريمينى، وأفصح عن زعماء هذا الفريق ومقته لهم وهم، أوكسنتيوس وفالنز أسقف Mursa وأورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم (١٧) Singidunum ودافع بحماسة بالغة عن آباء نيقية، وأعلن سخطه الكامل على أساقفة ريمينى، ودعا إلى عدم التسامح مع من لا يزال يتمسك بقرارته ونبذهم خارج الكنيسة (١٨).

ولم يكن أثناسيوس السكندرى فى رسالته هذه إلى الأساقفة الأفارقة يعبر عن رأيه وحده، بل كان يمثل بذلك تسعين أسقفاً يمثلون مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، وهى المناطق التى كان يشملها نفوذ كنيسة الإسكندرية، حيث التأم عقد هذا الأكليروس فى مجمع بمدينة الإسكندرية فى هذه السنة، وأعلنوا جميعهم فى رسالتهم إلى أسقف روما إدانتهم لأوكسنتيوس، وأبدوا دهشتهم لبقائه فى منصبه حتى الآن.

وعلى الرغم من هذه المحاولات العنيدة التى بذلها رجال الدين فى الغرب، وشارك فيها أثناسيوس السكندرى وأكليروسه لطرد أوكسنتيوس من أسقفيه ميلانو، إلا أن الرجل ظل فى منصبه يتمتع بحماية فالنتينيان الأول حتى مات سنة ٣٧٤، ولم يلبث الإمبراطور أن لحقه فى العام التالى.

---

(١٦) ATHANAS, ep. Ad Afros, 1.

(١٧) مورسا فى بانونيا وهى الآن أوسيك فى يوغسلافيا، وسينجيدونوم هى حالياً بلجراد.

(١٨) ATHANAS. Ibid. 2-3.

فلما قضى أوكسنتيوس نحبه، سارع الخصمان اللذان اختصموا فى ربهم إلى البحث عن خلف للأسقف الراحل، الآريوسيون يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى فى اختيار واحد منهم لكرسى كنيسة ميلانو، والنيقيون - وقد عمتهم الغبطة لوفاة عدوهم الآريوسى اللدود - يسعون بكل الوسائل للقفز على هذه الأسقفية، وأحكام قبضتهم عليها، لإغراق آخر سفينة للآريوسية فى الغرب. وانتقلت حرارة الانقسام بين الأكليروس فى ميلانو إلى حمى الصراع بين الجموع، لتنذر بفوضى عارمة ومصادمات دموية، هرع على أثرها الحاكم أمبروز Ambrosius الذى يتخذ من المدينة مستقراً له ومقاماً، إلى الكنيسة ليهدئ من ثائرة المصطرعين، وراح يناشد الناس السكينة وينشد فيهم الهدوء بخطاب دبجته بلاغته وحسن بيانه، أخذ بمسامع الجميع، فتحولوا على الفور إلى المناداة به هو نفسه أسقفاً لميلانو! ولما لم يكن الرجل قد تناول بعد سر العماد، فقد جرت الاستعدادات فى هذا على التو، بحيث لم يمض على ذلك أسبوع إلا وكان قد تم تعميد أمبروز ورسامته رئيساً لأساقفة ميلانو(١٩).

ولم يكن ما حدث على هذا النحو خروجاً عن المألوف آنذاك، فقد حدث فى القسطنطينية على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الشىء نفسه، عندما تم اختيار "نكتاريوس Nectarius أسقفاً للعاصمة ولم يكن قد عُمّد بعد، ذلك أن تناول

---

(١٩) تتفق المصادر فيما بينها على الطريقة التى تم بها اختيار أمبروز لكرسى ميلانو الأسقفى، وتتناولها بصورة قد يكون الخيال داعب بعض جوانبها ، حيث تذكر أنه بعد أن انقسمت المدينة على نفسها بين الآريوسيين والنيقيين ، وهدد الانقسام بالصراع الدموى، أسرع أمبروز إلى الكنيسة، فلما أتاها توجه إلى الناس بحديث طويل امتص غضبهم وأسكن خواطرهم، عندها صاح طفل من بين الجموع "فليكن أمبروز أسقفاً" فتلقفت آذان الجموع وقلوبهم هذه الصيحة وتحولوا لتوهم لترديدها، معتبرين إياها وحياً من الله. انظر:
AMM. MARC. Res gest. XXVII 3, 12-13.
SOCRAT. Hist. Eccl IV 30; RVFIN. Hist. Eccl. II 11.
SOZOM. Hist. Eccl. VI 24; THEOD. Hist. IV 5, 6.
ويخطئ سقراط حين يضع هذه الحادثة فى نفس العام الذى وقعت فيه أحداث الانقسام فى روما، بعد وفاة ليبريوس Liberius أسقف روما واختيار داماسوس خلفاً له، والمناداة بأورسينيوس Uresenius أسقفاً منافساً. والحقيقة أن الشقاق الذى شهدته روما جرى فى سنة ٣٦٧، بينما اختير أمبروز للأسقفية فى عام ٣٧٤. انظر : SOCRAT. Hist. Eccl. IV 29.

المعمودية لم يكن يجرى عندئذ فى الأيام الأولى للميلاد، لأن الكنيسة كانت تفضل تأخيره حتى تفتح الباب أمام الراغبين فى التحول إلى المسيحية.

وينتمى أمبروز لأسرة نبيلة، شغل أبوه منصب النائب الإمبراطورى فى غالة، فلما أدركته الوفاة ارتحل ولده وابنته وزوجه إلى روما، حيث أظهر الولد تفوقاً ونبوغاً فى الدراسات الحرة والقانونية، ولما كانت آماله متجهة لما كان عليه والده فقد عمل محامياً فى روما فى بداية حياته العملية، وأحرز الرجل تقدماً ملحوظاً فى عمله، ومن ثم جذب إليه بفصاحته وبلاغته النائب الإمبراطورى بروبوس Probus فعينه بموافقة الإمبراطور فالنتنيان حاكما على ليجوريا Liguria وأيميليا Aemilia حوالى سنة ٣٧٢ وهذان الإقليمان يضمان مراكز أسقفية هامة هى ميلانو وتورينو وجنوا وبولونا. وقد نبهه بروبوس إلى أن يعتبر نفسه أسقفاً أكثر منه حاكما، بمعنى أن يخلط العدالة مع الرحمة. فحكم أمبروز أقاليمه بجدية وتعقل كسب بهما ثقة رعيته. ومع أن أمبروز لم يكن له فكر رجل داهية، إلا أنه كان يتمتع بجرأة نادرة لازمته طيلة أسقفيته(٢٠). ودفعته منذ البداية لأن يسلك هذا السبيل بإقحام نفسه على المشكلة الكنسية المستعرة فى ميلانو، عقب وفاة أوكسنتيوس، حيث كانت الأقدار تخط له طريقاً مغايراً تماماً لما كان يطمع إليه ويؤمل.

ويبدو أن أمبروز كان متردداً فى قبول هذا المنصب الكهنوتى الذى خلعته عليه الجموع، فحتى ذلك الحين لم يكن قد أبدى أى اهتمام بالأمور اللاهوتية أو المشاكل الكنسية، بل إن الكنيسة لم تكن تمثل له فى شبابه أى مستوى للطموح(٢١)، ورغم أنه كان مسيحياً مخلصاً تعود المسيحية فى أسرته إلى زمن ليس بقريب، إلا أنه جرى على التقليد الذى كان مستقراً آنذاك بتأخير إتمام طقس المعمودية إلى عمر متقدم، ولذا أبدى دهشته لما أقدم شعب الكنيسة فى ميلانو على اختياره، وأظهر تردده وإحجامه، مما دفع الجموع إلى أن ترفع الأمر إلى فالنتينيان الذى صادق دون توان على رغبتها، وحضر بنفسه مراسم ترسيم أمبروز على الكرسى

---

(٢٠) Rand, founders of Middle Ages, pp. 73-74.
Bainton, history of Christianity, vol. 1 p. 184.
Stephenson, Mediaeval history, p. 78.

(٢١) Rand, op. cit. p. 73.

الميلانى[٢٢] ولا شك أن الإمبراطور أقدم على ذلك تمشياً مع سياسته العامة فى الأمور المتعلقة بالكنيسة، وحتى يجنب حاضرة أقاليمه أى انشقاق أو تصدع. وليس أدل على احترام فالنتينيان لسياسته هذه والتزامه بها، من أنه لم يكد يمضى على اختيار أمبروز للأسقفية شهور قلائل حتى راح يوجه اللوم إلى الإمبراطور بسبب السلوك غير اللائق الذى ينتهجه موظفوه المدنيون والأخطاء التى يرتكبونها ولم يكن من الإمبراطور إلا أن أجابه "لقد كنت دائماً على يقين بصراحة القول عندك، ومع ذلك أمض إلى غايتك بتطهير أرواحنا وأحسن خلاصها كما تأمرك بذلك تعاليم الإله"[٢٣].

وكانت آخر الأعمال الكنسية التى شارك فيها بأسلوبه المعتاد فالنتنيان هو ذلك المجمع الكنسى الذى عقد فى إلليريا سنة ٣٧٥، ابان وجود الإمبراطور بهذه المنطقة فى صيف ذلك العام، وقد أدى إلى عقده ازدياد نفوذ الآريوسية فى الشرق الرومانى والولايات الأوربية فى هذا الشطر، بتأثير الإمبراطور فالنز، والخشية من امتدادها ثانياً إلى الولايات الغربية المتاخمة خاصة الليريا. كما أن باسل أسقف قيسارية الكبادوك بعث إلى أساقفة الغرب رسالتين نقف منهما على ما تعرض له خصوم "الهوموية" من المسيحية الحكومية، على يد فالنز، ويقول أن هناك تفاصيل رأى أن لا يكتبها، وسوف يوضحها لهم شماسه سابينوس Sabinus الذى حمل رسالته الأولى، ويذكر أنه لا توجد كنيسة واحدة لم تتعرض لهذه العاصفة من حدود الليريا إلى طيبة فى مصر، ثم يناشد أساقفة الغرب أن يمدوا العون إلى إخوانهم فى الشرق وذلك عن طريق اتجاه عدد منهم إلى النصف الشرقى من الإمبراطورية وعقد مجمع كنسى لوضع حد لهذه الأمور[٢٤].

---

(٢٢) يذكر المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس أن الإمبراطور فالنتينيان قد أبدى سعادة غامرة باختيار أمبروز أسقفاً لميلانو، مما جعله يحرص على حضور حفل رسامته، ولم يخف الإمبراطور فرحته بهذا الأمر فراح يقول "نحمدك يا ربنا: أيها القدير المخلص، لقد عهدت أنا إلى هذا الرجل أن يوفر للناس أمنهم والأمان، فعهدت إليه أنت برعاية ورشد أرواحهم. الشكر لك أن جعلت اختيارى موفقاً". انظر: THEOD, hist. Eccl. IV 6.

(٢٣) THEOD. Hist. Eccl. IV 6.

(٢٤) BASIL. Eep. XC; XCII, 1-3.

ورغم أن الديباجة التى تضمنت توجيه الدعوة إلى الأساقفة لعقد هذا المجمع قد حملت أسماء الأباطرة الثلاثة فالنتينيان وفالنز وجراتيان، الابن الأكبر لأولهما، كما جرى بذلك العرف والتقليد الإمبراطورى فى شطرى الإمبراطورية، إلا أن المجمع كانت غايته، كما أكدت ذلك رسالته المجمعية التى صدرت عنه وصدق عليها فالنتينيان وأرسلت إلى أساقفة الشرق، التصدى للإمبراطور فالنز وجهود أكليروسه لإعلاء شأن المسيحية الحكومية، "الهوموية". ولهذا أعاد المجمع من جديد التأكيد على "الهوموسية"، قانون الإيمان النيقى، ودعا إلى اعتبارها دائماً إيمان الكنيسة الجامعة، وأفصح الحضور صراحة عن نياتهم عندما أعلنوا أنه لا يحق لأى من أساقفة الشرق التعلل بأنه يتبع عقيدة إمبراطوره (فالنز) لأن هذا يعد استخداماً سيئاً للسلطة الإمبراطورية، ويعتبر مرفوضاً من الرب الذى أعطانا تعاليم الخلاص، وعصياناً لما جاءت به الكتب المقدسة "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[٢٥].

ومما تجدر الإشارة إليه، ما جاء فى القوانين الصادرة عن هذا المجمع والمتعلقة بالتنظيم الكنسى، والخاصة برسامة الأساقفة والقسيسين والشمامسة، وكيفية اختيارهم؛ إما من بين رجال الاكليروس أو من بين كبار الموظفين المدنيين الذين يذيع فى الناس صيت عفتهم وطهارتهم، وتحريم اختيارهم من بين العسكريين أو صغار الموظفين المدنيين[٢٦]. ولما كان هذا المجمع قد عقد بعد اختيار أمبروز، الحاكم المدنى لميلانو، أسقفاً للمدينة، ولما كان قد شن على أساقفة الشرق الآريوسيين هجومه، فلابد وأن يكون أمبروز قد لعب دوراً معيناً فى هذا المجمع وقراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية، حتى ولو بصورة غير مباشرة، بحيث استطاع أن يحصل على تأييد مجمع كنسى يوضح شرعية اختياره للأسقفية رغم عدم كونه أحد رجال الأكليروس، وحتى يدعم قرار الإمبراطور فالنتينيان بالموافقة على رسامته بقانون كنسى.

(٢٥) THEOD. Hist. Eccl. IV 7-8.
(٢٦) Hefele, history of councils, vol. Pp. 289-2

غير أن وفاة فالنتينيان كمداً[٢٧] عقب هذا المجمع بقليل (١٧ نوفمبر ٣٧٥) جردت قرارته من قوة تأثيرها، ولم يلبث الآريوسيون فى الشرق أن انتهزوا هذه الفرصة، وعقدوا بتأييد من الإمبراطور فالنز مجمعاً مضاداً فى أنقره، قرر رفض الرسالة التى حملها إليهم القسيس البيدويوس Elpidius والصادرة عن مجمع الليريا، وعدم الاعتراف بمهمته التى أوفد من أجلها والتى كانت تقتضى القيام بفحص دقيق لقانون الإيمان الذى تدين به هذه المنطقة، وتعريفهم بالإيمان النيقى، وقد أصدر مجمع أنقرة عدة قرارات بعزل عدد كبير من أساقفة النيقية فى الشرق كان من أبرزهم جريجورى أسقف نيسا Nyssa [٢٨].

وكان فالنز آنئذ يقيم فى أنطاكية على مقربة من الجبهة الفارسية الساخنة أبداً، وإلى جوار أنصاره الآريوسيين وزعيمهم يوزيوس الأسقف الأنطاكى المقرب إلى الإمبراطور. وقد لقى النيقيون، بل والفرق الآيوسية غير الهرموية، العنت على يد فالنز وأعوانه خلال مقامه فى أنطاكية، وتعرض عدد من زعماء هؤلاء وأولئك للنفى والإعدام، وكانت الأحداث التى وقعت فى الغرب عقب وفاة فالنتينيان مساعداً لفالنز على المضى فى سبيله. ذلك أن إمبراطور الغرب كان قد أعلن قبل موته ابنه الأكبر جراتيان Gratianus قيصراً، فلما قضى، أقدم الجيش على إعلان الإبن الثانى فالنتينيان الأصغر، الذى لم يتجاوز عمره السنوات الأربع إمبراطوراً شريكاً، ورغم أن جراتيان قد أظهر قبول ذلك، إلا أن الغضب والحنق تملكا عليه كل سبيل، وشاركه حمقه عمه فالنز، الذى كان يطمع فى الحصول على عونه فى مواجهة التحركات الجرمانية التى كانت تشهدها الآن جبهة الدانوب، وإن كان

(٢٧) تذكر المصادر أن الأمبراطور فالنتينيان استقبل وفداً من القواضى Quadi الذى جاء إليه بهدف الحصول على معاهدة تقر السلام بينهم وبين الإمبراطورية، وقد راع الإمبراطور ما كانت عليه هذه السفارة من همجية وبداوة، وساءه اتهامهم للرومان بأنهم هم المعتدون، ومن ثم استبد به الحنق وثار فى وجههم مغتماً لمهاجمة مثل هؤلاء "البرابرة" لحدود الإمبراطورية الرومانية وتجاسرهم على ذلك، مما أدى إلى موته كمداً. انظر.

AMM. MARC. Res hest. XXX 6, 1 –4.
RVFIN. Hist. Eccl. II 12; SOCRAT. Hist. Ecci. IV 63;
SOZOM. Hist. Ecci. VI 36

(٢٨) Hefele, op. cit 111 p. 290.

المؤرخ الكنسى سوزومنوس يعلق على هذه الأحداث بقوله "إن غضب الإمبراطورين كان راجعا إلى أن الجيش هو الذى أقدم على ذلك دون الحصول على موافقتهما أولاً"(٢٩).

ولكن الأحداث التى وقعت فى العام التالى "٣٧٦"، والعامين اللاحقين، حيث سمح الإمبراطور لجماعات القوط الغربيين بعبور الدانوب والنزول فى منطقة موئيزيا Moesia والصدام الذى حدث خلال هذه الأعوام بين الرومان والجرمان(٣٠)، كل هذا أدى إلى أن يقدم الإمبراطور فالنز مضطراً على تخفيف غلواء الاضطهاد العقائدى ضد أعداء الهوموية، كما أن الفيلسوف الوثنى ثمستيوس Themistius البفلاجونى الذى كان يلقى الاحترام من جانب المسيحيين والوثنيين على السواء(٣١)، أخذ يوجه النداء تلو الآخر إلى فالنز للإقلاع عن ممارسة سياسة العنف تجاه الخارجين عن المسيحية الحكومية، وقد أصغى الإمبراطور بعض الشىء إلى نصحه فامتنع عن إعدام زعماء الفرق الخارجة، واكتفى بإرسالهم إلى المنفى. ويصيب سوزومنوس كبد الحقيقة بقوله إن الإمبراطور لم يرفع يد قساوته عن رجال الدين إلا بعد أن إزداد قلقه من أجل الشئون العامة للدولة"(٣٢). بل أن فالنز امتنع حتى عن ممارسة هذا الإجراء الأخير عندما ازدادت الأمور سوءاً، بعد

(٢٩) SOZOM. Hisct. Eccl. VI 36 ويبدو أن سوزومنوس كانن متأثراً فى ذلك بالعبارة الشهيرة التى أوردها هو نفسه بقلمه على لسان الإمبراطور فالنتينيان الأول موجهاً إياها لجنوده محاولاً كف أيديهم عن التدخل فى شئون الحكم واختيار الأباطرة، وكانوا قد طلبوا إليه فور اعتلائه العرش اختيار رجل آخر إمبراطوراً شريكاً، فأجابهم "جنودى: إذا كان من حقكم إعلانى إمبراطوراً، فقد فعلتم، أما ما تريدون فمن حقى وحدى، الزموا الهدوء رعية طيبة، ودعونى أدير أمور الدولة إمبراطوراً". راجع. SOZOM. Ioc. Cit; THEOD. Hist. Eccl. IV 5. ولعل قيام الجيش بتنصيب ثلاثة أباطرة على التوالى، جوليان وجوفيان وفالنتينيان الأول، قد أعاد إلى أذهانهم ذكرى نفوذهم فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل أن يلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية أو فترة الحروب الأهلية التى استمرت ثمانية عشر عاماً منذ اعتزال دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس العرش سنة ٣٠٥ وحتى إعلان قسطنطين نفسه إمبراطور فرداً سنة ٣٢٣.

(٣٠) انظر للمؤلف الإمبراطورية البيزنطية، جـ١ الفصل ٣.

(٣١) Vasiliev, history of Byzantine Empire, I p. 12.

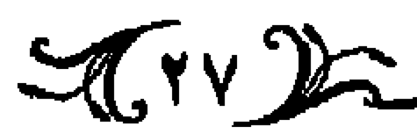
(٣٢) SOCRAT. Hist. Eccl. IV. 32; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37.

أن راح القوط يعيثون فساداً فى تراقيا، واضطر الإمبراطور إلى الارتحال عن أنطاكية قاصداً القسطنطينية لمواجهة الأمور المتردية(٣٣).

ومع أن فالنز قد ظل حتى مقتله بسيوف القوط وفيا"للهوموية" المسيحية الحكومية لا يبغى عنها حولاً، إلا أن السنوات الأخيرة من عهده قد شهدت فقدانها لزعمائها، الواحد فى إثر صاحبه. ففى عام ٣٧٠ مات يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ، فأسرع "الهومويون" باختيار ديموفيلوس Demophilus أسقفاً خلفاً، وإذا كان "الهوموسيون" قد نظروا إلى وفاة يودوكسيوس باعتبارها فرصة مواتية، فأقدموا على رسم إيفاجريوس Evagrius أسقفاً منافساً، إلا أن الإمبراطور، الذى كان فى نيقوميديا آنذاك فى طريقه إلى الشرق، أسرع بإرسال كتائبه إلى العاصمة لحسم هذا النزاع، وألقى القبض على إيفاجريوس، وانفرد ديموفيلوس الآريوسى الهوموى بالسيادة على كرسى العاصمة الأسقفى. غير أنه فى عام ٣٧٤ خسرت الآريوسية الحكومية مقعداً جديداً بوفاة أوكسنتيوس أسقف ميلانو، ولم يستطع الآريوسيون هناك الحفاظ على نفوذهم، حيث انتقل السلطان إلى عدو للآريوسية لدود هو أمبروز. ولم يأت عام ٣٧٦ حتى كان يوزيوس الأسقف الانطاكى، الآريوسى العنيد رفيق آريوس، فكره ومنفاه، قد مات، فاختار الآريوسيون دوروثيوس Dorotheus خلفاً له. وإذا كانت كل من القسطنطينية والكرسى الأنطاكى الرسمى قد ظلا على ولائهما للآريوسية، إلا أن اختفاء كل من يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس من على مسرح الأحداث كان نذيراً بأفول نجم الهوموية، المسيحية الحكومية، بصفة خاصة، والآريوسية بشكل عام بعد أن لقى فالنز الإمبراطور الآريوسى حتفه صريعا.

وكان انهماك الإمبراطور فالنز فى السنة الأخيرة من حكمه فى مواجهة المسألة الجرمانية، وغياب زعماء الآريوسية هؤلاء عن الوجود، إيذاناً بتنفس أتباع النيقية الصعداء، إذ أن هؤلاء ما أن علموا بارتحال فالنز من أنطاكية إلى القسطنطينية ودخوله العاصمة على عجل فى الثلاثين من مايو عام ٣٧٨، واستعداده لملاقاة القوط، حتى عادت إليهم شجاعتهم وراحوا يحاولون استعادة

(٣٣) SOCRT. hist. Eccl. IV 35; SOZOM. Loc. Cit.



نفوذهم وكراسيهم التى فقدوها[٣٤]. وكانت الإسكندرية أبرز الأمثلة على ذلك، فلم يلبث أهلوها أن ثاروا ضد الأسقف الآريوسى لوقا، واضطروه إلى الفرار من المدينة ليشق طريقه كرها إلى القسطنطينية. بينما عاد إلى الإسكندرية بطرس، الذى خلف أثناسيوس بعد وفاته وأمضى فترة أسقفيته جلها فى الغرب هرباً من اضطهاد فالنز والآريوسيين له. وكان قبل عودته قد شارك فى حضور مجمع روما الثالث الذى عقد تحت رئاسة الأسقف داماسوس لأدانة القائلين بخلق الروح القدس، وقد زوده الأسقف الرومانى عند عودته برسالة إلى السكندريين، تثنى على إيمانه بالهوموسية وحفاظه عليها، وإن كان العمر لم يمتد طويلاً ببطرس، إذ سرعان ما مات ليخلفه على كرسى الإسكندرية الأسقفى ثيموثى Thimotheus ولم تترك أمور الدولة المضطربة فرصة لفالنز – حسب تعبير سوزومنوس – لمعالجة هذه التحديات أو التصدى لها[٣٥].

هكذا قدر للمسيحية الحكومية فى صورتها "الهوموية" أن تظل على امتداد عشرين عاماً (٣٥٩-٣٧٨) إلا قليلاً، صاحبة السيادة بلا منازع فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية خلال السنوات الأخيرة من حكم قسطنطيوس، وطوال عهد فالنز، إذا استثنينا العهدين القصيرين لجوليان وجوفيان (٣٦١-٣٦٤) وكان مقتل فالنز وموت زعماء الآريوسية الكبار إيذاناً بنهاية فترة جدلية عقيمة تميز بها جدال القرن الرابع الميلادى، كانت الأفكار الآريوسية محوراً لصراعها، ولم تقم للآريوسية بعدها فى الشرق قائمة، وإن كانت قد انتقلت لتصبح من بعد للجرمان فى الغرب ديناً.

ذلك أن القبائل الجرمانية كلها – عدا الفرنجة – تحولت إلى المسيحية الآريوسية، وظلت على إيمانها بها طيلة بقاء الممالك الجرمانية فى معظمها، هذا باستثناء القوط الغربيين فى أسبانيا الذين هجروها إلى النيقية عام ٥٨٩ فى مجمع طليطلة. ولعل قصة المسيحية لدى الجرمان، وعلاقة الجرمان بالإمبراطورية، تستدعى منا هنا وقفة موجزة، لتأثير ذلك فى مجرى الأحداث. فالجرمان كانوا قد أخذوا فى النزوح من موطنهم "الثانى" جرمانيا باتجاه الجنوب أو الجنوب الشرقى،

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl. IV 37; SOZOM. Hist. Eccl. VI 39; AMM. MARC. res gest. XXX' 11, 1-5.

(٣٥) SOZOM. Loc. Cit.

بحثاً عن مناطق أكثر خصباً وأوفر حياة، بعد أن ضاقت عليهم الأرض فى هذا الموطن الثانى، وتفرقت بهم السبل حيث جاء بعض منهم إلى الراين مثل جماعات الفرنجة Franks، وذهب بعض ثان إلى الدانوب والبحر الأسود، ومن أشهرهم قبيلتا القوط الشرقيين Ostrogoths والقوط الغربيين Visigoths، وبين الراين والدانوب انتشر عدد آخر من القبائل الجرمانية مثل الإنجليز والسكسون والوندال والآلان والألمان وجماعات بعد ذلك كثير.

وكان طبيعياً وقد نزل الجرمان على هذا النحو على حدود الإمبراطورية الرومانية لحماية حدود الإمبراطور – وسيلة تسمح بتسرب أعداد ليست بالقليلة من الشعوب الجرمانية إلى داخل الأراضى الرومانية، وكثيراً ما أغمضت إدارة الإمبراطورية أعينها عن هذا التسرب، لاستخدام هؤلاء النازحين "سرا"!! جنداً مرتزقة فى الجيش الرومانى أو فلاحين فى أفقر مناطق الإمبراطورية مثل بانونيا Bannonia وموئيزيا Moesia وغيرها من الولايات فى البلقان. وكان طبيعياً أيضاً أن يقف الجرمان على مظاهر الحضارة الرومانية والحياة اليومية والعادات والتقاليد التى يحياها الرومان، وأن يتعرف بعضهم إلى المسيحية، وإن كانت أعدادهم قد ظلت حتى أوائل القرن الرابع الميلادى قليلة جداً.

وتشكل مسألة تحول الجرمان إلى المسيحية أمراً يختلف حوله المؤرخون خاصة المصادر التاريخية والكنسية المعاصرة، فالمؤرخ الكنسى سقراط يذكر، ويتابعه فى ذلك سوزومنوس أن القوط الغربيين انشغلوا أثناء مكثهم فيما وراء الدانوب بالحرب الأهلية التى دارت بينهم، فقد انقسموا فريقين أحدهما يتزعمه "أثاناريش" Athanarich والآخر يقوده "فريتجرن" Fritigernes الذى أرسل يستنجد بالرومان ويطلب عونهم، وعلى الفور أصدر الإمبراطور فالنز أوامره للقوات المرابطة عند الدانوب بمساعدته، حتى إذا تم لها النصر، كانت تلك فرصة سانحة لتحول عدد كبير من القوط إلى المسيحية كنوع من العرفان من جانب "فريتجرن" تجاه الإمبراطور، ولما كان آريوسيا، فقد دخل القوط فى الآريوسية أفواجاً[٣٦].

---

(٣٦) SOCRAT. hist. Eccl. IV 33 ; SOZOM. hist. Eccl. VI 37.

ويضيف سوزومنوس معلقاً، أن "أولفيلا" Ulfila (Vulfila) أحد رجال القوط الشهيرين المبشرين بالمسيحية بين بنى قومه وأسقفهم، لم يكن على دراية بالخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة، إذ أنه خلال عهد قسطنطيوس، وعلى الرغم من مشاركته فى أعمال مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، ودخوله فى شركة يودوكسيوس واكاكيوس(٣٧)، إلا أنه لم ينحرف عن قانون الإيمان النيقى. ويبدو أنه عاد فيما بعد إلى القسطنطينية ودخل فى جدل عقيدى مع زعماء الآريوسية، الذين وعدوه بعرض مطالبه ومطالب شعبه على الإمبراطور إذا ما وعد بتقبل العقيدة الآريوسية. ولما كان مضطراً إلى ذلك أمام ضغط الظروف العصيبة التى يتعرض لها قومه، فقد فصل نفسه وشعبه جميعهم عن الكنيسة النيقية(٣٨).

وعند هذه النقطة الأخيرة، يكاد يتفق المؤرخ الكنسى ثيودوديتوس مع قرينه، وإن كان يتأخر بهذه الأحداث إلى ما بعد عبور الفيزيقوط الدانوب فور سماح الإمبراطور فالنز لهم بذلك ويقول "إن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية اقترح على فالنز إغراء القوط بالدخول فى شركته، رغم أنهم كانوا قد وقفوا على قدر من المعرفة بالمسيحية"، ويضيف؛ أن الأسقف خاطب الإمبراطور بقوله، أن وحدة هؤلاء معاً فى العقيدة سوف يجعل السلام أكثر ثباتاً واستقرارا. وقد استصوب الإمبراطور هذا الرأى، غير أن القوط رفضوا التخلى عن عقيدة آبائهم. ولم تنجح جهود الإمبراطور إلا بعد تدخل أولفيلا نفسه، الذى استطاع اقناع شعبه بالدخول فى شركة يودوكسيوس، خاصة بعد الرشاوى التى دفعها أسقف العاصمة للأسقف القوطى، وهكذا نجح أولفيلا فى استمالة قومه إلى الآريوسية بحجة أن الجدال بين الفرق المختلفة يعود فى حقيقته إلى التنافس الشخصى، ولا يتضمن أى خلاف فى العقيدة، ومنذ ذلك التاريخ والقوط يؤمنون أن الآب الأعظم من الابن(٣٩).

(٣٧) يودوكسيوس هو أسقف القسطنطينية الآريوسى، وقد سبق الإشارة إليه. أما أكاكيوس فهو أسقف قيسارية فلسطين الذى خلف يوسيبيوس القيسارى، شيخ مؤرخى الكنيسة فى منصبه. يعتبر أحد زعماء العقيدة الهومويية فى الشرق، قدم وثيقة الإيمان بها فى مجمع سلوقية عام ٣٥٩ وإن كان قد تخلى فى نهاية الأمر عن عقيدته الهومويية، بل والآريوسية كلها ليصل بالنيقيين المعتدلين فى أنطاكية صفوفه.

(٣٨) SOZOM. Hist. Eccl. VI 37.

(٣٩) THEOD. Hist. Eccl. IV 33.

على أن هذه الآراء لا يمكن قبولها هكذا على علاتها أو التسليم بها دون مناقشة، فسقراط وسوزومنوس ذكرا قبل ذلك بقلميهما[٤٠] أن أولفيلا هذا قد حضر مجمع أنطاكية الذى عقد فى سنة ٣٤١ والذى ذاع باسم "مجمع التدشين" Concilium dedcationis [٤١]. والمعروف أن هذا المجمع كان آريوسيا، حضره أساقفة الشرق وترأسه يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية آنذاك والزعيم الآريوسى العنيد، وذكرا أيضاً أن أولفيلا قد تم رسمه أسقفاً للقوط فى ذلك المجمع على يد يوسيبيوس نفسه. ثم إن أولفيلا كان أحد شهود مجمع القسطنطينية فى عام ٣٦٠، على حد قول سوزومنوس، وهو المجمع الذى توج الجهود الآريوسية التى استمرت خمسة وثلاثين عاماً من أجل السيادة فى الإمبراطورية، كما أن الأسقف القوطى دخل أيضاً – كما يقول سوزومنوس – فى شركة يودوكسيوس أسقف القسطنطينية وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، وهما من أشهر آباء الآريوسية. فكيف إذن يمكن التوفيق بين هذا كله وبين القول بأنه "لم ينحرف عن الإيمان النيقى" حسب زعم سوزومنوس؟!

الأمر الثانى القائل بأنه عاد إلى القسطنطينية ودخل فى جدل عقيدى مع زعماء الآريوسية واضطر تحت ضغط الظروف العصيبة التى يتعرض لها قومه إلى الدخول فى شركة الآريوسيين.. مرفوض شكلاً وموضوعاً، إذ أنه كان قد دخل بالفعل فى شركة يودوكسيوس وأكاكيوس، كما ذكر سوزومنوس نفسه فى الفقرة ذاتها. يضاف إلى هذا نقطة على جانب من الأهمية كبير؛ فالإمبراطور قسطنطيوس لم يمكث فى القسطنطينية بعد المجمع الآريوسى الذى عقد فيها عام ٣٦٠ إلا قليلاً ثم ارتحل عنها قاصداً أنطاكية استعداداً للحرب الفارسية[٤٢] وما أن أخذ فى إعداد قواته لذلك، حتى اضطر أن يعود بجيشه ثانية متجهاً إلى الغرب لملاقاة ابن عمه جوليان الذى كان قسطنطيوس قد عينه على غالة سنة ٣٥٦، ثم أعلن نفسه إمبراطورا شريكاً بإرادة جنوده فى عام ٣٦٠. لكن الإمبراطور

---

(٤٠) SOZOM. hist. Eccl. III 5, IV 24; SOCRAT hist. Eccl. II 8-10, 41.

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن هذا المجمع راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص١٤٦-١٦١.

(٤٢) THEOD. hist. eccl. II 27.

قسطنطيوس لم يصل القسطنطينية، إذ وافته منيته عند مدينة موبسوكرنى Mopsucrene على الحدود بين كيليكيا وكبادوكيا فى آسيا الصغرى فى الثالث من نوفمبر سنة ٣٦١، فاعتلى جوليان عرش الإمبراطورية، وأعلن عودته إلى الوثنية، فلما خلفه جوفيان عام ٣٦٣ كان ممالئا للنيقية. ومن ثم فليس هناك مجال للقول بعودة أولفيلا إلى القسطنطينية مباشرة بعد المجمع الذى عقد فيها، ودخوله فى جدال مع زعماء الآريوسية. بل كيف يمكن قبول – حتى هذه العبارة الأخيرة – وسوزومونوس نفسه يصف أولفيلاً بأنه "لا يفقه شيئاً عن الخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة" ويدلل على ذلك بأنه حضر مجمع القسطنطينية ودخل فى شركة اثنين من أكبر زعماء الآريوسية وهو يعتقد أنه الإيمان النيقى!!

بل إن أولفيلا لا يمكن أن يكون قد عرف شيئاً ما عن النيقية، ذلك أنه منذ عشرينيات القرن الرابع الميلادى كانت الآريوسية قد انتشرت بصورة سريعة فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية، خاصة سوريا وآسيا الصغرى. وهذه الحقيقة نعلمها من رسالة بعث بها آريوس السكندرى إلى صديقه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، يذكر فيها الكنائس التى شايعت آراءه وتابعت عقيدته[٤٣]، فإذا علمنا أن النيقية لم تعرف بصفتها الرسمية إلا بعد أن صدرت عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥، وأن أولفيلا قد ولد سنة ٣١١، أنه تلقى تعليمه وتربيته الأولى فى كبادوكيا، ثم ارتحل فى نهاية الثلاثينيات من القرن الرابع إلى العاصمة [٤٤]، حيث كان يوسيبيوس النيقوميدى قد أصبح أسقفاً لها، أيقنا أن مداركه قد تفتحت منذ البداية على الآريوسية فقط[٤٥].

أما ما يقوله ثيودوريتوس من أن هذا التحول إلى المسيحية الآريوسية كان بعد عبور الدانوب، والحديث الذى دار بين الإمبراطور فالنز وأسقفه يودوكسيوس، فإن الأحداث لا تقر هذه الحقيقة. ذلك أن القوط عبروا الدانوب بموافقة الإمبراطور

(٤٣) راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة : الجزء الثانى . ص ١٧٨.

(٤٤) Laister, Thought and letters in western Europe, p. 19; Baiton, op. cit. I, p. 159; Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Davis, Medieval Europe, p. 22.

(٤٥) يذكر بعض المؤرخين أن أسقفا للقوط يدعى ثيوفيل Theophilus كان أحد شهود مجمع نيقية، غير أن مجرد اسم هذا الأسقف يدعو للشك فى كونه جرمانياً. راجع :
Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

عام ٣٧٦، وكان فالنز آنذاك فى أنطاكية ثم منبج Hierapolis ولم يكن بالقسطنطينية، لمتابعة الاستعدادات للحرب الفارسية، ولم يأت العاصمة إلا فى مايو ٣٧٨ عندما استفحل خطر القوط وأصبح الصدام وشيكاً بينهم وبين الرومان، ليلقى حتفه بعد هذا التاريخ بشهرين وعشرة أيام فقط. ثم ينهدم رأى ثيودوريتوس من أساسه إذا علمنا أن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية قد مات فى عام ٣٧٠، أى قبل هذه الأحداث التى يذكرها المؤرخ بست سنوات!!

ويضيف ثيودوريتوس أن القوط رفضوا دعوة الإمبراطور وأصروا على عدم التخلى عن عقيدة آبائهم. ولكن.. أى عقيدة تلك التى يعنيها مؤرخنا الكنسى؟ أهى الوثنية التى كان يدين بها الجرمان عامة؟ أم هى النيقية التى يدعى سوزومنوس أنهم تحولوا إليها بتأثير أولفيلا فى بادئ الأمر؟ فإن كانت الأخيرة، فقد سبق لنا مناقشتها، وأن كانت الأولى أمكننا القول بأن القوط الغربيين فى انقسامهم إلى فريقين تحت زعامة كل من أثاناريش وفريتجرن، قد انقسموا فى عقيدتهم، فبينما حافظ أثاناريش وجماعته على الوثنية، راح أولفيلا يبشر بالمسيحية بين أتباع فريتجرن، وعندما حاول أن يوسع دائرة بشارته لتضم أبتاع أثاناريش، أنزل هذا عذابه الأليم بمن تحول منهم، مما أدى إلى اعتبار هؤلاء فى نظر الآريوسيين من الشهداء[٤٦]. ولا يبعد أن يكون سلوك الملك العجوز صادراً عن اعتبار هذا العمل اعتداء على حقوقه أو انتقاصاً لسلطاته، ولابد أن يكون قد نظر إلى هؤلاء على أنهم أعوان لخصمه، خاصة فى الحرب الأهلية الدائرة بينهما، ولما كانت هذه الحرب قد انتهت بانتصار فريتجرن وتخلى أنصار أثاناريش عنه وانضمامهم إلى منافسه، ولما كان رجال فريتجرن وقبيله هم الذين توسلوا إلى فالنز ليسمح لهم بعبور الدانوب أولاً [٤٧]. ولما كان هؤلاء على الآريوسية، اتضح تماماً خطأ ما يذكره ثيودوريتوس عن عقيدة الآباء!

وكيف يمكن مسايرة ثيودوريتوس فى ادعائه بأن أسقف القسطنطينية قد نجح عن طريق الرشوة فى إغراء أولفيلا وقبيله بالتحول إلى الآريوسية وقد أجمع

(٤٦) SOCRAT. Hist. eccl. IV 33.
(٤٧) C. M. H. vol. I, pp. 231-32.

مؤرخو الكنيسة جميعهم على امتداح أولفيلا والثناء على خلقه والإشادة بفضائله[٤٨].

والذى نراه أن مؤرخى الكنيسة، واثنان منهم من بين رجال الدين[٤٩]. وكلهم متحمس للعقيدة النيقية، وثلاثتهم كتبوا تواريخهم فى القرن الخامس الميلادى، قد راعهم جميعاً تحول هذه الأعداد الضخمة من الجرمان عامة إلى الآريوسية، خاصة وإنها قد انتقلت من الفيزيقوط إلى جيرانهم من الأوستروقوط والوندال وغير هؤلاء من الشعوب الجرمانية الأخرى العديدة، حتى غدت الآريوسية هى دين الجرمان جميعهم عدا قبائل الفرنجة[٥٠]. ولا شك كان هؤلاء يتوجسون خيفة من أنتشار المسيحية الآريوسية بين الرومان، خاصة بعد أن أصبح الجرمان هم السادة الجدد للنصف الغربى من الإمبراطورية خلال القرنين الخامس والسادس، ومن ثم فإنه ليس من المصادفة ، كما يقول ليستنر Laistner[٥١]، أن نجد نيكيتا Niceta أسقف رمسيانا Remesiana (بالقرب من نيش)، وهو أسقف نيقى فى الجيل الذى خلف أولفيلا، يحذر المتقدمين لتناول المعمودية من تعاليم آريوس التى أخذت فى الانتشار فى هذه المنطقة.

والذى لا مراء فيه أن أولفيلا قد لعب دوراً كبيراً فى التبشير بالمسيحية فى صيغتها الآريوسية بين بنى قومه من الفيزيقوط، وساعده على ذلك ما اتصف به من حسن الخلق وطيب السيرة، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من الفصاحة وسحر البيان[٥٢]. ورغم آريوسيته إلا أنه قد استطاع أن يفرض نفسه على السجلات الكاثوليكية من خلال عمله الرائع بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الموئيزية – القوطية، بعد أن صنف الأبجدية القوطية من أربعة وعشرين حرفاً معتمداً فى

(٤٨) SOCRAT. Loc. cit. THEOD. hist. Eccl. IV 33; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37

(٤٩) كان سوزومنوس أحد رهبان غزة، بينما كان ثيودوريتوس أسقفا لكنيسة كيروس فى سوريا.

(٥٠) تحول القوط الغربيون فيما بعد عند استقرارهم فى أسبانيا من الآريوسية إلى النيقية، وكان ذلك فى عام ٥٨٩.

(٥١) Thought and letter in Western Europe, p. 20.

(٥٢) THEOD. Hist. eccl. IV 33; SOZOM. hist. Eccl. VI 37.

بعضها على اليونانية وفى بعضها الآخر على لسان أهل الشمال(٥٣). وقد ساعده على ذلك دراسته لليونانية واللاتينية أثناء تلقيه تعليمه فى كبادوكيا ثم القسطنطينية. وقد حرص فى ترجمته للكتاب المقدس على أن يحذف منه أسفار صموئيل والملوك لامتلائهما بالمعارك الحربية، وقال مبررا ذلك "بأن القوم أصلاً مولعون بالحروب ومن ثم فهم محتاجون الآن للقمة العيش أكثر من احتياجهم لمهماز الجواد، فلطالما أنهكت الحروب قواهم"(٥٤).

على هذا النحو كان الفيزيقوط قد تحولوا، أو بتعبير أدق عدد ليس بالقليل منهم، وهم الذين يشكلون أشياع فريتجرن، إلى المسيحية الآريوسية، قبل أن تضطرهم الأحداث إلى التوسل للإمبراطور فالنز كى يسمح لهم بعبور الدانوب، ذلك أنه فى عام ٣٧٠ كانت جحافل الهون Hunni الآسيوية قد وصلت إلى مشارف البحر الأسود ومصب الدانوب، بعد أن خرجت من مواطنها الأصلية وراحت تزحف غرباً فى سيل عرم عبر سهول روسيا الجنوبية، تبث الهلع فى أفئدة السارماثيين وجرمان هذه المناطق(٥٥). وتهاوت تحت ضرباتهم مملكة الأوستروقوط التى كانت تقوم آنذاك عند البحر الأسود، وأرغم اليأس ملكهم إرمانريش Ermanarich على الانتحار، وعبثاً حاول أثاناريش تنظيم وسائل الدفاع عن الجزء الخاضع لسيطرته من مملكة الفيزيقوط، بعد أن أمكن الفزع من قلوب قبيلة كلما صك مسامعهم وقع أقدام جماعات الهون، من ثم أضطر إلى الانسحاب مع أتباعه إلى خلف جبال الكربات، على حين أقدم رجال فريتجرن على إرسال مندوبيهم إلى الأمبراطور فالنز يلتمسون السماح لهم بعبور النهر للاحتماء خلفه من سيوف الزحوف الهونية، مع وعد بتعمير موئيزيا وتزويد الجيش بالجنود وإطاعة الإمبراطور فى كل ما يصدر عنه كما تفعل رعيته(٥٦).

---

(٥٣) SOCRAT. Hist. eccl. IV 33; Laistner, op. cit. p. 20; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

(٥٤) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. للمزيد من التفاصيل عن تحول الجرمان إلى الآريوسية، راجع

Neander, General history of the Christian religion and church, II, pp. 125-129; Shaff, history of the Christian church, III, pp. 640-641.

(٥٥) AMM. MARC. res gest. XXXI. 3.

(٥٦) Ibid. XXXI, 4.

هكذا أقبلت سنة ٣٧٦ تحمل فى طياتها نذر الشر للإمبراطورية وفالنز دون أن يدرى، ذلك أن الإمبراطور أو أحدا من مستشاريه السياسيين أو العسكريين، لم يحاول التريث لدراسة النتائج التى يمكن أن تترتب على قبول هذا الالتماس، وما يتبعه من استعدادات ضخمة فيما يتعلق بنواحى الأمن والتموين اللازمة لاستقبال هذا العدد الضخم من القوط، بل رحبوا جميعاً بهذه الفكرة، وأمر الإمبراطور "باستقبال هؤلاء المتضرعين" – على حد تعبير سقراط – أحسن استقبال، وأنزلهم فى موئيزيا، وأعتبر نفسه بهذا الأمر محفوظاً [٥٧]. فتساقط القوط على الإمبراطورية فى خريف عام ٣٧٦ عبر الدانوب بأعداد كثيفة تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف[٥٨].

ولا شك أن الآمال داعبت فالنز وقواده العسكريين فى إمكان الحصول على قوة عسكرية جديدة وكبيرة، تنهى هذه الأزمة الفارسية التى تسبب نزيفا مستمراً للإمبراطورية، خاصة بعد نقض الفرس شروط المفاوضات الجارية بينهم وبين فالنز لإقرار السلام، ولذا صادف ملتمس القوط فى نفس الإمبراطور هوى، ووجد فيه إرضاء لكبرياء عنده وغروره، وزين له الأمر مستشاروه، فقد ألقت إليه المقادير عدداً من الرجال لا حصر له، يمكنه فى تصوره – من بناء جيش لا يهزم. فيستغنى بذلك عن سياسة التجنيد الإجبارى فى الولايات ، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الأراضى البور فى تراقيا سوف تعمر بهم. بل إنه راح ينفذ سياسته هذه دون توان، فأهمل تجنيد أهالى الولايات التى أنزل فيها القوط، وأعفاهم من الخدمة العسكرية، فى مقابل دفع ضريبة البدلية، حتى يزيد بذلك الدخل العام. ويعلق سقراط بعينى المؤرخ الناقد على ذلك بعبارة رائعة تقول "وكان لهذا التغيير الذى حدث أكبر الأثر، بل كان يمثل أصل كثير من الأخطار التى تعرضت لها من بعد الإمبراطورية"[٥٩]. ويضيف سوزومنوس "لقد كان فالنز يعتقد أن القوط سوف

(٥٧) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 34 ويقول سقراط معلقاً "وكانت هذه هى الحالة الوحيدة فقط طيلة عهده التى ظهر فيها رحيماً" والحقيقة أن فالنز كان مكروها من رعيته كلها بسبب وحشيته وغلظته، من النيقيين باعتباره آريوسيا متحمساً، ومن الوثنيين لكونه مسيحياً متعصباً. راجع. C. M.H, I, p. 235.

(٥٨) AMM. MARC. Res gest. XXX I. 4.

(٥٩) SOCRAT. hist. eccl. IV, 34.

يكونون أكثر نفعاً للإمبراطورية وشيئاً مخيفاً لأعدائها، ولكنه عرف – بعد فوات الأوان. جسامة الخطأ الذى ارتكبه"(٦٠).

ولم يكن استقرار الجرمان على قطعة من الأرض الرومانية أمراً مستغرباً، فقد جرى ذلك من قبل على عهد أورليان Aurelianus كما أسلفنا، ولم يكن استخدامهم فى الجيش الرومانى حدثاً غير عادى،، فقد كان ذلك شيئاً شائع الحدوث فى القرن الرابع، لكن الذى يدعو للاهتمام، هو استقبال هذا العدد الكبير من الجرمان دفعة واحدة، وانزالهم فى منطقة بعينها دون اتخاذ أى من الاستعدادات اللازمة لذلك. ولم يكن للإمبراطور من شروط إلا أن يسلم القوط أسلحتهم، ومع أن هذا الشرط قد بدا لأعين القوط صارماً، إلا أن القدر الذى أنجاهم من سيوف الهون تمثل لهم الآن فيما يتطلبه الإمبراطور رحيما(٦١). ومن ثم أعلنوا على الفور قبول ذلك، غير أن الضباط الرومان الذين وكل إليهم تنفيذ ذلك صرفوا همهم إلى الاغتصاب والسلب دون تجريد محاربى القوط من أسلحتهم، مما كان له أفدح النتائج بالنسبة للأحداث التى ألمت من بعد بالإمبراطورية.

وقد ترك موظفو الإمبراطور وقواده فى منطقة تراقيا للظروف وحدها مهمة إطعام هذه الجموع، وزاد الأمر سوءاً أن سيق عدد لا بأس به من القوط تحت قيادة يوليوس، القائد الرومانى، تجاه الحدود الشرقية حيث أعيد تنظيمهم فى وحدات جديدة للعمل على الجبهة الفارسية. وكان هذا الإجراء فى حد ذاته وما تبعه من إرسال بعضهم شتاء إلى أدرنه Adrianoplis ، يعنى لدى الجرمان تمزيقاً لبقائهم القبلى، وفتح الباب لفقدان الثقة بين النزلاء الجدد والإمبراطورية، زاد هوتها سوء معاملة موظفى الإمبراطور وقواده خاصة فيما يتعلق بمسألة التموين. ويتحمل لوبيكينوس Lupicinus النائب العسكرى لتراقيا، وماكسيموس Maximus القائد المحلى، النصيب الأكبر فى هذه الناحية، إذ استغلا المجاعة التى كان يعانى منها القوط، وراحو يبيعونهم لحوم الكلاب، ثم باعوا أبناء القوط أنفسهم عبيداً فى الأقاليم. وكان لابد أن يشعر القوط بالإهانة من جراء هذه المعاملة(٦٢).

(٦٠) SOZOM. hist. eccl. VI 37.

(٦١) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. C. M. H. I, p. 232

(٦٢) AMM. MAR. res gest. XXXI, 4.

وكان هذا كله إيذاناً بتجميع القوط لقواهم وقواتهم والدخول فى معركة حاسمة مع الإمبراطورية الرومانية، وقد جرى ذلك سريعاً فى عام ٣٧٨ عند مدينة أدريانوبل (Ederne) Adrianoplis حيث لقى الجيش الرومانى هزيمة مروعة راح ضحيتها – فى أقل التقديرات – حوالى خمسة وأربعين ألف جندى، وخر الإمبراطور فالنز نفسه صريعاً، وباتت منطقة البلقان ومن ورائها الولايات الرومانية فى الشطر الغربى تحت رحمة الجحافل الجرمانية (٦٣).

وتعد معركة أدريانوبل من المعارك الفاصلة فى التاريخ، إذ كانت لها نتائجها البعيدة التى تركت آثارها الواضحة على مسيرة التاريخ الأوربى عبر العصور الوسطى، بل وامتدت هذه الآثار إلى العصور الحديثة نفسها، ناهيك عن النتائج المباشرة التى ترتبت على هذه المعركة، حيث فتحت حدود الإمبراطورية الرومانية أمام الجحافل الجرمانية، التى تمكنت خلال القرن الذى أعقب المعركة من إسقاط نصف الإمبراطورية الغربى، وأقامت على أنقاضه ممالك جرمانية تمثلت فى مملكة الأنجلو – سكسون فى إنجلترا، ومملكة الفرنجة فى غالة، ومملكة القوط الغربيين فى إسبانيا، ومملكة الوندال فى أفريقيا، ثم مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا، ليأخذ تاريخ أوروبا العصور الوسطى بذلك منحىً مغايراً تماماً لما كان عليه فى العصور القديمة(٦٤).

---

(٦٣)عرض المؤرخ المعاصر "أميانوس ماركللينوس" Ammianus Marcellinus لمعركة أدريانوبل بالتفصيل فى الجزء الأخير من كتابه Res gestae حيث تتوقف أحداث الكتاب عند هذه المعركة.

(٦٤) للمزيد من التفاصيل عن النتائج المباشرة والبعيدة لمعركة أدريانوبل، راجع للمؤلف، الإمبراطورية البيزنطية، الجزء الأول، الفصل الثالث.



الفصل الثاني

تداعى المسيحية الحكومية

الفصل الثاني

تداعى المسيحية الحكومية

حققت الآريوسية انتصارها وسيادتها على النيقية، خلال السنوات التى حكمها الإمبراطور قسطنطيوس منفرداً، وعلى امتداد عهد فالنز. وإذا كانت قد امتدت لتشمل الإمبراطورية كلها بشقيها زمن أولهما، فإنها قد انحسرت أيام ثانيهما إلى الشطر الشرقى فقط. ولم تكن كنيسة ميلانو فى الغرب بآريوستها إلا ميراثاً خلفه قسطنطيوس لأوكسنتيوس عندما كان المد الآريوسى جارفاً، ولم يكن بقاؤه فى أسقفيته حتى انتصاف سبعينيات القرن الرابع الميلادى إلا إفادة من سياسة "التغاضى" التى اتبعها الإمبراطور فالنتينيان الأول إزاء كل الفرق المسيحية.

وبموت فالنز أصبح مصير الآريوسيين فى الشرق فى يد المقادير ، خاصة وهؤلاء يعلمون أن الإمبراطور جراتيان، الذى آل إليه الآن حكم النصف الشرقى، يؤيد النيقية. ورغم أن كنيسة القسطنطينية قد ظلت طيلة أربعين عاماً كاملة (٣٣٩ -٣٧٩) آريوسية، ويتربع على كرسيها الآن ديموفيلوس إلا أن هذا وأهلها كانوا يخشون أن يفرض عليهم إمبراطور من الغرب آت، يدين بعقيدة القوم هناك، وهى النيقية التى ركن الغرب إليها ولم يبغ عنها حولا.

وفى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من وجود إمبراطور، وهى الشهور الواقعة بين مقتل فالنز وإعلان ثيودوسيوس إمبراطور (أغسطس ٣٧٨- يناير ٣٧٩) وامتدادها حتى دخول الإمبراطور الجديد إلى عاصمته فى نوفمبر ٣٨٠، ماجت القسطنطينية بشتى الفكر، وازدادت حدة الخلافات اللاهوتية بين الدوائر الكنسية، وتخطت هذه إلى رجل الشارع، ما بين الآريوسيين بفرقهم العديدة، والماكيدونيين، وهؤلاء جميعاً والنيقيين، وأصبحت العاصمة فإذا الناس فيها كلهم ولا حديث لهم إلا المسألة العقيدية، فقهوا من أمر اللاهوت شيئاً أو جهلوه، وهذه هى الفترة التى عبر عنها اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus بقالته الرائعة وهو يصف القسطنطينية وأهلها: "لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق

والأزقة. فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشيء، فلسفوا لي الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت في الوقوف على ثمن الخبز، أجابني البائع بأن الأب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامي قد أعد، جاءتني الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم!!".

وكانت كنائس القسطنطينية كلها دون استثناء بيد الآريوسيين، وقد حاول النيقيون ذات مرة فى عام ٣٧٠ بعد وفاة يودوكسيوس، أن يختبروا قوة خصومهم، وأن يتحسسوا مواقع خطاهم، وذلك باختيار ايفاجريوس أسقفاً لهم، غير أن هذه المحاولة حققت فشلاً ذريعاً، واستمرت الأسقفية بأيدى الآريوسيين الذين رفعوا ديموفيلوس إلى كرسيه، بعد أن تدخلت القوات التي بعث بها فالنز لصالح الآريوسية. والآن، وفى خلو العرش من حاكم، واستناداً إلى المرسوم الذى أصدره الإمبراطور جراتيان عام ٣٧٩ بالتسامح العام فى الإمبراطورية، أقدم النيقيون فى القسطنطينية على إعادة المحاولة مرة ثانية، ووقع اختيارهم هذه المرة على أحد الآباء الكبادوكيين الثلاثة الأشهار، هو جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus أسقف نازيانزا[١]. ومع أن تطلعات النيقيين بهذا الاختيار كانت

(١) ينتمى جريجورى لأبوين مسيحيين، وهو سمى لأبيه الذى كان أسقفا لنازيانزا Nazianzus ولد حوالى سنة ٣٢٥، وحرصت أمه على تنشئته تنشئة مسيحية صادقة. وقد أرسل هو وأخوه قيصر Caesarius إلى قيسارية الكبادوك لتلقى تعليمهما، وهناك التقى بصديق عمره باسل الكبير، ثم انتقلا إلى قيسارية فلسطين، ومنها للإسكندرية فى الفترة التى كان فيها اثناسيوس الأسقف السكندرى لاذا بالغرب (٣٣٩-٣٤٦). ولم يلبث جريجورى أن انتقل بعد ذلك إلى أثينا لإكمال تعليمه، وهناك فى جامعتها ثانية التقى بباسل الكبادوكى، وكانا زميلين للأمير جوليان الذى صار إمبراطورا فيما بعد (٣٦١-٣٦٣). فلما عاد إلى مسقط رأسه بعد اثنتى عشرة سنة أمضاها فى أثينا، راح يتنقل بين نازيانزا وبين أحد الأديرة فى بونطس مع صديقه باسل. وفى عام ٣٥٩ أعطى أبوه توقيعه على المرسوم المزدوج الصادر عن ريمنى وسلوقية، مما أثار غيظ الرهبان فأعلنوا تحديهم له وأثاروا عليه بعض رجال الدين مما دفع جريجورى إلى المقام بجوار والده، وحثه على إعلان إيمانه بالنيقية ورفض المرسوم المزدوج، وبذلك انتهى الشقاق الذى حدث فى كنيسة نازيانزا. ولما كان جريجورى الأب قد بلغ من الكبر عتياً، فقد خضع لإلحاح رعيته برسم إبنه كاهنا ليساعده، ،وتم ذلك فى عام ٣٦١ على غير رغبة الابن. فلما مات الأب عام ٣٧٤، أصبح جريجورى الإبن أسقفاً خلفاً له، وظل هناك حتى استدعاه أهالى القسطنطينية النيقيون ليكون راعياً لهم. وقد ترك جريجورى تراثاً لاهوتياً=

واسعة، إلا أن طموحاتهم كانت محدودة مخافة أن تصاب محاولتهم الثانية هذه بالإخفاق كما جرى لهم أول مرة. ومن ثم دعوه ليكون راعياً لهم وممثلاً لفريقهم، يلتفون من حوله، ويقوم هو بأداء الخدمة الكنيسة، دون إثارة شعور الفريق الآريوسى الذى مازال من الناحية الرسمية صاحب السيادة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، وصاحب الحق الشرعى فى كرسى القسطنطينية الأسقفى.

وكان جريجورى النازيانزى على قدر كبير من الثقافة، نهل من الفكر اليونانى فى الإسكندرية وأثينا، ثم صرف همه بعد ذلك لدراسة اللاهوت، وهو يمثل مع باسل أسقف قيسارية كبادوكيا وجريجورى أسقف نيسا، أشهر آباء اللاهوت اليونان فى أخريات القرن الرابع الميلادى، كما أنهم يعتبرون بحق جيل النيقية الجديد المعتدل الذى يخفف من غلواء التطرف عند جيل النيقية الأول المتمثل فى كل من يوستاتيوس Eustathius الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى، ولهذا استحق جريجورى النازيانزى أن يدعوه المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى إفسوس سنة ٤٣١ "الكبير" وأن يعرف عالمياً باسم "اللاهوتى".

ولما لم يكن للنيقيين فى القسطنطينية كنيسة يؤدون فيها طقوسهم، فقد أقدم جريجورى على تحويل منزل أحد أصدقائه فى العاصمة إلى كنيسة، وأطلق عليها كلمة لها مغزاها هى "البعث" Anastation (resurrection) وهو يعنى بذلك بعث الإيمان النيقى من جديد أو إعادته إلى الحياة مرة ثانية بعد أربعين سنة من السيادة الآريوسية(٢). وقد نجح جريجورى بالفعل بعظاته ونشاطه وحيويته وحسن بيانه أن

=وفكرياً كبيراً وضعه ضمن آباء اللاهوت الشهيرين فى الكنيسة الشرقية بصفة خاصة. للمزيد من التفاصيل عن جريجورى وأعماله راجع: Nicene and post Nicene fathers, Vol VII وسوف نورد لها ثبتا فى قائمة المصادر فى نهاية الكتاب. وانظر أيضاً. SOCRAT. Hist. eccl. V 6; RVFIN hist. eccl. II 9 وقد عرف جريجورى النازيانزى باسم "الالهى" وهو الوحيد من بين آباء الكنيسة فى الشرق والغرب الذى يشترك فى هذا اللقب مع يوحنا الانجيلى. راجع: Nicene and post Nicene fathers, vol. VII p. 187; Baynes & Moss, Bzantium, pp. 93-84, 212-213, 226; Laistner, op. cit. p 64.

(٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 5; SOCRAT. hist. Eccl. V 7 ويورد سوزومنوس كعادته فى مثل هذه الأمور رواية أخرى بالإضافة إلى التفسير الأول، ويقدم لها بكلمة "كما سمعت"=

يجمع حوله قلوب فلول "الهوموسيين" الذين كانت قد ضاقت بهم السبل، ولكنه أثار فى الوقت ذاته حسد الفرق المسيحية الأخرى وحقدها، مما دفعهم إلى مهاجمة هذا المنزل الذى اتخذ منه كنيسة، فى محاولة للاعتداء على حياته، فلما لم يدركوه، حطموا الأوانى المقدسة التى عثروا عليها(٣). وكان هذا العمل دليلا على المكانة التى احتلها جريجورى بشكل سريع وغير متوقع فى نفوس جموع القسطنطينية، وترك آثاره السيئة على نفس جريجورى، تضافرت معها عوامل أخرى عديدة كانت دافعاً له على محاولاته المتكررة للتخلى عن منصبه، حتى قبل أن يرسم بصفة رسمية أسقفاً للقسطنطينية.

وكان من بين هذه العوامل أن شخصاً يدعى ماكسيموس Maximus اسكندرى المولد، درس الفلسفة الكلبية وأصبح أحد أساتذتها، وأعلن فى الوقت ذاته تمسكه بالهوموسية وتحمسه الزائد لها، جاء إلى القسطنطينية حوالى ذلك الوقت التى استدعى إليها جريجورى وتقرب إليه ثم قلب له ظهر المجن وناصبه العداء. ووسط التيه الذى يغرقنا فيه مؤرخو الكنيسة حول ماكسيموس هذا وعلاقته بجريجورى(٤) نستطيع أن نتلمس طريقنا بشق الأنفس، وبكل الحذر والروية.

فنحن لا نسمع شيئاً مطلقاً عن ماكسيموس هذا إبان الفترة التى كان فيها لوقا الآريوسى أسقفاً للإسكندرية على عهد الإمبراطور فالنز، ولكن فيما يبدو لم يلبث أن وصل صفوفه ببطرس السكندرى حالة عودته من مهربه فى روما،، بعد طرد لوقا ومقتل فالنز، وأصبح مقرباً منه أثيراً لديه، فلما خلا عرش القسطنطينية من إمبراطور يسوده، وراح النيقيون يبحثون لهم عن وجود وحياة، كان هذا كفيلاً بتشجيع كثير من العناصر الطامحة للذهاب إلى القسطنطينية للبحث عن مجال تعلى فيه قدرها. وكان كرسى العاصمة الأسقفى يغرى الكثيرين بالقفز عليه، على الرغم

=وخلاصتها إنه فى أحد الأيام أثناء الصلاة سقطت إحدى النساء الحوامل من أعلى الدهليز وفارقت الحياة لساعتها، فلما أقيمت الصلوات من الجموع، عادت إليها الحياة وكذا جنينها!! (هكذا) ومن ثم أمام المعجزة حمل المكان اسم البعث.

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Loc. Cit. Hefele, op. cit. II p. 341.

(٤) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Hist eccl. VIII 8; THEOS. Hist. Eccl. V 8.

من وجود أسقف آريوسى يحتل المنصب. وهذا شىء بدا واضحاً فى سلوك الأساقفة أثناء انعقاد مجمع القسطنطينية وبعد اعتزال جريجورى، إذ راحوا كلهم يصطرعون من حوله(٥). ولا شك ساعد على هذا أن الفريق النيقى كان يعلم ما يدين به إمبراطور الغرب جراتيان الذى سرعان ما أفصح عن عقيدته بمرسوم التسامح الذى أصدره عقب موت عمه فالنز، من أجل هذا واتت النيقيين فى العاصمة الشجاعة فأرسلوا فى استدعاء جريجورى ليكون راعياً لهم. ولما كان بطرس السكندرى، أعلم الناس بحقيقة إيمان إمبراطور الغرب لوجوده قريباً منه فترة ليست بالقصيرة، ولما كان يسعده تماماً أن يرى أحد أنصاره أسقفاً على كنيسة العاصمة الإمبراطورية، فلابد أن يكون قد شجع ماكسيموس هذا على الارتحال إلى القسطنطينية عله يفلح فى مبتغاه، وقد أثبتت الأحداث صدق ما نذهب إليه.

فما أن جاء ماكسيموس إلى العاصمة حتى وجد جريجورى قد سبقه إليها، وأنه قد حاز شهرة واسعة، وأن النيقيين فى المدينة قد التفوا من حوله، لذا لم يجد أمامه من سبيل إلا أن يجعل من نفسه واحداً من رعايا جريجورى، ثم من أصدقائه، ثم من المقربين. ولما كان يعلم محبة جريجورى الرهبانية، فقد راح يمارس رياضة الزهد، فكسب بذلك ثقة جريجورى إلى حد كبير جداً، حتى بلغ الأمر بجريجورى أن يخصص إحدى خطبه لامتداحه والثناء عليه. غير أن ماكسيموس كشف عن حقيقة أمره عقب الهجوم الذى دبرته بليل الفرق المسيحية المعادية "للهوموسية" على كنيسة أنسطاسيا، فلم يُبْد أى امتعاض لما حدث، بل أدرك أنه بهذا الحادث يمكنه تحقيق مأربه، فانتهز فرصة الغضب والسخط الذى تكنه الفرق الآريوسية لجريجورى، والمرض الذى ألم به على أثر هذا الاعتداء، ودبر مع خمسة من رجال الأكليروس المصريين الذين كان بطرس قد بعث بهم إلى العاصمة، أمر رسامته أسقفاً للقسطنطينية(٦). بعد أن نجح فى شراء بعض أصوات الدهماء فى العاصمة، وقد تم ذلك حوالى منتصف سنة ٣٨٠ أى قبل قدوم الإمبراطور ثيودوسيوس إليها. غير أن شعب الكنيسة المؤيد لجريجورى ما

---

(٥) SOZOM. hist. Eccl. VII 7.

(٦) GREG. NAZ. orat. XXXIV; Nicene and p. n. f. VII

أن علم بهذا الأمر فى صبيحة اليوم التالى، حتى هاجموا مقر ماكسيموس واكليروسه، واضطروه إلى الفرار خارج العاصمة، فولى وجهه شطر سالونيك حيث يقيم ثيودوسيوس لعل الظروف تسنح له بعرض قضيته عليه، أو لعله يجد عنده ملاذا(٧). ومن الجدير بالذكر أن استقراء تاريخ الكنيسة السكندرية خلال القرون من الرابع إلى السابع، يشير صراحة إلى أن عدداً من أساقفتها قد لجأوا فى كثير من الحالات لممارسة مثل هذا الأسلوب الذى استخدمه ماكسيموس، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى إيمان كنيسة الإسكندرية أنها أعلى كعباً من كنيسة القسطنطينية، وأن رجالها أحق من غيرهم باعتلاء كرسيها الأسقفى. وإذا كان جريجورى قد كسب بجهود رعيته النيقية هذه الجولة، فإن الإسكندرية لن تنسى أو تغفر له ذلك. ومن ثم سنجدها تنتهز أول فرصة تسنح لها للانتقام لنفسها. إلا أن هذه الحادثة قد زادت اللاهوتى الكبادوكى رغبة فى التخلى عن مهمته فى العاصمة والعودة إلى أسقفيته.

غير أن الإمبراطور ثيودوسيوس لم يحقق له هذه الرغبة، على الأقل فى المدى القريب جداً، ذلك أنه ما أن عاد إلى القسطنطينية حتى أعلن صراحة عن سياسته العقيدية الممالئة للنيقية، وجاء ذلك فى أول تصريح رسمى له(٨). ثم ما لبث أن استدعى إليه أسقف العاصمة الآريوسى ديموفيلوس وطلب إليه العودة إلى "الهوموسية". فلما أبى أقدم الإمبراطور على سحب كنائس المدينة كلها من يد الآريوسيين وسلمها إلى النيقيين، فجمع ديموفيلوس شيعته وقرأ فيهم أية الإنجيل" ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى"(٩). وولى وجهة خارج أسوار القسطنطينية حيث تبعه الآريوسيون، ليمارسوا إلى حين طقوس عقيدتهم، وقد صحبهم فى هذا الخروج لوقا الأسقف الآريوسى طريد الإسكندرية (١٠). واستقدم الإمبراطور إليه جريجورى النازيانزى وأعلنه أسقفاً للقسطنطينية بعد أن تمت

---

(٧) Nicene and p. n. f. III p. 136, n. 3, col. A; Hefele, op. cit. II p. 341.

(٨) THEOD. Hist. Eccl .V 6

(٩) متى ١٠/٢٣.

(١٠) SOCRAT. Hist. Eccl V 7; SOZOM. Hist. Eccl . VII 5.

رسامته على يد ميلتيوس Meletius الأنطاكى، الذى كان قد شخص إلى العاصمة مبكراً لهذا الغرض(١١).

هكذا آذنت شمس الآريوسية بالمغيب، بعد أن آمنت بها كل كنائس الشرق سنين عددا، وخضعت لها كل كنائسه عدد سنين. وتمتعت هى بالسيادة فترة قاربت نصف القرن من الزمان إلا قليلاً. وشغلت فكر وجهد الإمبراطورية كلها قرابة ثلاثة أرباع القرن الرابع الميلادى، ابتداء بالأباطرة ورجال البلاط والدوائر السياسية وثكنات الجنود، وانتهاء برجل الشارع والجموع. ولئن كان الصراع العقيدى بين النيقيين والآريوسيين، وهؤلاء الأخيرين وأنفسهم، قد أثرى الفكر الإنسانى بهذه المباحث الجدلية، إلا أنه أرهق العقيدة من أمرها عسرا، وخرج بها من بساطتها الأولى إلى تعقيدات المدارس الفلسفية اليونانية على اختلاف أفكارها وآرائها وتراث الفكر الشرقى القديم. وبغض النظر عما يقوله مؤرخو الكنيسة وآباؤها فى كتاباتهم، فإن النيقيين والآريوسيين على قدر سواء مسيحيون، لمسيحيتهم التى ارتضاها كل لنفسه، مخلصون، يبحوث عن مستقر ومقام على أرض ثابتة يبنون عليها فكرهم. وكل يستمد آراءه ويقدم حججه من آى الكتاب المقدس وتعاليم الآباء (١٢). وبينما يمثل الهوموسيون الاتجاه المحافظ الذى يخشى

---

(١١) SOCRAT. hist. Eccl. V 8; THEOD, hist. Eccl. V 8.

(١٢) راجع آراء الأريوسية كما جاءت على لسان آريوس فى THEOD hist. Eccl. I 4؛ ورسالة يوسيبيوس النيقوميدى إلى باولينوس الصورى فى Ibid. I 5 ووثيقة إيمان آريوس SOCRAT. hist. Eccl. I 26 ومراسيم الإيمان الصادرة عن مجمع التدشين الأنطاكى سنة ٣٤١ فى

ATHANAS. De Syn. 28; HILAR. De Syn. 29-30.

ومرسوم سيرميوم الثانى الصادر سنة ٣٥٧ فى ATHANAS. Ibid. 28; HILAR. Ibid. 11.

وآراء آيتيوس السورى فى GREG. NYS. Con. Euno,. I 6;BASIL. De spir san. II 4;

SOCRAT. Hist. Eccl. II 35; SOZOM. Hist. Eccl II 15, IV 26 وصيغة الإيمان الهوموية التى سادت فى (٣٥٩-٣٧٨) فى ATHANAS. De Syn. 29

أما عن النيقية فيكفى فقط أن نعود إلى قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ فى SOCRAT. Ibid. I. 8; THEOD. Ibid. I. 11 وكذلك خطب أثناسيوس ضد الأريوسيين (Nicene and p. n. f. IV pp. 306-447) Orations c. Arianos

فتح باب الاجتهاد وإعمال الفكر فى أمور لقيت قبولاً ومصادقة لدى جموع المسيحيين بعامة ابتداء بمجمع نيقية ، فإن الآريوسيين يدعون بحق أصحاب المنهج العقلانى المجتهد الذين يحاولون إرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية يرتضيها المثقفون ورجال الفكر فى زمانهم، وهذا لا ينفى أيضاً أن النيقيين السلفيين جاءت عقيدتهم هم الآخرون فى جوهرها مزيجا بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية والتراث الشرقى منذ أيام كلمنت وأوريجن السكندريين.

ومن هنا لم تجد الآريوسية لها فى الغرب صدى، ولم تجد لها أيضاً فى الشرق بين البسطاء من يتفهمها، وكانت أشد الجماعات كراهية لها ومقتاً هم الرهبان، سواء فى مصر أو فلسطين أو آسيا الصغرى [١٣]. ومن ثم انحصرت طيلة فترة سيادتها بين المفكرين وأصحاب الاتجاه العقلى من رجال الاكليورس والعلمانيين على السواء، وكان هذا واضحاً تماماً فى المدرسة اللاهوتية الانطاكية، التى ظل تأثيرها باقياً وفعالاً حتى أخريات القرن الخامس الميلادى.

وقد يبدو من غرائب الأمور أن تنتقل الآريوسية بعد زوالها من المجتمع الرومانى إلى الشعوب الجرمانية. إذ كيف يمكن لهذه الجماعات التى لم تدرك حظاً من الثقافة، أن تركن إلى الآريوسية التى تتطلب فى جوهرها إعمال الفكر؟ غير أن الأمر ليس على هذا النحو من التعقيد . فالجرمان قبلوا الآريوسية لأنها تتفق مع أوليات التفكير الواقعى فى الحياة العادية، على النحو الذى بشر بينهم به أولفيلا، والتى هى فى الوقت ذاته مبادئ الآريوسية الأصلية التى نادى بها آريوس السكندرى سنة ٣١٨، والقائلة بأن الآب سابق فى الوجود على الابن، وأن الله أعظم من الابن، وأن المسيح مخلوق شأن سائر الخلائق. ومن هنا، ولهذا المبادئ الأولية البديهية كان إيمانهم بها وحرصهم عليها، رغم وجودهم وسط المجتمع الرومانى فى الغرب والذى يدين كله بالنيقية.

---

(١٣) عن أسباب كراهية الرهبان للآريوسية راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص ٢٢٩-٢٣٢، ٣٣٠-٣٣٣، وله أيضاً الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الفصلين الثانى والثالث.



وفوق هذا وذاك فإن الآريوسية كانت هى المسيحية التى وجدها الجرمان آنذاك فى الإمبراطورية، ولم يرهقوا أنفسهم فى البحث وراء أسرار المسيحية والخلافات العقيدية، ومن ثم لا يعدو الأمر ببساطة أن هذه الآريوسية كانت لديهم هى المسيحية وفقط.

هكذا لم يكن للآريوسية منذ البداية فى الغرب نصيب، لأن الآريوسية بطبيعتها تعتمد الجدل العقلى مدخلاً ضرورياً لمعرفة المسيحية والإيمان بها. وبينما يصر أوغسطين Augustinus أبو الكنيسة اللاتينية فى القرن الخامس الميلادى على ضرورة الإيمان أولاً "أومن لكى أفهم"، يقف العقليون فى الشرق على الطرف الآخر المضاد، إذ يحكمون عقولهم قبل قلوبهم فى مسائل الإيمان، وفى الوقت الذى يعترف فيه هيلاريوس أسقف بواتييه فى غالة فى القرن الرابع، أنه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد مجمع نيقية المنعقد فى عام ٣٢٥ لا يعرف شيئاً عن "الهوموسية" (الابن مساو للآب فى الجوهر) قاعدة الإيمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة فى الشرق والغرب، ومفتاح باب آتون الصراع اللاهوتى طيلة القرن الرابع، كان آباء الكننيسة الشرقية منذ القرن الثانى وما تلاه يملأون صفحات كتبهم بمسائل عقلانية جدالية حول مكانة الأقنوم الثانى فى الثالوث، الكلمة، الابن، ويأتى فى مقدمتهم كلمنت وأوريجن وديونيسيوس فى الإسكندرية، ولوقيانوس الأنطاكى، وآباء كبادوكيا الثلاثة، جريجورى النازيانزى، وجريجورى النيساوى، وباسل القيسارى، ثم يوحنا ذهبى الفم.

وكان هذا أمراً طبيعياً يتمشى واختلاف كل من شطرى الإمبراطورية عن الآخر فى النواحى الفكرية والمجالات الثقافية، إذ كان الغرب اللاتينى يفتقر إلى المدارس الفلسفية التى زخر بها الشرق اليونانى، كما أن اللغة اللاتينية لم تكن لها نفس الحيوية والعطاء الذى تميزت به اليونانية، حتى أننا نجد الخلاف العقيدى فى القرن الرابع كله لا يخرج لغة عن حروف معينة تضاف إلى مصطلح "الهوموسية" Homoousius أو تحذف منها، لتباعد بين الفرق المختلفة بعدا كبيرا، فـ"الهوموسية" تعنى المساواة فى الجوهر بين الآب والابن، فإذا أضيف إليه حرف "اليوتا" فى اللغة اليونانية (i) لتصبح الكلمة "هومويوسية" Homoiusius انقلب

المعنى إلى "التشابه فى الجوهر" وإذا حذف من الكلمة الجزء الأخير وهو مقطع "الجوهر" essence (ousia) أضحى تعبير "الهوموية" Homoeos يعنى "التشابه" فقط بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه!!

وتجسدت الخلافات رغم كثرتها فى اتجاهين رئيسيين مثلتهما مدرستا الإسكندرية وانطاكية لتفسير الكتاب المقدس، اتخذت الأولى بتأثير أستاذها أوريجن اللاهوت العلمى الأفلاطونى والتفسير المجازى، واختطت الثانية بفكر زعيمها لوقيانوس المنهاج الأرسطى والتفسير العقلى. ولما كان آريوس القس السكندرى، قد تقلد المناصب الكهنوتية الأولى فى الإسكندرية وتأثر بمدرستها، وتلقى تعليمه اللاهوتى فى المدرسة الأنطاكية، فقد جاءت آراؤه اللاهوتية مزيجاً من الفكر الأفلاطونى فى القول باستحالة الخلق المباشر، والمنهج الأرسطى فى المنطق، ولهذا كان من اليسير أن تتقبل الأوساط الكنسية المثقفة فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية هذه الآراء، بينما تمجها دوائر الأكليروس فى الغرب. وازداد عداء الغرب للآريوسية، بعد أن أضيف إلى قانون الإيمان الكنسى فى مجمع نيقية المكسونى مصطلح "الهوموسية" بعد أن ألقى بها هوسيوس القرطبى إلى مسامع الإمبراطور قسطنطين، وهى صيغة كانت مقبولة فى الغرب منذ استخدمها للمرة الأولى الأسقف الرومانى ديونيسيوس فى مراسلاته مع سميه الأسقف السكندرى فى القرن الثالث، واضطر الأخير إلى قبولها كارها ارضاء لقرينه أسقف روما.

ورغم أن الأسقف السكندرى أثناسيوس لم يذكر هذا التعبير فى أسفاره العديدة خاصة عمله الذى يقترب من الأعمال العقيدية وهو خطبه ضد الآريوسيين Orations contra Arianos إلا مرة واحدة، إلا أنه ظل على ولائه لها طيلة عمره الأسقفى، بل أصبح هو المدافع عنها عندما تحول العالم كله آريوسيا فى عهد قسطنطيوس، وفاء لسلفه الأسبق ديونيسيوس. وكان هذا من بين العوامل الهامة التى زادت الغرب تمسكاً بهذه الصيغة بعد أن لاذ أثناسيوس بحماه أثناء فترة نفيه الثانى، وبعد أن قدر فيه جهاده من أجل الحفاظ عليها. وبالمثل آوى الغرب إليها واطمأن بها ولم يجد للتحول عن سنة السلف دافعاً.

لكن الآريوسية فرضت على الغرب بإرادة الإمبراطور قسطنطيوس وقرارات مجمعى آرل سنة ٣٥٣ وميلانو عام ٣٥٥. ولم يكن لعقيدة هذه طبيعة انتشارها، أعنى بقرار من الحاكم، أن يقدر لها البقاء فى الغرب الذى يكرهها قدر جهالته بها وعجزه عن فهم منطق فكرها. ولهذا لم يلبث أن ارتد أساقفة الغرب الذين شهدوا مجمع ريمنى عام ٣٥٩، والذين اقتيدوا إلى التوقيع على قانون الإيمان الآريوسى فى صيغته "الهومويية" ارتدوا إلى النيقية حتى قبل أن يوليهم قسطنطيوس دبره متحرفا إلى الشرق.

غير أن إحدى الأسقفيات الهامة فى هذه المنطقة، وهى ميلانو، ظلت على ولائها للآريوسية بفضل وجود أسقفها أوكسنتيوس، وبسبب السياسة التى سار عليها الإمبراطور فالنتينيان الأول بالعزوف كلية عن التدخل فى المسائل الكنسية، واستطاع أوكسنتيوس خلال أسقفيته الطويلة (٣٥٥-٣٧٤) أن يجتذب إلى جانب عقيدته عدداً ليس بالقليل من أهالى ميلانو، بل أفلح أيضاً فى أن يضم إلى كنيسته الإمبراطورة جوستينا زوج فالنتينان الأول، التى تركت تأثيرها واضحاً على ابنها فالنتينيان الثانى الذى أعلن إمبراطوراً شريكاً فى عام ٣٧٥ مع أخيه الأكبر جراتيان بعد موت أبيهما. ومما يدل على كثرة عدد الآريوسيين فى المدينة تلك الاضطرابات التى أعقبت وفاة أوكسنتوس عام ٣٧٤ بسبب استبقاق النيقيين والآريوسيين لاختيار مرشح جديد للأسقفية والتى كانت من نصيب أمبروز.

هذه الخلفية الآريوسية التى كان عليها عدد ليس بالقليل فى ميلانو، دفعت أمبروز بكراهيته للآريوسية أن يبذل جهده قدر استطاعته للقضاء على قلعتها الأخيرة فى الغرب، وشجعه على ذلك الاتجاه النيقى المتحمس عند كل من جراتيان وثيودوسيوس وكانا يكنان له الاحترام. غير أن أمبروز اصطدم هنا بالإمبراطورة الأم جوستينا وإبنها الإمبراطور الصبى فالنتينيان؛ فقد طالب الآريوسيون فى المدينة أن تخصص لهم إحدى الكنائس التى كانوا قد طردوا منها، ليقيموا فيها طقوس عقيدتهم، ونقل الإمبراطور هذه الرغبة إلى أمبروز الذى رفض ذلك صراحة على اعتبار أنّ الآريوسيين خارجون عن الكنيسة الكاثوليكية. وقد تطور الأمر بعد ذلك بناء على تدخل جوستينا إلى محاصرة إحدى الكنائس التى كان يعظ

فيها أمبروز بهدف الاستيلاء عليها، غير أن الجموع النيقية تمسكت بأسقفها، مما أعطاه دافعاً قوياً لتحدى الإمبراطور وأمه التى كانت تحمل للأسقف كل الكراهية، بسبب تدخله المستمر فى شئون الإدارة الإمبراطورية والبلاط. إلا أن هذه المحاولة فشلت واستدعى الجنود الذين كانوا يحاصرونها للعودة إلى ثكناتهم.

وكان الإمبراطور قد دعا أمبروز إلى حضور مجلس يعقد فى القصر الإمبرطورى، يضم مستشارى الإمبراطور وأوكسنتيوس الآريوسى لبحث هذه المسألة، غير أن الأسقف الميلانى رفض حضور مثل هذا الاجتماع وكتب إلى فالنتينيان رسالة حول هذا الشأن تكشف عن رأيه للمرة الأولى صراحة فيما يتعلق بعلاقة الدولة بالكنيسة، وازدرائه للآريوسية.

وقد حرص أمبروز فى رسالته على أن يبين للإمبراطور أنه ليس عاصيا أو متمرداً بحيث يرفض إطاعة الأوامر الإمبراطورية بالحضور إلى هذا المجلس، ولكنه يؤمن إيماناً كاملاً بأنه فى المسائل التى تخص العقيدة، فإن أحداً ليس من حقه أن يصدر حكماً أو يجلس منها مجلس القضاء إلا الأساقفة وحدهم، وضرب لهم مثلاً ما فعله أبوه من قبل عندما عرضت عليه مثل هذه الأمور، فأجاب صراحة بأنه ليس من حقه كعلمانى أن يتدخل فيما لا يخصه، مشيراً بذلك إلى موقفه من اتحاد الماكيدونيين وأنصاف الآريوسيين، وينبهه إلى أنه ليس من حقه كإمبراطور أن يقدم على ذلك، خاصة وأنه لم يتناول بعد سر العماد، ويعرج أمبروز فى حديثه إلى مسألة اختياره من قبل شعب الكنيسة بطريقة شرعية، وكيف صادق أبوه على ذلك وأبدى الإعجاب، ويبدى أسفه على هذا المرسوم الذى أصدره فالنتيينيان الثانى، بتأثير من جوستينا والذى يمنح للآريوسيين الحرية فى ممارسة عبادتهم وأداء طقوسهم الدينية، واختياره لأوكسنتيوس مستشاراً له وقاضياً فى هذه الدعوى، واتهم أوكسنتيوس بأنه لا يصلح إلا أن يكون قاضياً لليهود أو الوثنيين، وكلاهما للمسيح عدو.

وطالب أمبروز الإمبراطور بأن يدعو إلى عقد مجمع كنسى، كما فعل قسطنطين، لمناقشة الأمور الكنسية، فهذا هو مكانها الطبيعى، وأنحى باللائمة على ما حدث فى مجمع ريمينى من جانب بعض الأساقفة، وهو يعنى بذلك الرد على ما

أعلنته جوستينا من اعترافها بقانون الإيمان الصادر عن هذا المجمع. ويؤكد أمبروز أنه لا يمكنه عصيان أوامر الإمبراطور ولكنه يعلم أن أكليورسه وشعب كنيسته لن يوافقوه على ذلك ولن يسمحوا له بالحضور، لإيمانهم بأن مشاكل الكنيسة يجب أن تحل داخلها، وبناء على ذلك فإنه على استعداد تام لتقبل أوامر الإمبراطور التى قد تصدر بنفيه وتنفيذها، ولكن ليس قبل أن يتعهد الإمبراطور بعدم تسليم الكنائس إلى الآريوسيين. ولا ينسى أمبروز فى النهاية أن يمن على فالنتينيان بما قام به من أجله مبعوثا إلى ماكسيموس، فى معرض حديثه عن عدم خبرته بما يجرى وراء استار القصر الإمبراطورى، وأنه لم يقدم على ذلك إلا من أجل فالنتينيان نفسه.

ولا شك أن محاولات جوستينا من خلال ولدها لإعادة السيادة إلى الآريوسية قد تحطمت تماماً أمام عناد أمبروز وتمسكه بالنيقية، والاتجاه العام فى الإمبراطورية الذى جرى به ثيودوسيوس لإقرار هذه الصيغة للإيمان.

وليس أصدق من الوقوف على آراء الأسقف الميلانى أمبروز، وفكره الكنسي عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، باعتباره إرهاصاً بما سيكون عليه الحال فى العصور الوسطى الرئيسية من بعد، عندما يحتدم الصراع سافراً بين البابوية والإمبراطورية فى الغرب، على العكس تماماً مما كان حادثاً فى الشطر الشرقى على امتداد الزمن بالإمبراطورية الرومانية فى شكلها وثيابها البيزنطية، نقول.. ليس أصدق على التعبير عن هذا كله من أن نورد هنا هذه الرسالة التى بعث بها أمبروز إلى فالنتينيان الثانى حول المسألة الآريوسية، وما تضمننته من أفكار وآراء فى هذا السبيل الذى عرضنا له، كتب أمبروز يقول:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الرحيم والأوغسطس المبارك فالنتينيان" :

"دعانى دلماتيوس Dalnatius النوتارى، بناء على أوامركم كما أكد لى، وطلب إلىّ اختيار عدد من القضاة كما فعل أوكسنتيوس من قبل ولم يعين لى أسماء أولئك الذين يطلبهم، ولكنه أضاف أن هناك نقاشاً يدور فى المجلس المنعقد لمناقشة بعض الأمور الكنسية، وأن قراركم سوف يحسم هذا الجدال.

"وحول هذه النقطة بالذات أعتقد أنى قد أعددت رداً معقولاً، لا يمكن لأحد أن يتهمنى بالعصيان إذا ما رحت أؤكد أن أباكم طيب الذكر لم يجب حول هذا الموضوع بمجرد كلمات من فيه، بل أكدها بقوانينه قائلاً: "إنه فى الأمور التى تتعلق بالإيمان أو النظام الكنسى فإنى سوف أقاضى فقط من ثبت عجزه أو عدم صلاحيته، فهذه تعاليم الكتاب، ولذا كانت رغبته أن يختص الأكليروس بمعالجة الأمور التى تهم رجاله، بل فوق هذا وذاك، أنه إذا ما اتهم أسقف فى مسائل أخرى وكانت المسألة الأخلاقية متضمنة فيها، فقد كانت رغبته أيضاً واضحة فى أن تحال هذه القضية إلى حكم الأساقفة.

"من ذا الذى إذن تراه يعصى رحمتكم؟ هل الذى يرغب فى أن تتشبه بأبيك، أو ذاك الذى يريدك أن تخالفه؟ إلا إذا كان قرار ذلك الإمبراطور العظيم يبدو عند البعض غير ذى قيمة، مع أن الإمبراطور قد أفصح عن صدق إيمانه بجدية اعترافه [١٤]، وتجلت حكمته واضحة فى جهوده المستمرة من أجل ازدهار الدولة.

"أيها الإمبراطور الرحيم متى سمعت أن العلمانيين قد أصدروا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم، إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس، أو نعطى إلى آخرين ما عهد الله به إلينا، وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقش العلمانى، وليصغ رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك.. ولكن مع كل ذلك فالذى لا شك فيه أننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، **فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه فى مسائل الإيمان، وأكررها.. فى مسائل الإيمان، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة، وليس هؤلاء قضاة أولئك.**

(١٤) الإشارة هنا إلى عمل من الأعمال التى تمجد فالنتينيان الأول، ذلك أنه بينما كان يقوم على خدمة الإمبراطور جوليان فى معبد الهة الحظ Fortuna أقدم أحد المشاركين على نثر الماء المقدس عليه، فما كان من فالنتينيان إلا أن لكمه بقبضته قائلاً أن هذا الماء يدنس من يلمسه أكثر مما يطهره!! وهذه واحدة من الروايات العديدة التى يضمها كتاب التاريخ الكنسى لسوزومنوس الراهب الغزاوى، والتى تتناول المشاعر العامة لدى المسيحية تجاه الإمبراطور جوليان، انظر: SOZOM. Hist. eccl. VI 6.

"ولسوف تبلغ بفضل الله سن النضوج الكامل، وعندها سوف تقرر أى نوع من الأساقفة يمكن أن يسلم حقوق الأكليروس إلى العلمانيين. لقد اعتاد أبوك، الذى أوتى الحكمة بفضل الله، أن يقول: ليس مما يدخل فى دائرة اختصاصى أن أقضى بين الأساقفة.. ولكنك الآن تقول: يجب أن أقضى بينهم. وبينما كان والدكم، رغم أنه تعمد فى المسيح، يعتقد أنه ليس أهلاً لتحمل عبء مثل هذا القضاء، فكيف تبيح لنفسك وأنت لم تنل بعد لنفسك سر العماد، ادعاء حق القضاء فيما يتعلق بأمور الإيمان، رغم أنك مازلت تجهل سر ذاك الإيمان.

"وبمقدورى أن أتصور أى نوع من القضاة يقع عليهم اختياره مادام يخشى حتى الآن نشر أسمائهم. ألا فليأتوا إلى الكنيسة، وليستمعوا مع الجموع لا إلى أى شخص يجلس فى مقعد القاضى، بل إلى ذاك الذى يجب أن تختبر فطرته، ويختاروا أيهما أحق بالاتباع. أن المسألة تخص أسقف تلك الكنيسة وحده، فإذا ما أصغى الناس إليه واعتبروه خير من يصلح للحوار، فليتبعوه، ولن تتملكنى الغيرة ولو للحظة.

"ولقد أسقطت من قولى أن الجموع نفسها قد نالت حقها فى إعطاء قرارها، وصمت عن الحقيقة الذائعة بأنهم قد التمسوا من أبيك من هو الآن راعيهم(١٥). وسكت تماماً عن وعد أبيك من أنه إذا ما ارتضى ذلك الذى اختير للأسقفية هذا الاختيار، فلسوف تشهد الأسقفية هناك الأمان والسلام.. وها أنا الآن أتخذ سبيلى بمقتضى الإيمان بهذه العهود.

"ولكن إذا ما راح هذا يتباهى باستحسان بعض الغرباء له، فليكن إذن أسقفاً لأولئك الذين ظنوا أنه يجب أن يحمل لقب الأسقف، ذلك أنى لن أعترف به أسقفاً أبداً ولا هو أنى جاء.

"وكيف نقر أيها الإمبراطور أمراً، أصدرت أنت فيه بالفعل حكمك، بل وسنت له القوانين(١٦)، ترى هل يجوز لأحد من بعد أن يرى فيه عكس ما رأيت؟ ولا ريب فأنت عندما تضع للآخرين قانوناً، فإنك بالتالى تسنه لنفسك أيضاً، ذلك أن

---

(١٥) يشير أمبروز إلى مسألة اختياره.

(١٦) وهو القانون الذى صدر فى صالح الآريوسيين والذى يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وكان هذا بتأثير من جوستينا. SOZOM. Hist. Eecl. VII 13

الإمبراطور هو أولى الناس باتباع القوانين التى يصدرها . وبعد، فهل تريدنى أن أخمن كيف يمكن لهؤلاء الذين اختيروا قضاة، أن يتصرفوا بصورة مخالفة لقرارتك؟ أو على الأقل يقدمون اعتذارهم معللين ذلك بأنهم لا يستطيعون الوقوف ضد مثل هذا القانون المجحف أو الصارم الذى أصدره الإمبراطور؟

"ولكن هذا سوف يعد خروجاً على القانون، وليس عملاً يصدر عن إنسان يعرف قدره. ولكن ألا ترى أيها الإمبراطور أن ما ظننته إلغاء جزئياً لقانونك، إنما هو فى حقيقته إلغاء للقانون كله لأنى لا أتمنى أبداً أن يعلو قانونك فوق قانون الله، ذلك أن القانون السماوى يعلمنا ما يجب اتباعه، أما القوانين الوضعية فلا توقفنا على شىء من ذلك. فهذه تبتغى التغيير بدافع الخوف، ولكنها لا يمكنها أن تلهم الإيمان.

"من تراه إذن قادراً على أن يعلن منفرداً أو وسط جماعته فى وجه الإمبراطور، أنا أرفض مشيئتك؟ وذلك عندما يقرأ أن الأوامر قد صدرت بأن من يتصدى للإمبراطور سوف تحتز رأسه، وأن من يبغض معبد الرب سوف يلقى عقوبة الموت. لقد حرم على رجال الدين أن يقولوا ذلك، فهل ترى أحداً من العلمانيين على ذلك بقادر؟ وهل يقف إلى جانب الإيمان من يؤمل فى حسن الجزاء أو يخاف سوء المنقلب؟

وأخيراً.. أترانى إذا استطعت الإقدام على اختيار علمانيين لمناصب القضاء، فمن ذا الذى يمكن، إذا ما أيد هؤلاء صدق إيمانهم هم، أن يتعرض للنفى أو الإعدام، حيث أن القانون قد جاء فى صالح قوانين الإيمان. وهل يمكننى بعد ذلك أن أعرض بهؤلاء الرجال سواء بالتنكر للإيمان أو باستحقاقهم العقاب؟

"ويمضى الأسقف قائلاً...

"إن أمبروز ليس على قدر من الأهمية كبير بحيث يمكنه الحط من شأن الكهانة من أجل مصلحته الخاصة، ولا تمثل حياة فرد قيمة ما بالقياس إلى كرامة كل الأكليروس الذى من خلال مشورته أعطيت تلك التوجيهات، خاصة عندما أبلغونى أنه من المحتمل أن يتم اختيار نفر من الوثنيين أو اليهود عن طريق أوكسنتيوس، بحيث يصبح من الممكن إعلاء قدرهم على قدر المسيح إذا ما عهدت

إليهم بمعالجة أمور تخص المسيح. أى شىء إذن يمكن أن يدخل السرور على قلوبهم أكثر من رؤية المسيح يهان؟ أى شىء يمكن أن يغمرهم بالسعادة إلا أن تنكر ألوهية المسيح؟ لقد أعلنوا بكل وضوح اتساقهم مع ذلك الآريوسى الذى ينادى بأن المسيح مجرد مخلوق وهو الشىء يبدى الوثنيون واليهود استعدادهم الكامل للاعتراف به.

"ولقد تقرر هذا من قبل فى مجمع ريمينى ، والحق أنى أعلنت بغضى لهذا المجمع، معلناً اتباعى لإيمان نيقية الذى لا يمكن أن ينتزعنى منه موت أو سيف، ذلك الإيمان الذى ارتضاه وآوى إليه كل من أبيكم والإمبراطور الورع ثيودوسيوس، ولقد آمن الغال بهذا المعتقد وكذا أسبانيا، وحافظوا عليه مع الاعتراف الصادق بالروح القدس.

"وإذا كان هناك أى شىء تجب مناقشته، فقد تعلمت أن يتم ذلك داخل الكنيسة كما كان يفعل أسلافنا. وإذا كان لابد من عقد اجتماع لمناقشة أمر يتعلق بالإيمان فمن الأحرى أن يتولى ذلك مجمع الأساقفة، كما جرى العرف به زمن قسطنطين، الأمير الممجد الذكر، الذى لم يصدر أى قانون مسبق، بل ترك القرار الفصل للأساقفة[17]، وهكذا فعل قسطنطيوس طيب الذكر، الذى ورث عن أبيه المجد والكرامة. وما حدث فى البداية انتهى بصورة مغايرة تماماً وإلى الأفضل، ذلك أن الأساقفة وقعوا أولاً مرسوماً للإيمان صادقاً، فلما أغرى بعضهم بمناقشة بعض الأمور المتعلقة بالإيمان داخل القصر، تصوروا أن تلك القرارات التى صدرت عن الأساقفة سوف تتغير وتستبدل تحت وطأة الخوف، غير أنهم سرعان ما شجبوا تلك الصيغة الزائفة، والأمر الذى لا شك فيه أن غالبية أعضاء مجمع ريمينى قد ارتضوا قانون الإيمان النيقى وأدانوا الصيغ الآريوسية.

"ولو افترضنا أن أوكسنتيوس قد التجأ إلى مجمع محلى بغية مناقشة نقاط تتعلق بالعقيدة "وأن كان من غير الضرورى اثقال كواهل الأساقفة وازعاجهم من

(١٧) لا شك أن ما يقوله أمبروز هنا بعيد عن الحقيقة، ذلك أن قسطنطين ساق الأساقفة فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ على حد تعبير يوسيبيوس للتوقيع على قانون الإيمان بعد الإضافات التى أدخلت عليه، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الخامس.

أجل رجل واحد، حتى لو كان ملكاً قد هبط من السماء، وذلك أنه ليس من الواجب تفضيله على سلام الكنيسة، فإنى عندما أعرف هذا، فإنى أعلن أنا الآخر رفضى لذلك. فلنتقدم إذن على إلغاء القانون إذا ما كانت الرغبة تحدوك فى إثارة الجدل.

"ولسوف أمثل بنفسى أيها الإمبراطور إلى مجمعك الأسقفى، ولسوف أقدم هذه الملاحظات فى حضرتك، إذا ما سمح لى أكليروسى أو رعيتى، ولكنهم يعلنون أن الأمور التى تخص العقيدة يجب أن تعالج فى الكنيسة وفى حضرة شعبها.

"وإن الأمل ليحدونى أيها الإمبراطور أن لا تصدر قراراً بنفيى إلى حيث أريد أننا، فأنا أتغرب كل يوم ولا أحد يحرسنى، بل أفضل أن تحدد أنت لى المكان الذى تريده لى منفى، فلقد أعددت نفسى لكل الاحتمالات، غير أن الأكليروس يخاطبنى الآن قائلاً: "ليس هناك خلاف كبير فى أن تترك مذبح المسيح بمحض اختيارك أو أن تسلمه، لأنك إذا ما هجرته فإنك بالتالى تخون عهده.

"ولعلى أود فقط أن يكون مؤكدا لى أن الكنيسة لن تخضع بصورة ما للآريوسيين، عندها سوف أقدم نفسى بملء إرادتى لتكون طوع إرادتك. وإذا كنت وحدى فقط المتهم بإثارة الفوضى، فلماذا إذن هذه الأوامر الخاصة بغزو كل الكنائس الأخرى؟ إن كل ما أتمناه أن لا يُعكِّر صفو سلام الكنائس، وبعدها لن أفزع لأى حكم قد يصدر ضدى.

"والآن.. أرجو أن تتعطف أيها الإمبراطور فتقبل العذر الذى من أجله لم أستطع القدوم إلى هذا الاجتماع الكنسى، فلم يعرف عنى أبداً أنى حضرت مثل هذه الاجتماعات إلا من أجلك فقط [١٨]، وليست لدى القدرة على الجدال داخل جدران القصر، فأنا لا أعرف ولا حتى أرغب فى معرفة ما يجرى وراء أستار هذا القصر"[١٩].

على هذا النحو راح أمبروز ينافح عن النيقية فى الغرب، أما فى النصف الشرقى" فإن الإمبراطور ثيودوسيوس حرص على أن يضمن لها السيادة، ومن ثم

(١٨) يشير هنا مرة أخرى إلى خدماته السياسية التى قام بها من أجل الإمبراطور.

(١٩) AMB. Ep. XXXI



فقد وجه الدعوة على الفور لعقد مجمع فى القسطنطينية يضم كل أساقفة الأقاليم الواقعة تحت سلطانه، خاصة وأن جماعة "الماكيدونيين" التى دخلت فى اتحاد مع "الهومويوسيين" (أنصاف الآريوسيين) فى أوائل عهد الإمبراطور فالنتينيان الأول، قد عادت من جديد تحاول إثبات وجودها مرة أخرى على المسرح العقائدى، وذلك فى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من إمبراطور يعتليه. وكان ماكيدونيوس Macedonius الذى اشتقت الطائفة منه اسمها، هو أحد رجالات الآريوسية في القسطنطينية، ولم يلبث أن أصبح أسقفاً للعاصمة بعد وفاة يوسيبيوس النيقوميدى سنة ٣٤١، واستمر فى منصبه حتى عام ٣٤٦ ثم عزل منه على أثر الضغط الذى تعرض له الإمبراطور قسطنطيوس من قبل أخيه قنسطانز، للعفو عن النيقيين وعلى رأسهم الأسقف السكندرى أثناسيوس. غير أنه لم يلبث أن عاد إلى كرسيه عام ٣٥١ عقب مقتل قنسطانز وانفراد قسطنطيوس بالإمبراطورية، وظل يتربع على كرسى العاصمة حتى تم اقصاؤه عام ٣٦٠ بعهد أن رفض التخلى عن إيمانه بالهومويوسية، عقيدة أنصاف الآريوسيين، والقائلة بالتشابه فقط، وهى التى غدت المسيحية الحكومية كما علمنا من قبل.

ولما كان ماكيدونيوس ينتمى إلى أنصاف الآريوسيين فكرا، وهم الذين لم يبتعدوا كثيرا عن آراء آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، مؤسسى الآريوسية الأصلية، فقد راح يعمل فكره أيضاً فى مسألة الأقنوم الثالث، وهو الروح القدس، ووجد قانون الإيمان النيقى يقدم له السبيل إلى ذلك. فالقانون النيقى لم يكن صيغة جامعة مانعة، ولكنه جاء رداً فقط على الآراء الآريوسية، وجاء تجميعاً يضم إيمان كنيسة قيسارية فلسطين، والعبارات التى أضافها الإمبراطور قسطنطين بوحى من مستشاره للشئون الدينية هوسيوس القرطبى، مما جعل الإمبراطور يتوهم أنه جمع الشرق والغرب على كلمة سواء، حتى يجنب دولته شراً مستطيراً، ولذا فتح الباب على مصراعيه أمام هذا الجدل اللاهوتى الذى ثار من حول الأقنوم الثانى، الإبن. ولما كان هذا القانون لم يتضمن شيئاً صريحاً وتفصيلياً عن الروح القدس، سوى عبارة "ونؤمن بالروح القدس" فإن ماكيدونيوس، متأثراً بالفكر الآريوسى عن خلق المسيح، قال هو الآخر بخلق الروح القدس، وشايعه نفر ليس باليسير، خاصة

الأسقفيات الواقعة فى منطقة الهللسبونت، وعرفوا بـــ "الماكيدونيين" ونعتهم خصومهم من النيقيين بـــ "المجدفين على الروح القدس" "أو أعداء الروح القدس" Pneumatomachi ولئن كان الماكيدونيون قد عادوا فانضموا إلى أصولهم الأولى، أنصاف الآريوسيين، إلا أنهم عادوا الآن سيرتهم، وميزوا أنفسهم ثانية بالماكيدونيين، بعد أن أيقنوا أن شمس الآريوسية إلى أفول، من أجل هذا كانت الماكيدونية من أهم الموضوعات العقيدية التى طرحت على بساط البحث فى مجمع القسطنطينية.

دعا ثيودوسيوس أساقفة الكنائس الخاضعين لسيادته لعقد هذا المجمع، وفى مايو ٣٨١ توافد على القسطنطينية مائة وخمسون أسقفاً يمثلون مختلف الكنائس الشرقية، ولم يحضره أحد من أساقفة الكنيسة الغربية لا بصفتهم الشخصية، ولا بممثلين عنهم، وكذلك كان الحال مع الأسقف الرومانى داماسوس[٢٠]. وان كان البعض يحاول أن يجعل من أسقف روما الداعية الرئيسى لهذا المجمع، ويستندون فى ذلك إلى الرسالة التى بعث بها داماسوس إلى ثيودوسيوس [٢١]. غير أن هذه الرسالة تتعلق بمجمع آخر عقد بالقسطنطينية فى السنة التالية (٣٨٢). ومن اليسير دحض هذه الدعوى على اعتبار أن الأسقف الرومانى ننفسه لم يحضر هذا المجمع بشخصه أو حتى بمندوبين عنه، كما أن الأساقفة الذين شهدوا المجمع لم يكن من بينهم أحد من الأكليروس الغربى، يضاف إلى ذلك أن داماسوس يخضع من الناحية الرعوية للإمبراطور جراتيان ، ومن ثم فليس من حقه كنسيا أن يوجه الدعوة لعقد مجمع يضم أساقفة اكنيسة الشرقية يعقد فى القسطنطينية. وفوق كل هذا فإن القضايا المطروحة أمام المجمع كانت تخص الشطر الشرقى فى جوهرها، وكان من أهمها الإجهاز على الآريوسية، وصورتها الجديدة المتمثلة فى الماكيدونية. والغرب لا يعانى بطبيعته من هذا الصراع. ويحسم هذا الأمر ما جاء على لسان الأساقفة في رسالتهم التى بعثوا بها إلى ثيودوسيوس عند انتهاء أعمال المجمع، فقد جاء فى ديباجتها: "تلبية لدعوتكم التام فى القسطنطينية جمعنا"[٢٢].

(٢٠) THEOD. Hist. Eccl. V. 7, 8.

(٢١) Hefle, op. cit. II p. 342; Percival, The seven ecumenical councils, p. 162.

(٢٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

وقد أدت سمة المجمع على هذا النحو إلى إثارة الجدل حول كونه مسكونياً. غير أن هذه القضية حسمت من البداية لصالح المجمع، بإدخاله فى عداد المجامع المسكونية السبعة التى تعترف بها الكنيسة الشرقية، وإذا كان ثيودوسيوس، كما يقول Hefele قد أراده من البداية مجمعاً عاماً، خاصاً بأساقفة الشرق وحدهم، ولم يرده مسكونياً[٢٣]. فإن الكنيسة بعامة قد اعتبرته المجمع المكسونى الثانى، بعد المجمع الأول الذى التقى فى نيقية عام ٣٢٥ على عهد الإمبراطور قسطنطين، بل إن هذا المجمع الأخير نفسه لم يكن يضم بين أعضائه البالغ عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً إلا ثمانية أساقفة فقط من الغرب، لم يكن الأسقف الرومانى أحدهم. ومع ذلك فقد اعتبر أول المجامع المسكونية. ولعل الأمر فى نظرنا يتعلق بمسألة العقيدة، إذ أن المجمعين اتفقا على قضية واحدة هى إدانة الآريوسية والتصدى لها، وذلك مما يدعم وحدة الكنيسة الجامعة. ومن الجدير بالذكر أن المجامع المكسونية الخمسة الباقية، والخاصة بالكنيسة الشرقية، كانت تضم فقط أساقفة الشرق، خاصة بعد أن زادت الهوة اتساعاً بين الشرق والغرب، فى أعقاب سقوط ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية فى أيدى الجرمان، وقيام دويلات جرمانية مستقلة هناك[٢٤].

وفى الرسالة الصادرة عن مجمع القسطنطينية فى عام ٣٨٢، والموجهة إلى داماسوس، يصف أساقفة هذا المجمع، الذى عقد فى السنة السالفة، بالمسكونية [٢٥].. وعلى الرغم مما لقيته القرارات التنظيمية الصادرة عن المجمع من إعراض من جانب بابوات روما، ليو الأول (٤٤٠-٤٦١) وجريجورى الأول (٥٩٠-٦٠٤) واعتراف كنيسة روما فقط بقانون الإيمان الذى اتفق عليه المجمع، إلا أن تسميته

---

(٢٣) Hefele, op. cit. II p. 342.

(٢٤) تجدر الإشارة إلى أنه كان هناك رسل لأسقف روما فى المجمع المسكونى الرابع الذى التأم عقده فى خلدونية سنة ٤٥١، أما فى المجمع المسكونى الخامس الذى عقد سنة ٥٥٥ على عهد الإمبراطور جوستنيان فى القسطنطينية، فإن الأسقف الرومانى فيجليوس كان موجودا بالعاصمة آنذاك، لا لحضور المجمع، ولكنه جىء به منذ عام ٥٤٨ بأمر من جوستنيان وبقى سجيننا فى العاصمة. انظر: Jones, L.R.E. I pp. 219-221, 296-298.

(٢٥) THEOD. Hist. Eccl. V 9.

بالمجمع المسكونى الثانى بقيت علماً على قوانينه ، ولقيت قبولاً فى أنحاء العالم المسيحى [٢٦].

وقد حضر المجمع عدد من رجالات النيقية الشهيرين، مليتيوس الأنطاكى، وتيموثى السكندرى[٢٧]. Timothius وكيرللس Cyrillus الأورشليمى، وجلازيوس Gelasius أسقف قيسارية فلسطين، وأسخوليوس Ascholius أسقف سالونيك، وهللاديوس Helladius أسقف قيسارية الكبادوك الذى خلف باسل الكبير، وجريجورى النازيانزى أسقف القسطنطينية، وجريجورى النيساوى، وبطرس أسقف سيواس Sebaste وأمفيلوخيوس Amphilochius أسقف قونية Iconium وأوبتيموس Optimus أسقف انطاكية بيسيديا، وديودوروس Diodorus الطرسوسى، وبلاجيوس Pelagius أسقف اللاذقية Laodicea ويولوجيوس Eulogius الرهاوى، وأكاكيوس Acacius أسقف حلب Beroea وايزيدور Isidore أسقف Cyrus فى سوريا وغيرهم [٢٨]. وفى الوقت ذاته حرص ثيودوسيوس على دعوة الماكيدونيين، مؤملاً ضمهم إلى صفوف النيقية، بينما حرص الماكيدونيون على حضوره بصورة أشد رغبة فى كسب عدد من الأساقفة الآخرين إلى جانبهم، وكان عددهم ستة وثلاثين أسقفا معظمهم من الهللسبونت، وعلى رأسهم اليوزيوس Eleusius أسقف كيزيكوس Cyzicus على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة Marmora ومارقيان أسقف لامبساكوس Lampsacus [٢٩].

ويبدو أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد بذل – على حد قول سقراط [٣٠]. مع أساقفة المجمع، جهداً كبيراً لإقناع الماكيدونيين بالعدول عن آرائهم والعودة إلى دائرة الإيمان النيقى، خاصة وإنهم، كما أوضح لهم المجمع، كانوا قد دخلوا قبل

(٢٦) عن الخلافات التى أثيرت حول مسكونية المجمع راجع.
Hefele, op. cit II pp. 370-374; Percival, op. cit. p. 162.

(٢٧) كان بطرس أسقف الإسكندرية قد مات فى أوائل عام ٣٨١ قبل انعقاد المجمع، وقد أدى ذلك إلى وصول وفد مصر برئاسة تيموثى الأسقف الجديد، إلى المجمع متأخراً.

(٢٨) SOCRAT. Hist. Eccl. V8; SOZOM. Hist. Eccl;. VIII 7; THEOD. Hist. Eccl. V8

(٢٩) SOCRAT. Loc. Cit.; THEOD. Loc. cit

(٣٠) SOCRAT. Loc. Cit.

ذلك فى شركة النيقية مع ليبيريوس أسقف روما [٣١]. غير أن الماكيدونيين أصروا على موقفهم، وزاد الأمر تعقيداً أن خلافهم مع النيقيين لم يعد قاصراً حول "هوموسية" الابن، بل تعداها إلى "الهوموسية" الخاصة بالروح القدس [٣٢]. ومن ثم فقد انسحبوا من القسطنطينية وكتبوا إلى أنصارهم فى كل منطقة الهللسبونت يطلبون إليهم عدم الدخول فى شركة النيقيين والبقاء على إيمانهم[٣٣]. وقد لعب جريجورى النازيانزى دوراً كبيراً فى هذا الحوار الذى جرى مع الماكيدونيين حول القول بخلق الروح القدس، إلا أن ذلك لم يزدهم إلا تمسكاً بعقيدتهم[٣٤].

وكان أول عمل أقدم عليه المجمع هو اختيار أسقف للقسطنطينية، وقد ناقش المؤتمرون موضوع رسامة ماكسيموس الكلبى السكندرى الذى جرى من قبل بيد بعض رجال الاكليروس المصرى، الذين بعث بهم بطرس أسقف الإسكندرية الراحل، وقد أعلن المجمع رفضه لهذه الرسامة واستنكاره إياها، وأن كانوا لم يروا

---

(٣١) شكل الماكيدونيون وأنصاف الآريوسيين جبهة واحدة، وسعوا لدى فالنتينيان الأول أملاً فى الحصول على تأييده، على النحو الذى بينا فى الفصل الأول. فلما أخفقوا معه عقدوا مجمعاً فى لامبساكوس على الهللسبونت فى خريف عام ٣٦٤، استمرت جلساته شهرين، وقرروا فيه رفض الهوموية "التشابه" والعودة إلى الهومويوسية (التشابه فى الجوهر). ولما حاولوا الحصول على تأييد فالنز، لم يكن حظهم بأسعد منه مع أخيه، بل قام بنفى مندوبيهم. ولذا حاولوا من جديد التقرب إلى فالنتينيان، فشكلوا وفداً من يوستاثيوس أسقف سيواس، وسيلفانوس أسقف طرسوس، وزودوا الوفد بنصائح تدعوه للجوء إلى أسقف روما ليبيروس إذا دعت الضرورة لذلك، والدخول فى شركته إذا لزم الأمر، إذ كانوا يرون فيه لين جانب بعد أن وضع توقيعه على مرسوم سيرميوم الآريوسى، وكان ذلك تحت ضغط من الإمبراطور قسطنطيوس، ولكنه منذ عاد من منفاه وخاصة بعد وفاة قسطنطيوس أعلن جهاراً ندمه على ما قدمت يداه، وتمسكه بالإيمان النيقى. وبالفعل لم يتمكن الوفد من لقاء الإمبراطور، فارتحل إلى روما وقدم للأسقف الرومانى وثيقة إيمان تعلن اعترافهم بالنيقية، ثم اتجهوا إلى صقلية وعقدوا مجمعاً مع أساقفة الجزيرة أكدوا فيه ما سبق أن أعلنوه فى روما. غير أن نفراً من الماكدونيين رفض هذا الاعتراف وظل على ولائه لعقيدته حتى وقعت أحداث المجمع المكسونى الثانى. راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ص٤٧٩-٤٨١، ص٤٨٧-٤٩٤.

(٣٢) Hefele, op. cit. II p. 348.

(٣٣) SOCRAT. Hict. Eccl. V 8.

(٣٤) GREG. NAZ. Orat. XLI 6-7, 9-12.

ضرورة لتوقيع أية عقوبة على كنيسة الإسكندرية بعد أن مات بطرس. وقد جاء فى القانون الرابع الصادر عن المجمع ما نصه "فيما يتعلق بماكسيموس الكلبى، والفوضى التى أحدثها فى القسطنطينية، نعلن أن ماكسيموس لم يكن فى يوم ما أسقفاً، وليس الآن، وكل من رسمهم، وكل ما تم على يديه باطل"(٣٥). وأعلن المجمع بعد ذلك اختيار جريجورى النازيانزى أسقفاً للقسطنطينية، وذلك بعد جهود كثيرة بذلها الإمبراطور ثيودوسيوس وعدد من الأساقفة فى مقدمتهم مليتيوس الأنطاكى الذى كان يترأس الجمع، ذلك أن جريجورى أبدى عدم رغبته فى ذلك، غير أنه أمام هذه الجهود لم ير بدا من قبول هذا المنصب، فقام مليتيوس الأنطاكى وعدد من أساقفة المجمع بالاشتراك فى إجراءات ترسيمه، وأبدى الإمبراطور ثيودوسيوس استحسانه لهذا الإجراء، ولم يلبث الأسقف الأنطاكى العجوز أن مات، فخلفه جريجورى النازيانزى فى رئاسة المجمع(٣٦).

وكان موت مليتيوس فاتحة باب للصراع الذى اندلع فى المجمع بحيث لم يتمكن جريجورى من السيطرة عليه، ذلك أن وفاة الأسقف الأنطاكى أثارت من جديد مشكلة الشقاق الحادث فى أنطاكية منذ فترة طويلة بين النيقيين الأصليين اليوستاتيين والنيقيين المعتدلين المليتيين. ولما كانت غالبية المجمع تخالف جريجورى النازيانزى الرأى، وتأخذ فى الوقت ذاته سبيلاً يزيد من حدة الشقاق فى أنطاكية(٣٧). فقد آثر أسقف القسطنطينية ورئيس المجمع الانسحاب بهدوء من جلسات المجمع، بل لقد امتنع عن ممارسة مهام منصبه الكهنوتية، وزاد إصراره هذه المرة على العودة إلى بلدته ثانية. وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير وصول وفد كنيسة الإسكندرية تحت رئاسة تيموثى الذى تم اختياره مؤخراً خلفاً لبطرس، ولم يكن تيموثى قد نسى ما حدث من إهانة للإسكندرية على يد رعية جريجورى النازيانزى، عندما أقدموا على طرد مرشح الإسكندرية ماكسيموس، وما كان من أمر تأكيد هذه الإهانة من جانب أساقفة المجمع بقانونهم الرابع

(٣٥) Hefele, op. cit. II p. 359; Percival, op. cit. p. 179.

(٣٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 7.

(٣٧) انظر الفصل الرابع.

واختيارهم لجريجورى أسقفاً للعاصمة. ومن ثم فقد أعلن الوفد السكندرى لحظة وصوله رفضه الموافقة على اختيار جريجورى لكرسى القسطنطينية الأسقفى، وأيدوا فى الوقت ذاته الاتجاه الذى ساد المجمع فيما يتعلق بمشكلة أنطاكية، خلافاً لما كان يرتئيه جريجورى النازيانزى[٣٨]، واحتج الوفد السكندرى بأن ما جرى من اختيار جريجورى يعد خروجاعن القوانين الكنسية التى تحرم انتقال أسقف من كنيسة إلى أخرى، وما جاء بهذا الخصوص فى القانونين الخامس والسادس لمجمع نيقية[٣٩].

غير أن هذه "التصرفات" من جانب الأسقف السكندرى كانت فوق احتمال كثير من الأساقفة "الأجلاء" حضور المجمع، مثل هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وجريجورى النيساوى، وأمفيلوخيوس، وأبتيموس، وديودوروس، وبلاجيوس، وبولوجيوس، وكيرللس وجلازيوس، فعزلوا أنفسهم عن الاكليروس السكندرى وانضموا إلى جانب جريجورى وأعلنوا شرعية اختياره وقوامة رسامته [٤٠]. إلا أن أسقف القسطنطينية بما جبل عليه من لين جانب منذ البداية، ودماثة خلق، آثر الانسحاب وأوصى المؤتمرين باختيار أسقف جديد فى العاصمة، ولم يفلح معه هذه المرة رجاء كثير من أشياعه أو جهود الإمبراطور ثيودوسيوس، الذى لم يجد فى النهاية بدا من الاستجابة لرغبة أسقفه، وودعه برسالة تحمل الاعزاز له والجسرة والأسى على تخليه عن منصبه [٤١]. ويبدى سوزومنوس إعجابه بخلق جريجورى وتعقله بقوله "إن فصاحته وإيمانه لم يدفعانه إلى الغرور والتعالى والتمسك بالأسقفية فى العاصمة"[٤٢]. لكن الذى يدعو للدهشة حقاً أن الكثيرين من صغار الأساقفة يعضدهم نفر من الشيوخ، حضور المجمع، لم يكن موقفهم من جريجورى

---

(٣٨) SOZOM. Ioc. cit

(٣٩) Hefele, op. cit., I pp. 381-392.

(٤٠) THEOD. Hist. Eccl. V 8.

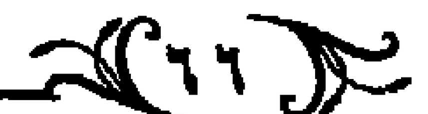
(٤١) Id.

(٤٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 7. وقد عاد جريجورى إلى بلدته نازيانزا يرعى شئون الكنيسة بها ، حتى تم اختيار يولاليوس Eulaius أسقف لها، فانسحب إلى أريانوس Ariansus حتى مات فى عام ٣٩١. انظر Nicene and p. n. f. VII pp. 198-199.

يتفق ومكانته وسعة معرفته وعلمه، ولذا أبدوا على الفور ترحيبهم باستقالته، بل وربما سعادتهم واغتباطهم بذلك(٤٣). ودخلوا مباشرة فى إجراءات اختيار أسقف جديد للعاصمة خلفاً له. ويبدو أنهم كانوا يكنون له الحقد لمكانته العلمية ومعرفته اللاهوتية التى تتضاءل إلى جوارها أشخاصهم، بالإضافة إلى موقفه المعارض لهم بخصوص النزاع الأنطاكى، وتأنيبه إياهم لمحاولاتهم توسيع هوة هذا الشقاق. وكانت هذه هى السمة التى سادت كثيراً من فترات النزاع الكنسى خلال تلك القرون، فلم تكن مسألة العقيدة إلا رداءً يستتر به الأساقفة فقط، بينما كانت معظم صراعاتهم حول مصالح شخصية بحتة، وما حدث فى مجمع نيقية ليس عنا ببعيد، عندما أقدم قسطنطين على احراق كل شكايات الأساقفة ضد بعضهم بعضاً، بعد أن هاله حجمها، وانصراف رجال الدين عن مناقشة أمور العقيدة إليها!!

والمتتبع للتاريخ الكنسى يدرك للوهلة الأولى أن ما فعله الأسقف السكندرى تيموثى لم يكن سابقة ولا غريباً عن سلوك أساقفة الكنيسة السكندرية تجاه القسطنطينية طوال القرون من الرابع إلى السابع، فبطرس الذى خلف أثناسيوس كان هو الذى دفع ماكسيموس الكلبى إلى إحداث هذه الاضطرابات التى تحدثنا عنها منذ قليل فى القسطنطينية، بغية القفز على عرشها الأسقفى، وتيموثى يواصل الآن سقيا غرس زرعه سلفه، فلما وجد الأبواب موصدة أمام اعتلاء صنيعته ماكسيموس كرسى العاصمة الأسقفى، سعى جهده كى يهز قوائم هذا الكرسى تحت من يعتليه، اللاهوتى الكبادوكى الأشهر.. جريجورى النازيانزى، خاصة وأن هذا كان صاحب شهرة ذائعة فى مجال الدراسات اللاهوتية لم يستطع الأسقف السكندرى تيموثى ساعتها أن يدانيه فيها، وسوف نشهد من بعد ما سوف يفعله رجل الإسكندرية "ثيوفيلوس" Theophilus مع رجل القسطنطينية "يوحنا ذهبى الفم" Ioannes Chrysostomus فى مطلع القرن الخامس الميلادى، وما كان من أمر "كيرللس" Cyrillus السكندرى مع "نسطوريوس" Nestorius بطريرك العاصمة الإمبراطورية فى ثلاثينيات القرن نفسه، وما حدث فى سبعينيات هذا القرن أيضاً إبان الصراع المحتدم بين الإمبراطورين "زينون" Zeno و"باسيلسكوس"

(٤٣) SOZOM. Hist. VII 7; Hefele, op. cit. II p. 347.



Basiliscus من محاولات الأسقف السكندرى عزل الأسقف القسطنطينى وترسيم واحد من رجالات الإسكندرية بدلاً منه!! وغير ذلك من الوقائع كثير!!

خلاصة القول إن العلاقات بين القسطنطينية والإسكندرية طوال القرون من الرابع إلى السابع ، لم تكن طيبة فى يوم من الأيام.. فالأسقف السكندرى كان يعتبر نفسه أعلى كعباً فى "التقدمة" و"الفكر اللاهوتى" من قرينه القسطنطينى، ولم يذهب من مخيلة بطاركة الإسكندرية أبداً أنهم زحزحوا عن المرتبة الثانية التى كانوا يحتلونها بعد الأسقف الرومانى، فى عداد الكنائس الرسولية، وأن هذه "الإزاحة" التى تعرضوا لها جاءت من جانب أباطرة القسطنطينية إعلاء لمكانة كرسى العاصمة الإمبراطورية الأسقفى، وكان المجمع المسكونى الثانى، نعنى مجمع القسطنطينية الذى نحن بصدده الآن، هو أول المجامع التى "قننت" هذه الإزاحة كنسياً، وأعطتها الصفة "الشرعية" من وجهة النظر الإمبراطورية والأكليروسية، لذا لم يكن غريباً أن يمثل كرسى القسطنطينية الأسقفى غصة فى حلق أساقفةالكرسى السكندرى، وليس هنا مجال الخوض فى تفصيلات هذا الصراع الكنسى، لأننا سوف نخصص جزءاً كاملاً من موسوعة "الدولة والكنيسة" هذه لمناقشة تلك القضية الشائكة، والتى شغلت الكنائس الرسولية حتى القرن السابع الميلادى، ولكن الذى يعنينا الآن التأكيد على أن ما فعله بطرس وتيموثى السكندريان ورجلهما ماكسيموس، كان السمة البارزة لسياسة بطريركة الإسكندرية تجاه بطريركية القسطنطينية على امتداد أربعة قرون من الزمان.

وقد جاء القانون الثانى الصادر عن هذا المجمع، نعنى مجمع القسطنطينية المسكونى، خاصا بهذه المسألة، فقد ساوى فى عبارة واحدة بين كل من بطرس السكندرى وما أحدثه من اضطراب فى العاصمة بتأييده رسامة ماكسيموس الكلبى، ومليتيوس الأنطاكى لانتقاله من أسقفيته إلى القسطنطينية للمشاركة فى رسامة جريجورى النازيانزى، وهذا الأخير لقبوله الرسامة أسقفاً للعاصمة وهو يشغل كرسى أسقفية أخرى من قبل، ولذا فقد صدر القانون الثانى على هذا النحو: "لا يجوز للأساقفة أن ينتقلوا إلى أسقفيات أو كنائس خارج دائرة رعايتهم، ولا أن يحدثوا الاضطرابات فى كنائس. ومن ثم فلأسقف الإسكندرية تبعاً لما جرت به

القوانين، السيادة على كنائس مصر، ولأساقفة الشرق حق رعاية أمور الشرق فقط، ولتبق امتيازات كنيسة أنطاكية التى ذكرت فى قوانين المجمع النيقى كما هى(٤٤). ولأساقفة الأقاليم الآسيوية السيادة على أقاليمهم، ويدبر الأسقف البونطى أمور بونطس وحدها، والأساقفة التراقيون شئون تراقيا، ولا يسمح لأى أسقف أن ينتقل من إقليمه من أجل رسامة أسقف لكنيسة أخرى أو أى أعمال كنسية ثانية إلا بناء على دعوة، ويجب أن يراعى القانون الخاص بالأسقفيات، وليكن واضحاً أن مجمع كل إقليم عليه تدبير شئون الأقليم كما تقرر ذلك فى نيقية. أما الكنائس الأخرى داخل أراضى البرابرة فسوف ترعى طبقاً لما جرى به العرف الذى ساد منذ أيام الآباء الأول(٤٥).

وعلى الرغم من أن الإمبراطور أوصى المجتمعين بمراعاة صالح الكنيسة والعقيدة عند اختيارهم للأسقف الجديد، إلا أن الأساقفة انقسموا على أنفسهم لأن كلا منهم. على حد تعبير سوزومنوس – كان يود أن يكون أسقف العاصمة من بين أنصاره(٤٦). وقد امتلأت قائمة المرشحين بالعديد من الأسماء ثم أضيف فى نهايتها بإيعاز من ديودوروس الطرسوسى أسم محافظ القسطنطينية نكتاريوس Nectarius فلما قدمت القائمة إلى الإمبراطور ليختار بنفسه من يريد، أشار باختيار هذا الشخص الذى أضيف اسمه مؤخراً، ولما لم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، فقد جرى على الفور تعميده، وأجريت مراسم سيامته أسقفاً للعاصمة وأصبح رئيساً لمجمع القسطنطينية(٤٧).

(٤٤) SOCRAT. Hist eccl. V 8; THEOD. Hit. Eccl V 8 وينص القانون السادس لمجمع نيقية "يتمتع أسقف الإسكندرية بحق الإشراف على، ورعاية كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، كما جرى بذلك التقليد القديم، ويراعى هذا الحق أيضاً بالنسبة لأسقف روما وأسقف أنطاكية كل فيما تحت سيادته". انظر: Hefele, op. cit. I pp. 388-404; Percival, op. cit. pp. 15-16, 178-179.

(٤٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

(٤٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 8..

(٤٧) SOCRAT. Hist. Eccl . V 8; THEOD. Hist. Eccl. V 8.

واختيار شخص علمانى، يشغل منصب محافظ المدينة، وليس عنده ربما إلا قدر ضئيل من المعرفة اللاهوتية(٤٨)، لا يمكن أن يكون قد حدث هكذا اعتباطاً. فسوزومنوس نفسه الذى يسوق قصة اختيار نكتاريوس بشىء من الطرافة، يعلق على ذلك قائلاً: "لقد كان حدس البعض أن الإمبراطور أقدم على هذا الاختيار بتوجيه من السماء، ومع اعتقادى أن الأمور لا يمكن أن تجرى دون تدخل السماء، إلا أنى فى هذه الحالة بالذات لا أستطيع أن أقرر إن كان هذا الحدس صادقاً أم به شىء من الكذب"(٤٩). والذى لا شك فيه أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد أدرك للوهلة الأولى أن الأمور فى المجمع لا تشير إلى شىء من التفاؤل، وأن نفوس الكثير من الأساقفة تنطوى على مطامع بعيدة المدى حول القفز على كرسى العاصمة الأسقفى، أو اختيار أحد الأشياع لهذا الفريق أو ذاك. وقد وضح جلياً فى موقفهم من جريجورى النازيانزى، وخلافهم حول المسألة الأنطاكية، ولعله اتضح أيضاً من هذه القائمة المليئة بأسماء المرشحين، ولابد أن يكون المؤتمرون قد فشلوا فى التوصل إلى الاتفاق حول شخصية بعينها كما طلب إليهم الإمبراطور ذلك، ولهذا رأى أن يحسم الأمر بنفسه، وأن يكون على رأس هؤلاء المجتمعين شخصية قوية، تدعمها سلطة الإمبراطور ونفوذه، حتى يمكن أن يتجه سفين المجمع إلى شاطىء الأمان. ولذا لا نستبعد أن يكون ديودور قد أوعز بوضع اسم نكتاريوس فى نهاية قائمة المرشحين بتوجيه من الإمبراطور نفسه. خاصة وأن سوزومنوس يذكر أن الإمبراطور لم يصغ لأصوات الاحتجاج التى ارتفعت واهنة عندما علم أن المرشح الجديد لم يكن قد عمد بعد. ويضيف سوزومنوس "ولم يجد الجميع بدا من الانصياع لأوامر الإمبراطور". وهذه العبارة الأخيرة وحدها دليل كاف على ما كان يرمى إليه ثيودوسيوس بعد ما وصلت إليه حال المجمع من الفوضى.

وهكذا لم يلبث المجمع أن توصل إلى اتخاذ قراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية. وجاء القانون الأول مصدقاً لما بين يديه من الإيمانن النيقى، ولاعنا لكثير من الفرق المسيحية الأخرى مثل اليونوميين (الأنومويين) والآريوسيين وأنصاف الآريوسيين والماكيدونيين وغير هؤلاء كثير(٥٠).

---

(٤٨) Vasiliev, op. cit. I p. 81

(٤٩) SOZOM. Hist. Eccl. VII 8..

(٥٠) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

ثم أصدر صيغة لقانون الإيمان تضم وثيقة إيمان نيقية مضافاً إليها ما اتفق عليه المجتمعون حول الروح القدس رداً على الماكيدونيين(٥١).

وقد أصبحت هذه الوثيقة التى عرفت بـ"قانون الإيمان النيقو- قسطنطينى"، ليس فقط القانون الرئيسى للإيمان، ولكن الركيزة الأساسية والرسمية لكل الفرق المسيحية على الرغم من خلافاتها العقيدية، وغدت أوسع انتشارا بعد إقرار مذهب الطبيعتين فى المسيح فى المجمع المسكونى الرابع الذى عقد فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١م(٥٢). وإذا كان قانون الإيمان النيقى بصورته التى صدر عليها باعتباره رداً على الآراء الآريوسية، قد ترك الباب مفتوحاً أمام الفرق المسيحية الأخرى، خاصة الآريوسية، للصراع العقيدى فى محاولة لوضع صيغ بديلة، وسمح بقيام جماعة الماكيدونيين وإذاعة آرائهم حول الروح القدس، فإن صيغة الإيمان التى صدرت عن مجمع القسطنطينية، بما تضمنته عن الروح القدس، كانت هى الأخرى مدخلاً ولج منه الخلاف واحتدم بين كنيستى روما والقسطنطينية فى القرن التاسع على عهد فوطيوس Photius أسقف القسطنطينية، وانتهى إلى الشقاق الأعظم بين الكنيستين فى القرن الحادى عشر (١٠٥٤) بيد البابا ليو التاسع وميخائيل كريولاريوس بطريرك القسطنطينية(٥٣).

---

(٥١) تقول الوثيقة: "نؤمن باله واحد، الآب القدير، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، الابن، المولود الوحيد من الله، مولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر، كل شيء به كان. الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومريم العذراء، وتأنس ثم صلب من أجلنا على عهد بيلاطس البنطى. وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث ثانية كما حدثت بذلك الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وسوف يأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات. الذى ليس لملكه انقضاء. وبالروح القدس السيد واهب الحياة. المنبثق من الآب. الذى هو مع الآب والابن معبود وممجد. الناطق بالأنبياء. وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة ورسولية. ونقر معمودية واحدة للتطهير من الخطايا. ونترجى قيامة الموتى والحياة فى الدهر الآتى " انظر:

Percival, op. cit. p. 163; Hefele, op. cit. II p. 350.

(٥٢) Vasiliev, op. cit. I p. 81.

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن الشقاق الكنسى حول الروح القدس، راجع: دكتور اسحق عبيد، روما وبيزنطة، ص ١-١٩ وأيضاً: =

على أن أهم القوانين التى صدرت عن المجمع، والتى تركت آثارها البعيدة على العلاقات الكنسية بصفة خاصة فيما بعد، هو القانون الثالث الذى ينص على أن "يحتل أسقف القسطنطينية التقدمة فى الكرامة بعد أسقف روما مباشرة لأن القسطنطينية هى روما الجديدة"(٥٤). وتبع ذلك تنظيم المناطق التابعة للأسقفيات المختلفة، بحيث أضيفت تراقيا، التى كانت هرقلية حاضرتها ورأس كنائس الإقليم فيها، إلى سيادة أسقف القسطنطينية(٥٥). ومع أن القانون يعترف ضمناً إن لم يكن صراحة بمكانة روما وعلو كعبها، إلا أن كنيسة روما رفضت الاعتراف بهذا القانون، محاجة بأنه خروج على التقليد الكنسى فى ترتيب الأسقفيات، واعتداء على القانون السادس لمجمع نيقية. وقد ظلت روما قروناً طويلة ترفض هذا القانون، وأعلن ذلك صراحة المندوب البابوى لوكنتيوس Lucentius فى الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية، وعلى نفس الدرب سار البابا ليو الأو وكذا البابا جريجورى الأول. ولم تعترف روما بذلك الوضع إلا بعد أن احتلت القسطنطينية على يد اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤، حيث سمح البابا إنوسنت الثالث Innocent III والمجمع اللاتيرانى الرابع المنعقد فى عام ١٢١٥ بأن تحتل القسطنطينية المرتبة الأولى بعد روما(٥٦).

ولئن كان الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) قد اعترف فى إحدى نوفلاه بمجىء القسطنطينية بعد روما فى المرتبة، إلا أن المؤرخين المتحمسين للقسطنطينية قد فسروا كلمة "بعد" meta التى جاء ذكرها فى القانون بأنها تشير فقط إلى ترتيب زمنى وليس مكانيسا، وهم يشيرون بهذا إلى تأسيس القسطنطينية

Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 105-110; Barry, = the Papal monarchy from st. Gregory to Boniface VIII, pp. 124-129.

(٥٤) SICRAT. Hist. Eccl . V 8.

(٥٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V. 8. وتضمن التنظيم، إشراف هللاديوس أسقف قيسارية كبادوكيا على إقليم بونطس بالاشتراك مع جريجورى أسقف نيسا، وكذلك أتريوس أسقف ميليتينا فى أرمينيا. أما أمفيلوخيوس أسقف قونية وأبتيموس البسيدى فقد اختصا بالأقاليم الآسيوية، على حين بسط تيموثى سيادته على مصر والمناطق التابعة لها، وبلاجيوس وديودوروس على كنائس الشرق مع احترام حقوق أنطاكية.

(٥٦) Percival, op. cit. p. 178; Hefele, op. cit. II p. 359 وأيضاً نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٩٨-٩٩.

بعد روما بقرون طويلة، ويرتبون بناء على رأيهم هذا وضع روما والقسطنطينية في مرتبة واحدة (٥٧).

وإذا كان هذا القانون لا يمس مكانة رومان بل على العكس من ذلك يعترف بسمو قدرها ومكانتها، إلا أنه كان بصورة مباشرة لطمة إلى كل من الإسكندرية وأنطاكية. إذ كان على الإسكندرية بمقتضى هذا القانون أن تتخلى كارهة عن مكانتها الثانية بعد روما لتحتلها القسطنطينية ، وكان على أنطاكية بالتالى أن تهبط رغم أنفها عن مرتبتها الثالثة لتستقر عليها الإسكندرية، ولتأتى هى فى المرتبة الرابعة. وكان مجمع نيقية قد وضع الكنائس الثلاث على هذا النحو، روما فالإسكندرية فأنطاكية، واعترف قانونه السابع باحتلال كنيسة بيت المقدس للمرتبة الرابعة مع خضوعها لإشراف قيسارية فلسطين، لذلك كان القانون الثالث لمجمع القسطنطينية المسكونى قلباً لكل هذه الأوضاع وعاملاً رئيسياً فى اشعال نيران الصراع الكنسى بين هذه الكراسى الأسقفية الكبيرة، والتى جرّت وراءها الكنائس الأخرى، فى دوامة الإصطراع من أجل الزعامة، وتلك كانت سمة الجدال بين الكنائس فى القرن الخامس (٥٨).

وقد يكون ما أحدثه مرشح الإسكندرية ماكسيموس الكلبى، من اضطرابات فى العاصمة السبب المباشر كما يقول Hefele وراء صدور هذا القانون(٥٩)، إلا أن المتتبع للأحداث منذ تأسيس القسطنطينية يرى أن الأباطرة كانوا حريصين على الارتفاع بقدرها على الكنائس الأخرى. وكان الإمبراطور قسطنطين نفسه أول من أقدم على ذلك حينما استدعى آريوس من الإسكندرية بعد عودته من منفاه، للمثول فى القسطنطينية ليثبت قوامة إيمانه أمام إسكندر أسقف العاصمة الجديدة التى لم يكن عمرها الآن يتجاوز ست سنوات فقط (٦٠). ولا يخفى علينا أيضاً الجهود التى

---

(٥٧) Hefele, Loc. cit.

(٥٨) لن نخوض هنا فى تفاصيل هذا الصراع الذى استمر فى جذوته طيلة النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، وظلت ذيوله تسعى لعدة قرون من بعد. وسوف نفرد الكتاب الخامس من الدولة والكنيسة بمشيئة الله لبحث هذا الموضوع.

(٥٩) Hefele, op. cit. II. p. 359.

(٦٠) احتفل بتدشين العاصمة الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠، وكانت جلسة تبرئة آريوس عام =

بذلها كل من الإمبراطور قسطنطيوس وفالنز، من خلال أساقفتهما الآريوسيين، يوسيبيوس النيقوميدى وماكيدونيوس ويودكسيوس وديموفيلوس، على التوالى، لإعلاء شأن القسطنطينية عن طريق فرض عقيدة أسقف العاصمة على الفرق المسيحية الأخرى. وكان العداء من جانب الإمبراطورين تجاه الأسقف السكندرى أثناسيوس، هو فى جوهره عداء مباشرا للإسكندرية، الكنيسة والمدينة، بما لها من ماض عريق وعلو كعب فى ميدان الفكر اللاهوتى المسيحى. ولا شك أن ما يجرى لأسقف القسطنطينية جريجورى النازيانزى، من جانب أسقف الإسكندرية تيموثى، على مرأى من الإمبراطور ومسمع، كان كفيلاً بأن يحرص الإمبراطور على أن لا ينهى المجمع جلساته، إلا بعد أن يرد إلى القسطنطينية اعتبارها وهيبتها.

وفى يوليه ٣٨١ أنهى المجمع جلساته، وبعث برسالة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ضمنها القرارات والقوانين التى اتفق الجميع عليها، وجاء فيها:

"تلبية لدعوتكم التأم فى القسطنطينية جمعنا، وبعد أن أعدنا الوحدة إلى صفوفنا، وضعنا تعريفات مختصرة تؤكد إيمان الآباء فى نيقية، وتدين "الهرطقات" التى ظهرت تناوئه. ومن أجل النظام الكنسى، أصدرنا عدداً من القوانين وألحقنا ذلك كله برسالتنا هذه إليكم. نلتمس الآن أن يتفضل عظمتكم فيؤكد فى رسالة تحمل رحمتكم قرارات هذا المجمع، فكما كرمت الكنيسة برسائل دعوتكم، فلتتعطف الآن بتوقيع هذه القرارات".

وكان طبيعياً أن يستجيب الإمبراطور لرجاء الأساقفة، فأصدر أوامره فى الثلاثين من يوليو بأن "كل الكنائس يجب أن تخضع للأساقفة الذين يؤمنون بوحدانية الألوهية ممثلة فى الآب والابن والروح القدس، وعليها أن تدخل فى شركة نكتاريوس أسقف القسطنطينية وتيموثى أسقف الإسكندرية، وبلاجيوس أسقف الشرق فى اللاذقية، وديودوروس الطرسوسى، وفى آسيا والأقاليم الآسيوية مع أمفيلوخيوس أسقف قونية، وأبتيموس الأنطاكى البيسيدى، وفى بونطس مع هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وأوتريوس المليتينى، وجريجورى النيساوى، وفى

=٣٣٦، حيث توفى فى نفس العام. بل فى اليوم نفسه المحدد للمناظرة بينه وبين اسكندر أسقف العاصمة الجديدة!! وبصورة تدعو للارتياب حسب ما يرويه مؤرخو الكنيسة.

موئيزيا وسكيزيا مع ترنتيوس أسقف سكيزيا، ومارتيريوس أسقف مارقيانوبولس وكل من لا يدخل فى شركة هؤلاء وجب طرده من الكنيسة"(٦١).

قرت عينا الإمبراطور ثيودوسيوس بهذا الذى توصل إليه مجمع الأساقفة المسكونى فى القسطنطينية، واستفتح خيراً فى سبيل اقرار العقيدة النيقية، غير أن الغرب الذى لم يشارك من أساقفتة أحد فى أعمال المجمع، لم يدع الأمور تسير كما أراد لها إمبراطور الشرق، ولم يتقبل كثيراً مما صدر عن المجمع، ولم يوافق فقط إلا على وثيقة الإيمان. وكان على رأس هؤلاء المعارضين أمبروز أسقف ميلانو، الذى تزعم عدداً من أساقفة اللاتين لمجابهة قرارات المجمع وقوانينه، وكان من بينها موضوع ماكسيموس الكلبى مرشح الإسكندرية. فعلى الرغم من أن جموع القسطنطينية لفظته خارج البيعة والمدينة، وأدان المجمع فعاله، ولم يعترف الأسقف الرومانى داماسوس بصحة اختياره كما جاء فى رسالته إلى اسخوليوس أسقف سالونيك(٦٢)، وهى المدينة التى فر إليها ماكسيموس بعد طرده من العاصمة، إلا أن أمبروز وجماعته أعلنوا فى إصرار وقوفهم إلى جانب ماكسيموس وادعاءاته فى أسقفية القسطنطينية، ورفضوا فى الوقت ذاته الاعتراف بكل من جريجورى النازيانزى ونكتاريوس!!

وقد جاءت هذه القرارات كلها عن مجمع عقد فى أواخر صيف عام ٣٨١ فى أكويليا Aquileia وعلى وجه التحديد فى الثالث من سبتمبر، أى بعد انتهاء أعمال مجمع القسطننطينية بشهر واحد، أو بتعبير أدق بعد وقوف الغرب على قرارات الجمع المسكونى الثانى. ولم تستمر جلسات مجمع أكويليا إلا جلسة واحدة هى التى عقدت فى نفس يوم افتتاحه، ولم يحضر المجمع أسقف روما أو ممثلون عنه. بينما كان أمبروز يمثل الشخصية الرئيسية فى المجمع والداعية إلى عقده والمحرك الأساسى وراء قراراته، وقد طالب المؤتمرون فى النهاية بعقد مجمع عام يضم أساقفة الكنيسة فى الشرق والغرب لبحث مشكلة أسقفية القسطنطينية (٦٣).

(٦١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist VII 9.

(٦٢) Hefele, op. cit. II p. 359.

(٦٣) كانت فكرة عقد هذا المجمع قائمة منذ أواخر عام ٣٧٨ وأوائل ٣٧٩ عندما كان جراتيان إمبراطورا فرداً بعد مقتل فالنز، ومرد ذلك إلى أن أسقفين من أساقفة الليريا هما بالاديوس Palladius وسكونديانوس Secundianus كانا قد اتهما من جانب بعض أساقفة الغرب بأنهما=

ولا شك يبدو غريباً موقف أمبروز والأساقفة اللاتين على هذه الصورة، فالمشكلة هنا ليست مسألة عقيدية تتعلق باللاهوت وتخص الكنيسة الجامعة، ولكنها مسألة تنظيمية تتصل بالتنظيم الكنسى، وهى من صميم شئون الكنيسة الشرقية وحدها، أو بتعبير أدق، النصف الشرقي من الإمبراطورية، وماكسيموس أدين على يد مجمع عام يضم مائة وخمسين أسقفاً، وأعلن شعب الكنيسة فى القسطنطينية عدم قبوله له أو رضائه عن اختياره الذى دبر بليل، وجريجورى النازيانزى جاء إلى القسطنطينية بدعوة من جماعة النيقيين هناك، ورسم أسقفاً برضاء المجمع وموافقة الإمبراطور، وكذا كان الحال بالنسبة للأسقف الجديد نكتاريوس. وإذا كان جريجورى قد انتقل من أسقفية ليعتلى كرسى أسقفية أخرى خلافاً لما جرى به التقليد الكنسى وأقره المجمع النيقى، كما أذاع الوفد السكندرى، فإن القانون الرابع لمجمع القسطنطينية قد استثنى فقط من ذلك "من توجه إليهم الدعوة" فما الذى ارتآه الأسقف الميلانى أمبروز من الناحية التنظيمية خطأ، حتى يصر على شرعية رسامة من أدين، ويرفض الاعتراف بمن جاءوا إلى الأسقفية بالطريقة الشرعية؟!

وفى صمت المصادر، وقلة المعلومات أو انعدامها، يصبح الأمر شائكاً ومحيراً، ولكننا نحاول أن نتلمس الطريق قدر الجهد. فلعل ماكسيموس قد استطاع خلال وجوده فى سالونيك بعد هروبه إليها، التأثير على أسقفها أسخوليوس، الذى كان أحد حضور المجمع، بعد عودته، وبالتالى التأثير على عدد من الأساقفة اللاتين، ومنهم أمبروز بحيث وقفوا إلى جانبه على هذا النحو، ولم يعلنوا تخليهم عنه إلا العام التالى إبان المجمع الذى عقد فى روما. ولعل أمبروز، شأن أساقفة الغرب جميعاً، كان يضمر العداء لجريجورى النازيانزى، وأبوى كبادوكيا الآخرين معه، لخلاف فى الرأى بين هؤلاء وأولئك حول المشكلة الأنطاكية. فبينما يؤيد لاهوتيو كبادوكيا النيقيين المعتدلين وزعيمهم الراحل مليتيوس، يقف الغرب فى

=على الآريوسية، فلما تقدما إلى الإمبراطور بالتماس لعقد مجمع عام لبحث مسألة هذا الاتهام، أرجئت الفكرة تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية، ثم خضع جراتيان لتأثير الأسقف الميلانى أمبروز وقصر المجمع على أساقفة الليريا والغرب فقط، وكان أمبروز يرمى من وراء ذلك إلى حرمان أسقفى الليريا من تأييد أساقفة الشرق. وقد انتهى الأمر بإدانة الأسقفين وعزلهما، وإن كان الأسقفان رفضا قبول قرار الإدانة وطالبا بعقد مجمع جديد. للمزيد من التفاصيل راجع : Hefele, op. cit. II pp. 375-377.

جانب النيقيين المتطرفين المعروفين باليوستاتيين، والذين كان الأسقف السكندرى الأسبق أثناسيوس يأخذ جانبهم، ومن ورائه الغرب دون معرفة بحقيقة الخلاف وبلا فهم لطبيعة الجدال، وهذا يتضح أيضاً خلال مجمع روما الذى عقد سنة ٣٨٢، كما سيأتى ذكره بعد. ولما كان مليتيوس الأنطاكى من أشد المتحمسين لجريجورى النازيانزى، وهو الذى تولى بالاشتراك مع عدد من أساقفة المجمع المسكونى الثانى، رسامته. أمسى ضرورياً رفض أمبروز الاعتراف بشرعية اختياره. أما نكتاريوس فحاله لا يختلف فى شيء عن أمبروز، فكلاهما كان حاكماً مدنياً قبل أن يلبس الرداء الكهنوتى، وكلاهما لم يكن قد عمد بعد، وكلاهما اختير بطريقة شرعية ورضاء الإمبراطور، ومن ثم فليس من مبرر لموقف أمبروز ضده إلا أن يكون معتبراً إياه مغتصباً لكرسى كان ماكسيموس الكلبى – فى نظره – به أولى!!

وإذا كانت روما قد رفضت الاعتراف بالقانون الثالث، الخاص بإعلاء قدر كنيسة القسطنطينية، فإن أمبروز لم يكن يقل عن أساقفة روما رفضاً لهذا القانون، ولم يكن ذلك ناجماً عن حرص على حقوق كنيسة الإسكندرية أو الكنيسة الأنطاكية، ولكن مؤازرة لروما، حفاظاً على التقليد الكنسى، وتوجسا من ازدياد نفوذ هذه الأسقفية الناشئة فى المدينة التى ما زالت تحبو فى سنى قرنها الأول من عمر الزمن، خاصة وقد امتد نفوذها الآن ليشمل أيضاً تراقياً. وإذا كانت الليريا قد أضيفت سياسياً إلى سيادة إمبراطور النصف الشرقى، فلابد أن ترعاها بالتالى ، ولو بعد حين، كنيسة القسطنطينية.

ولما كان ثيودوسيوس مازال فى بداية عهده، يحاول أن يكون حريصاً على عدم إثارة النصف الغربى من الإمبراطورية، بإمبراطوره وإكليروسه، وهو يعلم تماماً مدى الصداقة التى تربط بين الأسقف الميلانى والإمبراطور جراتيان، بل ويدرك يقينا إلى أى حد يصل تأثير أمبروز ونفوذه فى بلاط الغرب، فقد وجه الدعوة من جديد، استجابة لطلب مجمع أكويليا، لعقد مجمع جديد فى القسطنطنية فى صيف عام ٣٨٢، حضره نفر من أساقفة الشرق لم يكن عددهم يقل عمن ضمهم المجمع المسكونى الثانى فى العام الماضى. وقد دعا الإمبراطور جريجورى النازيانزى لحضور هذا المجمع، غير أنه أعتذر بمرضه، متمنياً لهم التوفيق، وإن

كان قد علق بخيبة أمله فى مثل هذه الاجتماعات[٦٤]. وكان الهدف الرئيسى لهذا المجمع هو إرضاء إكليروس الغرب، الذى كان يعقد مجمعاً فى الوقت ذاته فى روما، ذلك أن شيئاً ما جديداً لم يتمخض عنه مجمع القسطنطينية الثانى هذا.

تلقى أساقفة المجمع رسالة من أساقفة الغرب تدعوهم للانضمام إليهم فى روما، غير أن أساقفة الشرق تعللوا بأنهم وطنوا أنفسهم على أساس رحلة قصيرة[٦٥]. وقد جاء ذلك فى رسالتهم المجمعية التى بعثوا بها إلى داماسوس أسقف روما، وأمبروز أسقف ميلانو والأساقفة الآخرين المجتمعين فى روما وحملها ثلاثة من بينهم هم سيرياقوس Syriacus ويوسيبيوس Eusebius وبريسكيانوس Priscianus وتضمنت هذه الرسالة وصفاً للاضطهاد والمعاناة التى لقيوها ولقيته معهم كنائسهم على عهد الإمبراطور فالنز، وان كانوا الآن قد دخلوا فى مرحلة الأمان. واحتوت الرسالة أيضاً موجزاً لقانون الإيمان الذى يدينون به ويقولون فيه "لقد تعلمنا أن نؤمن باسم الآب والابن والروح والقدس، بألوهية واحدة وسلطان واحد وجوهر واحد للآب والابن والروح والقدس. وبكرامة واحدة ومجد لا نهائى لأقانيم ثلاثة كاملة، أو ثلاثة شخوص". وأدانوا الآريوسية والماكيدونية واليونومية[٦٦]. واختتم الأساقفة رسالتهم بالتأكيد على شرعية اختيار نكتاريوس أسقفاً للقسطنطينية، وذلك استناداً إلى القانون الرابع الصادر عن المجمع السابق والذى يدين ماكسيموس الكلبى. كما تضمنت نهاية الرسالة أيضاً اعترافهم بشرعية رسامة فلافيان Flavianus أسقفاً لأنطاكية. وكان قدر جرى اختياره على يد أتباعه فى أنطاكية بعد أن علموا بنبأ وفاة مليتيوس وصدق على ذلك الوفد الأنطاكى فى المجمع[٦٧]، وبقية الأساقفة.

(٦٤) GREG. NAZ. Ep. CXXXV.

(٦٥) THEOD. Hist. Eccl. V 9.

(٦٦) Hefele, op. cit. II p. 379 وقد جرى الاعتقاد خطأ بنسبة هذا الاعتراف إلى المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، والدليل على ذلك ما جاء فى خاتمة اعترافهم من القول بأن "الكثير من التفاصيل حول هذا الأمر "التجسيد" يقف عليه الأخوة اللاتين من رسالة العقيدة.. التى أصدرها المجمع العام المنعقد فى القسطنطينية فى السنة السابقة".

(٦٧) كان الوفد الأنطاكى برئاسة مليتيوس يضم خمسة وستين من رجال الأكليروس فى فلسطين وفينيقيا وسوريا والعربية والرها وما بين النهرين والفرات وكيليكيا وايزوريا. انظر دكتور أسد رستم – كنيسة أنطاكية. الجزء الأول. ص٢٥٥ وله أيضاً الروم الجزء الأول، ص٩٣.

وكانت خاتمة الرسالة بالذات هى التى تنحصر فيها أهميتها وأهمية المجمع بصفة عامة ، نعنى اطلاع الغرب على أن ما تم اتخاذه بشأن ماكسيموس لا خطأ فيه، وأن إعلان ننكتاريوس أسقفاً قد تم بطريقة قانونية. وكان أساقفة الغرب يعقدون مجمعهم فى روما عندما جاءهم وفد القسطنطينية، وعلى رأس المجمع كان داماسوس، ويضم أمبروز، الذى حال المرض بينه وبين متابعة بعض الجلسات، وبريتون Britton أسقف ترير (Augusta Treverurum) وأسخوليوس أسقف سالونيك وأنيموس Anemius أسقف سيرميوم Sirmium والقديس جيروم Hieronimus وباولينوس Paulinus أسقف النيقية المتطرف فى أنطاكية، والمندوبين الثلاثة رسل مجمع القسطنطينية.

ولا شك أن وجود أسخوليوس فى هذا المجمع، يؤيد وجهة النظر التى ذكرناها من قبل، فيما يتعلق بإمكانية نجاح ماكسيموس السكندرى فى استمالته إلى قضيته بعد عودته من مجمع القسطنطينية. كما أن مشاركة باولينوس الأنطاكى أيضاً لها دلالتها الهامة الخاصة بمعاداة الغرب للأسقف الأنطاكى الراحل مليتيوس وخليفته فلافيانوس. وكانت أهم القضايا التى ناقشها المجمع مسألة الآراء الأبوللينارية[٦٨]، وإدانتها. وقد قام جيروم بوضع صيغة اعتراف للإيمان كان على الأبوللياريين توقيعها إذا ما رغبوا فى العودة إلى شركة الكنيسة [٦٩].

إلا أن المجمع وافق مؤخراً على ما جاء به أساقفة الشرق، وأعلن أساقفته تخليهم عن قضية ماكسيموس الكلبى، واقتناعهم بشرعية رسامة نكتاريوس أسقفاً

---

(٦٨) تنتمى هذه الطائفة إلى أبوللياريوس Apollinarius الذى كان أسقفاً لكنيسة اللاذقية خلال النصف الأخير من القرن الرابع، وامتدحه باسل الكبير الكبادوكى لقوامة إيمانه، ولم يكن أثناسيوس السكندرى أقل امتداحاً له من صديقه اللاهوتى الشهير. وقد تلقى جيروم بعض تعليمه على يديه سنة ٣٧٤، غير أنه ما لبث أن جهر بآراء حول طبيعة المسيح، تعترف باللاهوت فيه فقط، مما كان بابا ولج منه المنافزة من بعد. ولعل هذا جاء منه رداً على الآريوسيين الذين غلّبوا الناسوت فى المسيح. وقد أدين أبوللياريوس وحرم على يد مجمع روما الذى عقد سنة ٣٧٧ وأرسل داماسوس رسالة تحتوى على خمس وعشرين أناثيما ضده، إلى باولينوس أسقف أنطاكية. راجع GREG. NAZ. Epp. CI, CII

(٦٩) Chadwick, op. cit. p. 148

للقسطنطينية، ولعلهم أرادوا مقابلة روح المودة التى جاءهم بها أساقفة مجمع القسطنطينية الثانى، خاصة وأن ماكسيموس موضوع الخلاف قد أضحى غير ذى بال، بعد أن استقر الأمر فى القسطنطينية لنكتاريوس. لكن المجمع مع ذلك إذا كان قد أرضى إخوة الشرق فى جزء مما جاءوا به، فإن المشكلة الرئيسية التى تباعد بينهما ظلت قائمة، حيث رفض مجمع روما الاعتراف بفلافيانوس أسقف أنطاكية الجديد، بل زاد على ذلك أن أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى، وأشرك معه فى هذا الحرم ديودوروس الطرسوسى وأكاكيوس الحلبى، اللذين قاما بإتمام إجراءات سيامته [٧٠]. وهكذا ظلت المشكلة الأنطاكية، كما كانت دائماً عاملاً هاماً فى ازدياد الهوة والتباعد، ضمن عوامل أخرى عديدة، بين أكليروس الشرق والغرب.

وكان مجمع روما، وفى حضرة رسل الشرق، فرصة حرص عليها الأسقف الرومانى وأمبروز والأساقفة اللاتين، لإظهار غضبهم وسخطهم على القانون الثالث الصادر عن المجمع المكسونى الثانى، فأعلنوا "أن الكرسى الأول هو كرسى بطرس الرسول الذى به ترتبط الكنيسة الرومانية، لم يقارف البتة إثما"، وأكدوا وضع أسقفيتى الإسكندرية وأنطاكية فى المرتبتين التاليتين مباشرة، استناداً إلى النظم الكنسية التى استقرت وسادت. ولم يكن بمقدور رسل الشرق إلا أن يقدموا احتجاجاً واهنا، بالعودة إلى ديارهم بعد أن حصلوا على أهم أمر من أجله جاءوا، وهو ما يتعلق بنكتاريوس. وقد أبدى الأسقف الميلانى أمبروز تأييده الكامل ومؤازرته لأسقف روما والمجمع فى هذا القرار[٧١]. وظل خلال أسقفيته الطويلة يبدى احترامه الكامل لروما وإعجابه، محاكياً فى ذلك الآباء الأول الذين عبروا عن هذا الاحترام بقولهم: "حيثما كان بطرس.. الكنيسة تكون"[٧٢].

(٧٠) SOZOM. Hist. Eccl. VII, 11.

(٧١) Glesser, Middle Ages in the West, pp. 20-21.

(٧٢) Barry op. cit. p. 31.



الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق

الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق

يمثل عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧) فترة فريدة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، تميزت بسياسة التوازن والحلول الوسطى، والإمبراطور يسير دفة الأمور بكل الحذق والمهارة، مسيحياً فى سياسته، وثنيا فى نظرته، نيقياً مع الجموع، فإذا حزب الأمر آريوسيا، يضم بلاطه مستشارين من كل هؤلاء الأضداد ويموج بشتى الفكر. فالقادة العسكريون ورجال السياسة والإدارة والاقتصاد من الوثنيين. وهوسيوس القرطبى، رئيس أساقفة المجمع المسكونى الأول، والنيقى المتعصب، مستشار الإمبراطور للشئون الدينية. وفى الطرف الآخر نجد يوسيبيوس النيقوميدى الآريوسى العنيد، صديقاً للإمبراطور. وبين هؤلاء وأولئك يقف الأسقف القيسارى يوسيبيوس.. شيخ مؤرخى الكنيسة الذى لم يؤيد النيقية جهاراً، ولم يهاجم الآريوسية صراحة، مداح الإمبراطور، استخلصه قسطنطين لنفسه، فإذا هو لديه مكين أمين. وهكذا جمع الرجل فى بلاطه الأبيض والأسود، والنار والجليد.. دون أن يطغى أحدهما على الآخر.. فلما مات، اختلط الحابل بالنابل، وأذابت النار الجليد، فلم تخلف إلا الوحل!

وطوال ربع قرن (٣١٢-٣٣٧) وقسطنطين يمسك من الوسط عصا التسيار يحرك بها كل هذه الجماعات فى ذكاء وحذر، فهو يدين الدوناتيين فى ولاية أفريقيا من مقامه فى ميلانو سنة ٣١٦، لأنهم أدينوا بيد مجمعين كنسيين فى روما ٣١٣، وآرل ٣١٤، ويستخدم العنف ضدهم، حتى إذا قوى ساعد الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة، عفا عن الدوناتيين وحث الكاثوليك على اتخاذ مواقف معتدلة معهم ومتسامحة. وهو يخاطب اسكندر وآريوس السكندريين فى البداية ، يدعوهما إلى المصالحة، ويطلب إليهما فض هذا الخلاف اللاهوتى "التافه"، "العقيم" وترك هذا "الحمق الصبيانى". ثم ينتصر لمجمع نيقية والنيقية وينفى زعماء الآريوسية، حتى إذا آنس من جانب النيقيين تعالياً، عده غطرسة وغرورا، أعاد آريوس وصحبه من المنفى، وقبل منهم ودون الرجوع إلى الكنيسة، وثيقة إيمانهم، وقرب إليه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، وعزل ونفى أساقفة النيقية وفى مقدمتهم يوستاتيوس

Eustathius الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى، فلما استشعر القوة من جانب الآريوسيين، اتجهت نيته إلى السماح لأسقف الإسكندرية بالعودة إلى بيعته، إلا أنه قضى نحبه، وبقى الأسقف ينتظر، ولم يطل به فى المنفى مكثه فعاد بإرادة ولد الإمراطور وسميه، قسطنطين الثانى واتفاق الأخوة الأباطرة.

إلا أن هذه السياسة وإن كانت قد حفظت السلام الظاهرى بين الوثنية والمسيحية وبين الفرق المسيحية وبعضها طيلة حياة الإمبراطور، وأفاد هو منها فى السيادة الكاملة على كل هذه الاتجاهات المتباعدة المتصارعة، وإن كانت قد أرهقت منه الفكر والجهد. غير أنه بموت قسطنطين، وافتقار أولاده الثلاثة لشىء من صفاته وذكائه، انفرط هذا العقد الفريد، وراحت هذه الفرق جميعها تتلاقى متلاطمة. وفى تعبير رائع يصف المؤرخ الكنسى سقراط هذه الحال قائلاً "... ومع الأيام، وعبر مدائن الشرق كلها، راحت الفتن والمهاترة تسود، وأمسى النظام إلى فوضى، وكل شأن إلى السوء سار"(١).

وكانت أنطاكية إحدى ضحايا هذه السياسة بعد وفاة قسطنطين، وبالتالى ضحية لهذا الصراع الفكرى الذى دار بين النيقيين وأنفسهم، والآريوسيين وبعضهم، وهؤلاء وأولئك جميعاً. وضاعف من حدة المواجهة، ذلك المركز الممتاز الذى تتمتع به أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق الرومانية، وقصبة سوريا، وصاحبة المدرسة اللاهوتية الشهيرة لتفسير الكتاب المقدس، باستاذها لوقيانوس، وتلميذيها آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، وفيلسوفها الوثنى الأشهر ليبانيوس، وغير هؤلاء ممن بعد هذه الفترة التى نتناولها هنا، يأتون. أجمل ذلك كله هذا الفيلسوف فى عبارة واحدة "مدينة لا كغيرها من المدن"(٢).

---

(١) SOCRAT. Hist. Eccl. II 22.

(٢) يتغنى ليبانيوس بجمال أنطاكية وتفوقها فيقول "هل نستطيع أن نذكر مدينة واحدة تستحق أن تقارن بهذه ؟ فإلى جانب كونها أسعد حظاً من أقدم المدن، فهى أكبر حجماً من بعض المدن الأخرى، وهى تفوق بعض المدن فى نبل أصلها، ومدناً أخرى فى أرضها المعطاء. قد تفوقها مدينة واحدة (القسطنطينية) بأسوارها، ولكنها أعظم من هذه فى وفرة مائها، واعتدال شتائها، وتهذيب أهلها، وطلبها للعلم. وهى أجمل من المدينة التى تفوق تلك حجماً (روما) بسبب أجمل الأشياء وهى التربية والأدب الهيللينيين. انظر داونى، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة دكتور ألبرت بطرس، ص٣٧، ٩٩-١٠٠.

بدأت المشكلة الأنطاكية بخلاف عادى فى الرأى شائع الحدوث فى ذلك الحين، طرفاه يوستاتيوس أسقف المدينة، ويوسيبيوس شيخ مؤرخى الكنيسة وأسقف قيسارية فلسطين، يصفه سقراط بأنه كان "نزاعاً فى ظلام، لأن أحداً من الفريقين لم يحاول فهم موقف الآخر أو الأسس التى يعتمد عليها، سببه الرئيسى عبارة، "من نفس جوهر الآب"[٣]. Homoousius التى كانت الركيزة الأساسية التى دار من حولها قانون الإيمان النيقى، ولم يلبث يوسيبيوس أن رد التهمة وأذاع فى الناس أن يوستاتيوس ليس إلا سابلليا[٤]. ونتيجة لسوء الفهم المتبادل – على حد قول سقراط – كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدواً لدوداً[٥].

انتهز الآريوسيون الفرصة، وعلى رأسهم يوسيبيوس النيقوميدى الذى تزعمهم بعد عودته من المنفى، وعلى أثر الهدوء الذى آوى إليه آريوس، حتى عرفت الجماعة باسمه فدعيت باليوسابيين، وعزموا على أن يحققوا لأنفسهم كسباً يردون به اعتباراً لهم فقدوه فى نيقية سنة ٣٢٥. ولما كانوا يعلمون مدى تعصب يوستاتيوس للنيقية، ومدى قرب يوسيبيوس إلى قلب الإمبراطور ، وأنه فى عقيدته لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فقد صمموا على الإطاحة بأسقف أنطاكية لتجد فيها الآريوسية مجالها، ففيها تلقى آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى تعليمهما، وتشرب الزعيم الآريوسى فيها مبادئ دعوته، ومن ثم فهى بالآريوسية أولى.

وبموافقة الإمبراطور وفى سنة ٣٣٠ تم عقد مجمع فى أنطاكية نفسها، انتهى بالانتصار ليوسيبيوس، وبالإدانة ليوستاتيوس وحرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه، وصدق قسطنطين على ذلك، وأضاف إليه نفى الأسقف الأنطاكى إلى تراجانوبوليس Traganopolis فى تراقيا[٦]. فكسب الآريوسيون بذلك أرضاً وجولة، وأذل الإمبراطور شيئاً ما كبرياء الجماعة النيقية. ويعلق سقراط "لقد كان

---

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. I 23.

(٤) السابللية نسبة إلى سابلليوس Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais إحدى المدن الخمس الغربية، نادى فى القرن الثالث بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة، ولكنها صورة مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث. وقد تصدى للرد عليه آنذاك أسقف الإسكندرية ديونيسيوس.

(٥) SOCRAT. loc. cit.

(٦) SOZOM. Hist. Eccl. II 19; THEOS. Hist. Eccl. I 20; HIER. Vir. Ill. 85.

هذا أمراً شائع الحدوث، يأتيه الأساقفة متى عن لهم ذلك، يسوقون الدعوى ضد الخصوم متهمين أنهم ضد ضلوا سواء السبيل، أما وقائع الدعوى، أما الأدلة فلا موجب لها، وليس إليها من سبيل(٧).

ومنذ هذا التاريخ انتبذ النيقيون مكاناً قصياً فى انطاكية، أو بتعبير آخر نُبذوا وحدهم بعد أن سادت الآريوسية المدينة والإمبراطورية على عهدى قسطنطيوس وفالنز، ومنذ أضحت أنطاكية مقام الإمبراطورين لفترات ليست بالقصيرة من عهديهما لمجابهة التحديات الفارسية. وانقسمت أنطاكية الكنيسة والمدينة على نفسها بين الآريوسيين والنيقيين، وازدادت بمرور السنوات حدة التوتر بين الفريقين، وإن كان أحد أساقفتها الآريوسيين وهو ليونتيوس(٨). Leontius الذى اعتلى كرسيها الأسقفى عام ٣٤٤، قد تمكن بدهائه وفطنته أن يجمع حوله كلا الخصمين ممثلين فى ديودوروس Diodorus وفلافيانوس Flavianus وهما من النيقيين العلمانيين، إلى جوار شماسه وفتاه آيتيوس Aetius الآريوسى المتطرف (٩)، وتمكن بذكائه من أن يسترضى جميع الأطراف، حيث كان يردد دائماً عبارته الشهيرة "إذ ذاب الجليد فلن يخلف إلا الوحل"(١٠).

وقد غرقت أنطاكية بالفعل فى هذا الوحل بعد وفاة ليونتيوس، إذ لم يلبث خلفه يودوكسيوس Eudoxius، الذى لم يمض فى أسقفية أنطاكية أكثر من عامين (٣٥٨-٣٦٠)، أن انتقل إلى كرسى القسطنطينية، وأقدم الآريوسيون سنة ٣٦١ على اختيار مليتيوس Meletius الذى كان أسقفاً لسيواس ثم حلب، وقد اعتبره الفريق الآريوسى أحد أنصاره، بعد أن وقع على مرسوم العقيدة الهوموية التى

(٧) SOCRAT. Hist. Eccl. I 24.

(٨) توالى على أسقفية انطاكية بعد عزل يوستاثيوس عدد من الأساقفة كلهم من الآريوسيين من بينهم يولاليوس Eulalius ثم فلاكيللوس Flacillus ثم يوفرونيوس Euphronius الذى شهد مجمع التدشين سنة ٣٤١، ثم اسطفانوس Stephanus الذى حضر مجمع فيليبوبوليس Philippolis فى تراقيا سنة ٣٤٣. ولم يلبث أن عزل فى نفس العام ليخلفه ليونتيوس.

(٩) THEOD. hist. eccl. II 9

(١٠) SOZOM. hist. eccl. III 20.



غدت تمثل الآريوسية الحكومية ولها السيادة فى أواخر عهد قسطنطيوس(١١)، على النحو الذى قدمنا.

ويبدو أن الأسقف الجديد حاول أن ينهج سبيل سلفه الأسبق ليونتيوس، غير أن الزمن لم يكن الآن فى صالحه، ففى أربعينيات القرن الرابع، كانت الإمبراطورية تتقاسمها الآريوسية فى الشرق والنيقية فى الغرب، الأولى يناصرها قسطنطيوس، وقنسطانز يعضد الثانية. وكان إمبراطور الشطر الشرقى يخشى أخاه، خاصة بعد ظروف الحرب السيئة التى كان يخوضها ضد فارس، والهزائم التى لقيها على أيدى القوات الفارسية، إلى الحد الذى رضخ فيه لأوامر أخيه حين سمح بإعادة أساقفة النيقية، الذين كان قد نفاهم، إلى كراسيهم الأسقفية. أما فى الستينيات من ذاك القرن، فقد تبدل الحال غير الحال، حيث غدا قسطنطيوس الإمبراطور الفرد غداة انتصاره على قاتل أخيه ماجننتيوس Magnentius عام ٣٥١، وأصبحت الآريوسية هى صاحبة السيادة فى شطرى الإمبراطورية، حتى ولو كان ذلك من الناحية النظرية فقط فى النصف الغربى.

غير أن مليتيوس لم يدرك هذه الحقيقة، حين أراد أن يكون معتدلاً. إذا أنه حاول أن ينأى بنفسه عن هذا المعترك اللاهوتى، فتحاشى بادئ ذى بدء الخوض فى المسائل العقيدية وخص بالمسائل الأخلاقية عظاته. غير أن الآريوسيين فطنوا إلى ما يعتمل فى نفس أسقف أنطاكية الجديد، فضيقوا عليه الخناق، خاصة جورج أسقف اللاذقية الذى كان يعتبر نفسه أحق بكرسى أنطاكية من مليتيوس، وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، تلميذ يوسيبيوس وخلفه، والأمين الآن على الهوموية التى كانت من بنات أفكاره. فاضطر مليتيوس أمام مضايقاتهما أن يكشف عن خبئ صدره، فراح يبشر الجموع بالنيقية، وإن كان قد أغفل مصطلح "الهوموسية". وعليه، سعى الآريوسيون بالنبأ إلى قسطنطيوس، فأصدر على الفور قراره بعزله من الأسقفية، ولم يكن قد مضى على رسامته أكثر من شهر واحد، وأمر بنفيه إلى أرمينيا، وتم اختيار يوزيوس Euzius صديق آريوس ورفيق دعوته ومنفاه(١٢).

(١١) SOCRAT. hist. eccl. II 4' THEOD. hist. eccl. II 27.
SOCRAT. hist. eccl. II 44; SOZOM. hist. eccl. IV 22.

(١٢) THEOD. hist. eccl . II 24.

هكذا دخلت أنطاكية ولفترة طويلة من الزمن، فى دوامة الشقاق العقيدى يتنازعها الآريوسيون وعلى رأسهم يوزيوس، وأتباع مليتيوس وهم يمثلون النيقيين المعتدلين، والنيقيون القدامى أو المتطرفون، الذى عرفوا باليوستاتيين نسبة إلى زعيمهم يوستاتيوس الأسقف الأنطاكى الذى عزل من قبل على يد الإمبراطور قسطنطين، وهؤلاء رفضوا الدخول فى شركة مليتيوس ودعيته، بحجة أنه رسم على يد الآريوسيين وأن أتباعه عملوا بواسطتهم، واختاروا من بينهم باولينوس Paulinus ليكون لهم أسقفاً وزعيماً.

وكان يوزيوس حريصاً على أن لا يلتقى الفريقان النيقيان حتى لا يشكلا على سلطانه الآريوسى خطورة قد تودى به، وبصفة خاصة بعد موت الإمبراطور قسطنطيوس واعتلاء جوليان العرش، والذى كشف عن عدائه وازدرائه للمسيحية وسعى خلال عهده القصر ليبعث إلى الحياة عقيدة الإمبراطورية القديمة، الوثنية. ولما كان النيقيون المعتدلون يشكلون الأكثرية النيقية فى أنطاكية فقد حاول استمالة الأقلية المتطرفة، لا إلى عقيدته، ولكن إلى صفه، ابتغاء تعميق هوة الشقاق بينهما، فسمح لهذه الأقلية اليوستاتية أن تمارس طقوسها فى إحدى الكنائس الصغيرة داخل المدينة، بينما حرم ذلك على الآخرين.

لم يطل المقام بمليتيوس فى المنفى، فعاد مع غيره من الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس، بناء على المرسوم الذى أصدره جوليان، والذى كان يهدف من ورائه أن يقتتل المسيحيون وأنفسهم ليمهدوا بأيديهم تحقيق رغبته فى العودة إلى الوثنية، بعد أن تأكل المسيحية نفسها بأيدى أبنائها، ولما وجد الصورة على هذه الحال، فقد رفض الدخول فى هذه المناورة التى يتبعها يوزويوس، وآثر أن ينسحب برعيته خارج أسوار المدينة ليؤدى لهم مهام الخدمة الكنسية[١٣].

وكان الأسقف السكندرى أثناسيوس من بين من عادوا إلى بيعهم، وجذبته إلى دوامتها أحداث الشقاق الأنطاكى، فانتهز فرصة عقد مجمع الإسكندرية، الذى التأم فى عام ٣٦٢ بناء على دعوته، وضم واحداً وعشرين أسقفاً لبحث قضية هذا

(١٣) SOCRAT. hist. eccl. III 9; SOZOM. hist. eccl. V 9.

الشقاق. ولما كان أثناسيوس صديقاً حميماً للأسقف الأنطاكى القديم يوستاتيوس، فإنه كان يميل إلى مناصرة أشياعه، إلا أنه آثر إلى حد ما جانب الاعتدال، وإن كان بما لايضر بمصلحة الفريق الذى يؤيده، ورغبته فى أن يضم المسيحيون صفوفهم لمواجهة هذا الخطر الماثل فى جوليان ومحاولته إعادة الوثنية، وللتصدى أيضاً للآريوسيين فى أنطاكية وزعيمهم يوزيوس. ومن هنا جاءت رسالة المجمع التى كتبها أثناسيوس وبعث بها إلى الأنطاكيين Tomus ad Antiochenos دعوة صريحة إلى المصالحة بين الفريقين، وإن كانت قد طلبت من مليتيوس وأتباعه الدخول فى شركة باولينوس(١٤).

إلا أن جهود المجمع السكندرى ذهبت سدى من جراء الموقف الذى وقفه لوكيفريوس Luciferius أسقف كاليارى Cagliari (فى سردينيا) وكان قد نفى عام ٣٥٥ إلى مصر على يد قسطنطيوس عقب معارضته لقرارات مجمع ميلانو المنعقد فى نفس العام والخاصة بادانة أثناسيوس، وقد شاركه قدره زميله يوسيبيوس أسقف فرسالى(١٥) Vercellae وقد اتفقا فى طريق عودتهما من المنفى أن يتجه الأخير إلى الإسكندرية للمشاركة فى مجمعها، على حين يرحل لوكيفريوس إلى أنطاكية ليبحث عن حل للشقاق فيها، إلى أن يأتيه قرار المجمع السكندرى. غير أن الأسقف السردينى كان نيقياً متطرفاً، شديد المقت للآريوسية، وكان من الطبيعى أن يأخذ جانب اليوستاتيين المتطرفين، ولذا فإنه لم يتوان حالة وصوله إلى أنطاكية، فقام برسم باولينوس Paulinus أسقفاً على أنطاكية (١٦). فدعم من جانبه أسباب الشقاق بين النيقيين وأنفسهم، ولذا لم يكن أمام يوسيبيوس الفرسالى، الذى جاء من الإسكندرية إلى أنطاكية يحمل رسالة المجمع، إلا أن يحرث فى البحر وهو يحاول البحث عن حل لرأب هذا الصدع، وأن يغود إلى بيعته ملتزماً الصمت احتراماً لزميلــه لوكيفريوس، مظهراً الأسى لما حل بالنيقية فى أنطاكية.

---

(١٤) ATHANAS. Tomus ad Antiochenos, 3-4.

(١٥) SOCRAT. hist. eccl. III 6, 9; SOZOM. hist. eccl. V 12; Chadwick, op. cit. pp. 140, 147.

(١٦) THEOD. hist. eccl. III 2.

وقد حاول أثناسيوس هذه المحاولة مرة ثانية على عهد الإمبراطور جوفيان، أى بعد عام فقط من انعقاد مجمع الإسكندرية، منتهزاً فرصة وجوده فى أنطاكية للقاء الإمبراطور. ويصف سوزومنوس جهود أثناسيوس هناك بأنها كانت "فى حدود الممكن"(١٧). ولم يكن "الممكن" هذا يتعدى إطار صداقة الأسقف السكندرى لأسقف اليوستاثيين. والغريب أن كلا الأسقفين راح يوسع بيديه شقة الخلاف. فمليتيوس قبل فى شركته أكاكيوس أسقف قيسارية وأتباعه الذين تحولوا الآن على عهد جوفيان إلى النيقية بعد أن رأوا مناصرة الإمبراطور لأتباعها، فأدى هذا العمل بالتالى إلى زيادة نفور أثناسيوس منه دون سبب واضح. بينما أقدم باولينوس على رسم أسقف لكنيسة صو يدعى ديودوروس Diodorus فاعتبر مليتيوس ذلك اعتداء على حقوقه باعتباره أسقف أنطاكية الشرعى وزعيم الأغلبية النيقية، والذى له الحق القانونى فى اختيار أساقفة هذه المناطق. ومن هنا يمكننا إدراك فحوى العبارة التى ذكرها المؤرخ الكنسى سوزومنوس تعليقاً على جهود أسقف الإسكندرية فى أنطاكية، ويبين لنا أيضاً أنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح لتضييق هذا الصدع، خاصة لموقفه الواضح المؤيد تماماً لباولينوس اليوستاثى.

إلا أن الحظ ابتسم قليلاً لليوستاثيين عندما أقدم الإمبراطور فالنز على نفى مليتيوس باعتباره يمثل الأغلبية النيقية، التى تشكل خطراً على أسقفه الآريوسى فى أنطاكية، يوزيوس، وأنزل بأتباعه الذين رفضوا الدخول فى شركة الآريوسيين، العذاب الأليم، هذا بينما سمح لباولينوس بالبقاء ولإشياعه بأداء طقوسهم الكنيسة، فلم يكن يرى فيهم خطراً يتهدده إلا من ناحية تحالفهم مع أثناسيوس، وهذه كان قادرا على التخلص منها حينما قام بنفى الأسقف السكندرى.

ولم تكن خطورة الشقاق الأنطاكى تكمن فى تفريق الجماعة النيقية فى المدينة، بل فى امتداده ليشمل كنائس الشرق والغرب معاً. وهذه هى السمة الرئيسية التى صبغت النزاع النيقى فى أنطاكية، ولم تعد المشكلة ممثلة فى الخلاف العقيدي بين النيقيين والآريوسيين، بل بين النيقيين وأنفسهم، وجروا وراءهم فى ذلك أسقفيات عديدة أخرى.

(١٧) SOZOM. hist. eccl. VI 5.

فبينما وقفت الإسكندرية تؤيد باولينوس، لصداقة قديمة تربط بين أثناسيوس ويوستاتيوس، ولتقارب كبير بينهما فى الفكر والعقيدة، كان آباء كبادوكيا الثلاثة باسل الكبير أسقف قيسارية، وجريجورى أسقف نازيانزا ومن بعد القسطنطينية، وسميه أسقف نيسا، يناصرون مليتيوس وجماعته النيقية المعتدلة، فهؤلاء كانوا يمثلون جيل النيقية الجديد الحريص على أن ينهل من الثقافة اليونانية، والذى يتسم بالاعتدال والفكر(١٨). وكانت هذه النقطة بالذات من أهم نقاط الخلاف بين أثناسيوس السكندرى وباسل الكبادوكى رغم الصداقة التى كانت تربط على البعد بين الرجلين، رغم عدم التقائهما. ولما كان الغرب الأوربى قد وصل منذ البداية صفوفه بأثناسيوس منذ جاءه منفيا (٣٣٥) ثم لائذا (٣٣٩) ورأى فيه تجسيداً للنيقية التى آوى إليها منذ عام ٣٢٥ ولم يبغ عنها حولاً، فقد راح أساقفة الغرب بالتالى يناصرون باولينوس وجماعة اليوستاتيين، دون إدراك حقيقى لمغزى الخلاف أو طبيعته اللاهوتية أو حتى واقعه العملى.

وتفصح الرسائل العديدة التى بعث بها باسل الكبير إلى مليتيوس الأنطاكى عن مدى التقارب بينهما فى وجهتى النظر، ومدى الألم الذى يعانيه الأسقف الكبادوكى من جراء هذا الشقاق(١٩). على أن الرسائل التى كتبها إلى صديقه السكندرى هى التى تكشف عن الجانب الرئيسى فى هذا النزاع، والأمل الذى يعلقه باسل على أثناسيوس فى حل هذا الخلاف، واطلاع الغرب على حقيقة المشكلة، "لأنه ليس هناك من هو أقدر منه على علاج هذه الحال"(٢٠)، بل إن باسل يغدو أكثر صراحة عندما يذكر لأثناسيوس أن خير حل لهذا الصدع أن تتحد كل هذه الفرق تحت رعاية مليتيوس، وهذا بالطبع عكس ما أراده أثناسيوس فى رسالته المجمعية إلى الانطاكيين التى ترى الاتحاد بزعامة باولينوس. ولكن باسل يمضى فى رسالته طالباً إلى أثناسيوس أن يتدخل لدى باولينوس لإقناعه بالدخول فى شركة مليتيوس، "حيث أن هذا دون شك سوف يحفز أساقفة الغرب الذين يقفون صفاً

(١٨) Neander, Christian religion and church, IV pp. 7-78.

(١٩) BASIL, epp. LVII, LXVII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI.

(٢٠) BASIL. ep LXVI.

واحداً وراء أثناسيوس يؤيدون باولينوس إلى أن يحذو حذوه، فإذا أقدم الأسقف السكندرى على ذلك تبعه الغرب دون عناء"(٢١).

ويبدو أن المراسلات كانت دائرة بين أثناسيوس وأساقفة الغرب حول هذه المشكلة، وأن الأسقف السكندرى كان يطلع صديقه الكبادوكى أولا بأول على فحوى هذه الرسائل، وذلك نعلمه من رسالة بعث بها باسل إلى أساقفة الغرب جميعاً يطلعهم فيها على وجهة نظره حول الشقاق الأنطاكى، وعلى تبادل الآراء بينه وبين الإسكندرية(٢٢). ولم يلبث أن كتب فى صراحة تامة إلى أثناسيوس يطلب إليه أن يبعث إلى أسقف روما يخبره بهذه الأحداث التى يتعرض لها النيقيون فى الشرق على يد الإمبراطور فالنز، وكذلك المشكلة الأنطاكية التى تزداد سوءاً بمرور الزمن(٢٣). ولما لم تعد الرسائل وحدها بين الرجلين كافية ، أرسل أثناسيوس أحد رجال أكليروسه ويدعى بطرس، وهو الذى أصبح أسقفاً للإسكندرية من بعد، حيث استقبله باسل بما يليق بمكانة صديقه السكندرى، ورد الأسقف الكبادوكى على ذلك بإرسال شماسه الأنطاكى دوروثيوس Dorothius ليعرض عليه حقيقة النزاع الأنطاكى بكل جوانبه، راجياً التدخل لإنهائه بما يحقق صالح النيقية بعد أن اشتدت أزمة الاضطهاد من جانب فالنز (٢٤).

وتحدد هذه الرسائل الفترة الواقعة بين السنوات الأخيرة من ستينيات القرن الرابع والعامين الأولين من سبعينياته، وفى العالم التالى مات أثناسيوس (٣٧٣) دون أن يتحول قيد أنملة عن تأييده لليوستاثيين وزعيمهم باولينوس، وأورث الغرب قبل وفاته هذا التأييد، وكان بالأحرى قد أورثه لخلفائه على كرسى الإسكندرية، ومن ثم لم يكتب للمشكلة الأنطاكية أن تنتهى على المدى القريب، وظلت الإسكندرية والغرب يقفان فى جانب، وأساقفة كبادوكيا يناصرهم نفر من إكليروس الشرق فى الجانب

(٢١) BASIL, ep. LXVII للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث جميعها راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، الفصل العاشر.

(٢٢) BASIL. ep. XCI.

(٢٣) BASIL. ep. LXIX.

(٢٤) Id.

الآخر إزاء الانشقاق النيقى فى أنطاكية، حتى بعد أن انتهت السيادة الآريوسية فى الإمبراطورية. وزاد من تأصيل هذا الاتجاه فى الغرب وجود بطرس السكندرى هناك فى ضيافة الأسقف الرومانى، وذلك بعد أن فر من الإسكندرية وراح يوحى إلى أسقف روما وأكليروس الغرب، متأثراً بسلفه وأستاذه، بضرورة البقاء على تأييدهم لباولينوس، واعتبار مليتيوس خارجاً عن الإيمان القويم.

وقد ظهرت آثار ذلك واضحة عندما عاد الكاهن الأنطاكى إيفاجريوس Evagrius من روما فى أوائل عام ٣٧٤، وأعلن على الفور دخوله فى شركة باولينوس ورفض الاعتراف بمليتيوس(٢٥). ولم يلبث باسل الكبادوكى أن كتب إلى أساقفة غالة وإيطاليا يوضح لهم ما تلقاه الكنائس الشرقية من عنت على يد الآريوسيين، ويطلب إليهم النظر بعين العقل والحكمة فيما يتعلق بالمسألة الأنطاكية والموقف فى الشرق بصفة عامة، وحمل هذه الرسالة دوروثيوس الأنطاكى(٢٦). وقد صادف هذه البعثة عقد مجمع فى روما ترأسه الأسقف الرومانى داماسوس، وقد أجاب المجمع نداء باسل وأساقفة الشرق بصفة عامة وأصدر قراره بإدانة أبوليناريوس أسقف اللاذقية(٢٧).

وكان ذلك مشجعاً لباسل كى يكتب من جديد إلى أساقفة الغرب يشكر لهم هذا الموقف، ويصر على إعلان تأييدهم لمليتيوس الأنطاكى، وصرح جهاراً فى رسالته بإدانة باولينوس(٢٨). وكان داماسوس قد دعا أيضاً إلى عقد مجمع محلى فى روما آنذاك (٣٧٦). وما أن قرئت رسالة باسل فى المجمع، حتى أعلن بطرس السكندرى أحد شهود المجمع، رفضه لما جاء فيها خاصاً بباولينوس، وخلع الإدانة على مليتيوس، مما دفع دوروثيوس المندوب الأنطاكى الذى كان يحمل رسالة باسل، إلى أن يرد على هذه الاتهامات، فأعلن المجمع تأييده الكامل لباولينوس وإدانته لمليتيوس، وأعاد من جديد إدانة أبوليناريوس، وكذا فيتاليس Vitalis الذى

---

(٢٥) BASIL. epp. CXXXVIII; CLVI.

(٢٦) BASIL. ep. CCXXXIX

(٢٧) Hefele, op, cit. II, p. 289.

(٢٨) BASIL. ep. CCLXIII.

كان أحد أتباعه[٢٩]. والذى انتهز فرصة وفاة يوزيوس الآريوسى أسقف أنطاكية، ليعلن نفسه أسقفا للمدينة، رغم اختيار دوروثيوس أسقفا لها. وهكذا أصبح كرسى أنطاكية الأسقفى يحتله أربعة أساقفة، باولينوس اليوستاتى، ودوروثيوس، وفيتاليس الأبوللينارى، بالإضافة إلى مليتيوس زعيم النيقيين المعتدلين، والذى كان ما يزال فى منفاه.

وبمقتل فالنز عام ٣٧٨ وصدور مرسوم التسامح الجراتيانى، عاد مليتيوس إلى أنطاكية ليجد المشكلة قد تفاقمت وازداد الشقاق. ويتفق مؤرخو الكنيسة جميعهم على أن اتفاقاً جرى عقده بين مليتيوس وباولينوس بحضور الأساقفة الذين لهم حق الترشيح للأسقفية فى أنطاكية، وكان من بينهم فلافيانوس Flavianus الذى اختير أسقفاً بعد وفاة مليتيوس. وقضى هذا الاتفاق بأن لا يحاول أحد من هؤلاء المرشحين اعتلاء كرسى الأسقفية فى حياة الرجلين، مليتيوس وباولينوس. وأن لا يقدم أحد على ذلك إلا بعد وفاتهما [٣٠]. غيرأن هذا الاتفاق لم يرع من جانب أحد ممن وقعوا عليه، كما ستوضح مجريات الأمور.

ويحاول بعض المؤرخين(٣١) أن يتخذ من مرسومى ثيودوسيوس اللذين أصدرهما فى ٢٨ فبراير سنة ٣٨٠، و١٠ يناير ٣٨١ دلالة على وقوعه تحت تأثير الغرب فى موقفه من المشكلة الأنطاكية، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علاته؛ ذلك أن المرسوم الأول صدر والإمبراطور بعد فى سالونيك، وجاء فيه أن الإيمان الحق هو ما دان به بطرس أمير الرسل وبه بشر، والذى يؤمن به الآن داموسوس أسقف روما وبطرس أسقف الإسكندرية (٣٢). ومن الملاحظ

(٢٩) SOZOM. Hist. Eccl. VI 25; THEOD. Hist. Eccl. V. 16.

(٣٠) SOCRAT. Hist. Eccl. V 5; SOZOM. Hist. Eccl. VII 3; THEOD. Hist. Eccl. V 3.

وقارن: أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ص ٢٥٣ حيث ينفى اعتمادا على كافاليرا فى كتابه الشقاق الانطاكى ما يذكره مؤرخو الكنيسة من أنه تم الاتفاق بين الرجلين على رئاسة مزدوجة للكنيسة طيلة حياتهما، على أن تصبح هناك رئاسة موجدة بعد وفاتهما أو وفاة أحدهما. لكن هذا الرأى لا تؤيده المصادر، ولا حتى الأحداث التى وقعت بعد ذلك فى مجمع القسطنطينية المسكونى سنة ٣٨١.

(٣١) أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ٢٥٤.

(٣٢) Cavalerra, schisme d' Antioche.

على هذا المرسوم أنه تضمن أسقفيتى روما والإسكندرية فقط. ولمن يكن بمقدور الإمبراطور أن يضيف إليهما أية أسقفية أخرى، فالقسطنطينية تخضع لديموفيلوس، وأنطاكية لدروثيوس، وكلاهما على الأريوسية. وهما الأسقفان الشرعيان من وجهة النظر الرسمية. إذن فلم يكن هناك مجال لذكر أنطاكية أو باولينوس أوميليتيوس. وعليه لا يمكن أن نفسر خلفية هذا المرسوم بأنه انحياز لباولينوس الذى تؤيده الإسكندرية ومن ورائها روما والغرب. ولا يمكن أيضاً أن يعد المرسوم الثانى الذى صدر بعد دخوله القسطنطينية بشهرين تقريباً، تراجعاً عن هذا الموقف المؤيد لباولينوس حسب اعتقاد البعض، وانتصاراً لميلتيوس، "بعد أن تأكد لدى الإمبراطور أن نجاح سياسته الدينية يتوقف على تأييد هذه الجماعة". ذلك أن المرسوم الثانى جاء عاماً ومؤيداً للمرسوم الأول، حيث أعلن أن لقب الكنيسة الجامعة سوف يقتصر فقط على أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة النيقية، أما الخارجون عن هذه العقيدة فسوف يلقون الاحتقار والازدراء، وسوف يعرضون أنفسهم لعذاب أليم(٣٣) وكان هذا أمرا طبيعياً بعد أن أعلن الإمبراطور صراحة تأييده للنيقية، وبعد أن دعا إليه أسقف القسطنطينية الآريوسى ديموفيلوس، وعرض عليه الدخول فى شركة النيقيين أو تسليم الكنائس التى بأيدى أتباعه، مما اضطر الأسقف الآريوسى إلى الارتحال هو ورعيته إلى خارج أسوار العاصمة، ولم يلبث الإمبراطور أن وجه الدعوة إلى عموم الأساقفة فى الكنائس الواقعة فى أقاليم سيادته لعقد مجمع القسطنطينية.

ومن الواضح أن الأحداث التى سبقت انعقاد المجمع، قد تركت آثارها واضحة على المواقف المختلفة لأعضائه. فلا شك أن الإسكندرية أغضبها خيبة الأمل التى منيت بها من جراء الإطاحة بمرشحها لأسقفية العاصمة ماكسيموس الكلبى، وآلمها أن ترى أسقف مدينة صغيرة فى آسيا الصغرى يعتلى كرسى القسطنطينية الأسقفى، ومن ثم كان لابد لها أن تحقق لنفسها ما تبتغى، وأن تسعى إلى ذلك ما وسعتها السبل. وزاد الأمر سوءا أن مليتيوس الأنطاكى، أسقف الاكثرية النيقية المعتدلة هو الذى حضر المجمع ممثلاً لأنطاكية، وهو الذى تولى رسامة جريجورى النازيانزى وهو الذى ترأس المجمع، لذا ما لبثت المشكلة

---

(٣٣) SOZOM. Hist. Eccl. VII 4.

الأنطاكية أن سيطرت على جلسات المجمع، وانتقلت إليه عدوى الشقاق الحادث فى أنطاكية، عندما مات مليتيوس أثناء انعقاد المجمع.

رأى جريجورى النازيانزى الذى تولى رئاسة المجمع بعد وفاة مليتيوس، أن يحافظ على الاتفاق الذى تم بين مليتيوس وباولينوس عقب عودة الأول من المنفى، وكان هذا يمثل الطريق الوحيد لرأب هذا الصدع، وهو يعنى أن يصبح باولينوس الآن الأسقف النيقى الوحيد الذى يتولى رعاية الجماعة النيقية فى أنطاكية.

لكن هذا الاتجاه لقى معارضة من جانب مجموعتين متباعدتين تماماً.. المجموعة الأولى يمثلها صغار أساقفة الشرق ويعضدهم بعض الشيوخ، بحجة أن انفراد باولينوس بالأسقفية يمثل انتصاراً لأساقفة الغرب ومن قبلهم الكنيسة السكندرية، ونزولاً من الأساقفة الشرقيين عند رأى زملائهم أكليروس الغرب(٣٤). والمجموعة الثانية يتزعمها الأسقف السكندرى، على الرغم من أن هذا الموقف من جانب جريجورى يعتبر تأييداً لوجهة النظر السكندرية، إلا أن اعتراض الوفد السكندرى كان نابعاً من أن مليتيوس وشيعته قد رسموا أو عُمدوا على يد الآريوسيين، وأنهم سمحوا بدخول أكاكيوس القيسارى وأتباعه، الآريوسيين الهومويين، فى شركتهم، ومن ثم لا يمكن قبولهم ضمن دائرة الإيمان النيقى الأصيل. لكن الحقيقة التى تتراءى لنا أن الإسكندرية كانت تخشى ما سوف يحدث مستقبلاً بعد وفاة باولينوس الذى تقدم به العمر، وهو أن النيقيين المعتدلين الذين يمثلون الأغلبية، وتضيع فى وسطهم النيقية اليوستاتية، بدخول أتباع مليتيوس فى شركة باولينوس، سوف يصبح لهم الصوت الأعلى واليد الطولى بعد ذلك فى اختيار أسقف جديد واحد للبيعة الأنطاكية، وهذا ليس فى صالح الإسكندرية التى تريد دوما وجود أنصار لها فى أنطاكية، كما هو حادث فى القسطنطينية، ولهذا فإن الإسكندرية دون شك تتحمل مسئولية كبيرة فى امتداد أمر الشقاق الأنطاكى من بعد سنين عدداً، لأن موافقة الإسكندرية كانت تعنى موافقة روما والغرب على هذا الإجراء.

---

(٣٤) SOZOM. hist. eccl VII 4.
SOZOM. hist. eccl. VII 4; Hefele, op. cit. II p. 346.
SOZOM. hist. eccl V 9; SOZOM. hist. eccl VII 11;

ولا ريب أن الأنطاكيين أنفسهم يتحملون أيضاً جزءاً من مسئولية استفحال هذا الشقاق، ذلك أنهم أقدموا على الفور، عقب معرفتهم بوفاة مليتيوس، باختيار فلافيان أحد أنصاره أسقفاً للمدينة، ضاربين عرض الحائط بما تم اقراره من قبل بين باولينوس ومليتيوس [٣٥]، رغم أن فلافيانوس نفسه الذى تم اختياره، كان أحد شهود هذا الاتفاق، ولقى الأنطاكيون، أو بتعبير أدق، النيقيون المعتدلون، فى انقسام المجمع المسكونى الثانى على نفسه إزاء ذلك فرصة لتحقيق هدفهم، بالإضافة إلى التأييد الذى لقيوه من جانب عدد من أساقفة المجمع. ولا تفوت هذه الأحداث على عينى المؤرخ الكنسى الناقد سقراط دون تعليق، حيث يقول "أن هذا الشقاق لم يكن راجعاً إلى خلاف فى المعتقد بقدر ما كان ناتجاً ببساطة عن الأهواء الشخصية"[٣٦].

وقد علمنا أن مجمع روما الذى عقد فى سنة ٣٨٢، قد رفض فى حضرة رسل الشرق الاعتراف برسامة فلافيانوس، وأعلن إدانته وحرمانه وكذا ديودوروس الطرسوسى وأكاكيوس الحلبى لقيامهما بسيامته، هذا على الرغم من أن مجمع القسطنطينية المنعقد فى نفس العام قد أقر شرعيته اختيار فلافيانوس. ولم يلبث الإمبراطور ثيودوسيوس أن دعا لعقد مجمع ثالث فى القسطنطينية فى العام التالى (٣٨٣) على التوالى، كان من بين ما ناقشه من قضايا، الشقاق الحادث فى أنطاكية. غير أن المجمع لم يسفر عن شيء فى النهاية إلا زيادة الانقسام بين الكنائس المختلفة في الشطر الشرقى من الإمبراطورية، ذلك أن كنيسة الإسكندرية بقيت على موقفها المؤيد لباولينوس، يناصرها كنائس قبرص والعربية Arabia بينما راحت كنائس فلسطين وفينيقيا وسوريا والجزء الأكبر من أرمينيا، وكبادوكيا وغلاطية وبونطس تؤيد فلافيانوس[٣٧].

ولم يكن موت باولينوس عام ٣٨٨ – على حد قول ثيودوريتوس[٣٨] – كافياً للقضاء على شعور الكراهية والحقد الكامنين فى نفس كل من الفريقين تجاه

(٣٥) THEOD. hist. eccl. V 23.
(٣٦) SOCRAT. hist. eccl. V 9.
(٣٧) SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist, eccl. VII 11.
(٣٨) THEOD. hist. eccl. V 23

بعضهما البعض، وساعد على ذلك موقف باولينوس نفسه، ذلك أنه عندما حضرته الوفاة أقدم على انتهاك القانون الكنسى الذى يحرم اختيار الأسقف لخليفته [٣٩]. واختار أحد قسيسيه ويدعى إفاجريوس Evagrius خلفاً له فزاد هذا الإجراء الأمر تعقيداً، واستمر الشقاق قائماً، وسلك كل من الفريقين الآن سبيلاً جديداً بالتقرب إلى الإمبراطور، ومحاولة كل منهما إيغار صدر ثيودوسيوس على الفريق الآخر، وكسب تأييده وضمه إلى صفه. ولما كان الإمبراطور يقيم الآن فى الغرب بعد انتصاره على ماكسيموس، فقد أوعز إليه أسقفاً روما وميلانو أن يدعو فلافيا للالتقاء بافاجريوس فى الغرب لحسم هذا النزاع، وإيماناً منهما بأن الإمبراطور لابد أن يحقق لهما بغيتهما، خاصة أمبروز بعد ما كان من موقفه من الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك[٤٠]. وقد طلب الإمبراطور بالفعل من فلافيانوس الارتحال إلى الغرب لبحث مسألة الشقاق الأنطاكى هناك، وفى سبيل ذلك جرت الاستعدادات لعقد مجمع فى كابوا سنة ٣٩١، وتحمس له الأسقف الميلانى بصفة خاصة، غير أن فلافيان أبى أن يعاد النظر من جديد فى أمر شرعية اختياره للأسقفية، واعتذر للإمبراطور بالشتاء القارص، ووعد بالذهاب عندما يأتى الربيع، فقبل منه ثيودوسيوس ذلك[٤١]. وكان طبيعياً أن يفشل مجمع كابوا فى مهمته فى غياب زعيمى الفريقين المتصارعين.

---

(٣٩) Id.

(٤٠) انظر الفصل الخامس.

(٤١) يذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور أعاد تحت تأثير أسقف روما تجديد أوامره إلى فلافيانوس بالارتحال إلى الغرب، وحاول إكراهه على ذلك، وأمام هذا أعلن فلافيانوس تحديه لأسقف روما، وطلب إلى الإمبراطور عقد محكمة أكليروسية لمحاكمته، إذا كان أحد يستطيع أن يتهمه فى دينه أو شخصه، أما إذا كانت المسألة تتعلق فقط بحسده على بلوغه هذا المنصب، فإنه سوف يتخلى عن منصبه تاركاً للإمبراطور مهمة اختيار الشخص المناسب، فلم يكن من الإمبراطور إلا احترام شجاعة فلافيانوس، وابقاه على اسقفيته مكرماً. وأعلن أمام لجاجة روما باتخاذ موقف ضد فلافيانوس، أنه يحمى الأسقف الأنطاكى الشرعى فلافيانوس، ودعا الأكليروس فى الغرب أن لا يدع الخلافات الشخصية تحكم علاقاتهم الكنسية. انظر THEOD. hist. eccl. V 23;
SOCRAT. hist. ecvc; . V 15; SOZOM. hist. eccl; VII 15;
و RVFIN. Hist. eccl. II 21-24.

ويبدو أن الغرب قد اقتنع فى النهاية أنه لا قبل له بمثل هذه الخلافات الحادثة فى الشرق، والتى أرهقته من أمره عسرا، ولذا فقد اتفق أمبروز الأسقف الميلانى، مع أسقف روما على أن يكلا إلى أسقف الأسكندرية ثيوفيلوس Theophilus، الذى خلف تيموثى عام ٣٨٥، التصرف فى هذا الأمر حسبما يرى. ودارت المراسلات بين أمبروز وسيريقيوس Siricius أسقف روما، وهذا والأسقف السكندرى حول هذا الشأن، وسعى فلافيانوس من جانبه أيضاً لدرء هذا النزاع، فراح يكاتب كلا من أسقف روما والأسقف السكندرى، موضحاً لهما حقيقة موقفه وشرعية اختياره، وقد آتت هذه المحاولات أكلها، فالتأم عقد مجمع محلى فى قيسارية فلسطين فى عام ٣٩٢ لبحث هذه المشكلة، واعترف المجمع بأسقفية واحدة لأنطاكية تحت رعاية فلافيانوس. ويبدو أن الذى ساعد على ذلك هو وفاة افاجريوس اليوستاتى، مما دفع الإسكندرية للتخلى عن موقفها المؤيد لليوستاتيين، هذا بالإضافة إلى أن الإمبراطور كان أيضاً قد أبدى تعاطفه مع فلافيانوس. ورغم ذلك فإن الغرب قد ظل على تردده فى الاعتراف بفلافيانوس، ولم يقبل ذلك إلا بعد سبعة عشر عاماً من اشتداد أوار الشقاق (٣٨١-٣٩٨) عندما أبدى استعداده لاستقبال الوفد أرسله الأسقف الأنطاكى برئاسة أكاكيوس أسقف حلب، وترحيبه به(٤٢). وأن كان ذلك قد تم بعد وفاة ثيودوسيوس بثلاث سنوات. لكن هذا الوفاق لم يتم بصورة حقيقية، ليس أدل على ذلك مما يذكره سقراط من أن هذه الإجراءات أدت إلى عودة الوئام الظاهرى بين هذه الكنائس وإسباغ الهدوء المشوب بالقلق فى أنطاكية(٤٣).

وقد تركت أحداث الشقاق الكنسى الأنطاكى آثارها البعيدة وبصماتها الواضحة على نفوس أهالى أنطاكية، فدفعتهم إلى حالة من التوتر كانت تبحث لنفسها عن مخرج معين تصب فيه غضبها المكبوت. وواتت الأهالى الفرصة إبان احتدام الأزمة بين فلافيانوس وباولينوس، وقبل أن يموت هذا الأخير بعام واحد. ذلك أنه فى عام ٣٨٧ كان الإمبراطور ثيودوسيوس قد راح يعد قواته لملاقاة مغتصب العرش فى الغرب ماكسيموس، واقتضت تلك الاستعدادات لإقرار الأمور

---

(٤٢) THEOD. hist. eccl. V 23.

(٤٣) SOCRAT. hist. eccl . V 15.

فى النصف الغربى، أن ترزح الولايات الشرقية فى الإمبراطورية تحت عبء الضرائب الباهظة التى فرضها ثيودوسيوس لمواجهة متطلبات الحرب الأهلية الآتية(٤٤). ومما زاد الأمر سوءاً أن الإمبراطور قد شاء وسط هذه الظروف الاحتفال بالعيد العاشر decennalia لاعتلائه العرش، وفى الوقت ذاته العيد الخامس quinquinnalia لإعلان ابنه أركاديوس Arcadius أوغسطساً(٤٥). وكان هذا أيضاً يحتم بالضرورة فرض مزيد من الضرائب لتغطية النفقات الباهظة التى تتطلبها هذه الاحتفالات، بالإضافة إلى ما يتطلبه الأمر من توزيع كميات كبيرة من الذهب على الجنود تمثل أعطيات وهبات لهم تخليداً لهاتين المناسبتين السعيدتين!!

ورغم أن أنطاكية لم تكن المدينة الوحيدة التى ابتليت بفرض هذه الضريبة الاستثنائية الباهظة، إلا أن الحالة العامة التى كان عليها الجموع في المدينة، ولفترة طويلة من الزمن، كانت سبباً فى تهيئة مواطنى أنطاكية للتمرد حتى على أى حادث عابر أو أمر بسيط. ولما لم يكن هذا الأمر بسيطاً، فقد انقلبت الحال فى المدينة إلى ثورة غارمة كان الأهالى يعبرون بها عن غيظهم المكبوت من جراء الفوضى العقيدية الحادثة فى الكنيسة والمدينة.

استدعى الشيوخ وكبار المواطنين إلى دار المحكمة، كما جرت بذلك العادة، حيث أذيع المرسوم الإمبراطورى بفرض الضريبة الاستثنائية، وقد تملك اليأس والقنوط نفوس هذا الملأ من القوم، وفعلوا ما لم يكن بمقدورهم غيره، وهو أن يقدموا احتجاجهم إلى كلسوس Celsus الحاكم العام مطالبين إياه أن ينقل إلى الإمبراطور التماسهم بتخفيف قيمة الضريبة، غير أن هذا لم يكن أمامه بحكم منصبه إلا أن يرفض الاستجابة لملتمسهم، ومن ثم لم يكن أمام شيوخ المدينة إلا الاستسلام. غير أن الجموع الحانقة لم يكن يرضيها هذا الموقف الواهن لعلية القوم، خاصة وأن العبء كله سوف يقع على كواهل هؤلاء المواطنين، وصمموا على إعلان استيائهم العام بالصورة التى تتناسب وطبيعتهم، فتجمعوا فى مظاهرة صاخبة اتجهوا بها أولاً إلى حيث يقيم أسقف الأغلبية النيقية فلافيانوس ليتدبر الأمر

(٤٤) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl . VII 23.

(٤٥) Nicene and p. n. f. III p. 145, n. 2, c. b.

مع الإمبراطور. ولا شك أن هذا التصرف في حد ذاته يوحى للوهلة الأولى بالمكانة التى كان يحتلها الأسقف النيقى المعتدل فى نفوس الجموع، أثناء صراعه مع منافسه باولينوس، الذى لم يكن قد مات بعد. إلا أن المتظاهرين لم يعثروا للأسقف على أثر، وهنا تحولت المظاهرة إلى إعصار مدمر، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، ولما لم تفلح فى الحاق الأذى بالحاكم العام الذى أعد للأمر منذ البداية عدته وأخذ حذره، صبت الجماهير الثائرة غضبها على شخص الإمبراطور ومكانته، وتمثل ذلك فى تحطيم صور ثيودوسيوس والعائلة الملكية المقامة عند دار المحكمة التى تُلى فيها المرسوم الضريبى، ثم اتجهوا إلى الميدان العام وربطوا تمثال الإمبراطور وتمثالى ابنه أركاديوس وزوجه الأولى بلاكيلا Placilla وجروهم فى شوارع المدينة وهم يوسعونهم ركلاً وتحطيماً، وراحوا يخلعون على الإمبراطور ألقاباً غاية فى السخرية[٤٦]. ويضمرون النار فى المنازل المجاورة للقصر الإمبراطورى حتى يمتد إليه الحريق تلقائياً[٤٧].

تمكنت قوات الأمن فى المدينة من استعادة السيطرة عليها وإعادة الهدوء، وأقدمت على إنزال عقاب مبدئى، وإن كان أليما، بالأهالى حتى تعيد إليهم رشدهم، فقُطعت رؤوس بعض، وأحرق بعض آخر حياً، وأدخر بعض ثالث ليلقى إلى الوحوش الضارية فى الملعب ليتسلى برؤيتهم جمهور المدينة الثائرة، عبرة لمن يعتبر، بينما أرسل الحاكم العام رسله إلى الإمبراطور تحمل إليه أنباء هذه الثورة التى شهدتها أنطاكية[٤٨]. وقد أدرك الجموع بعد هذا السكون القسرى الذى أعيدوا إليه، فداحة الأمر الذى أقدموا عليه، وذهبت بهم الظنون كل مذهب فى العقوبات التى سوف ينزلها الإمبراطور بالمدينة، ولهذا عول كثيرون منهم على الهروب فى

---

(٤٦) كان الأنطاكيون مغرمين باستخدام هذا الأسلوب الساخر دوماً مع من يصبون عليه نقمتهم، وقد تجلى هذا واضحاً فى موقفهم من الإمبراطور الوثنى جوليان عندما قدم إلى مدينتهم فى عام ٣٦٢ فى طريقه إلى الحرب الفارسية، إذ راحوا يسخرون من جهوده لإعادة الوثنية وركزوا سخريتهم على لحيته الطولية، مما دفع جوليان إلى الرد عليهم بعمل أدبى هجائى أسماه "كاره اللحية" Misopogon.

(٤٧) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٤٨) THEOD. loc. cit.

جماعات إلى خارج المدينة، وبذل الفيلسوف الوثنى العجوز ليبانيوس Libanius جهدا كبيراً فى محاولات يائسة لوقف هذا الهروب الكبير، على حين قام تلميذه يوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomus الذى كان قد رسم منذ فترة وجيزة قسيساً بيد فلافيانوس، لما توسمه فيه من فصاحة وذكاء، قام إبان فترة الصوم الكبير بإلقاء عظاته محاولاً بها انتشال رعيته من وهدة الهلع الذى رماهم به خوف العذاب. وقد بلغت فى مجموعها إحدى وعشرين عظة شكلت فى جملتها كتابه "عن التماثيل"(٤٩). هذا بينما ارتحل الأسقف فلافيانوس فى شتاء قارص البرودة إلى القسطنطينية ليتشفع لأنطاكية عند الإمبراطور(٥٠).

ولكن الإمبراطور كان قد تملكه الغضب وأخذ عليه كل سبيل، فالاعتداء على تماثيله وصوره وأسرته، تعنى الإهانة الحقيقية لشخص الجالس على العرش، وأى تسامح فى هذا المجال سوف يشجع على المزيد من التمرد والهياج، والسكوت عن هذا الذى حدث فى أنطاكية أو التساهل فيه سوف يدفع بالتالى غيرها من المناطق لإعلان راية العصيان وتحدى الأوامر الإمبراطورية بدفع هذه الضريبة الاستثنائية، والظروف السياسية التى وقعت فيها هذه الثورة لم تكن يسيرة بالنسبة لثيودوسيوس الذى كان يتجهز لملاقاة ماكسيموس وإعادة الهدوء إلى النصف الغربى من الإمبراطورية بالتحقيق الواسع والدقيق فى كل ما جرى، واقتيد بادئ ذى بدء شيوخ المدينة إلى السجن تمهيداً لمحاكمتهم.

وأذيع فى الناس مرسوم الإمبراطور بالعقوبات الأولية التى كانت تتضمن إغلاق الحمامات العامة والمسارح وميادين السباق، ومنع توزيع القمح على العامة، وتجريد المدينة من مكانتها كعاصمة إقليمية، وإنزالها إلى مرتبة القرية وجعلها تابعة إدارياً لمنافستها القديمة اللاذقية، وكان هذا إمعاناً فى إذلال أهالى أنطاكية(٥١). ويذكر ثيودوريتوس أن الأوامر الإمبراطورية هذه لم تنفذ استناداً لما صدر عقب مذبحة سالونيك بناء على نصائح الأسقف الميلانى، أمبروز، والتى تنص على عدم

(٤٩) C. M. H. I p. 241. وأيضاً : داونى ، أنطاكية، ص ٢٠٢-٢٠٤،
(٥٠) SOZOM. hist. eccl. VII 23.
(٥١) THEOD. hist. eccl. V 19.

تنفيذ أى عقوبة إمبراطورية إلا بعد مرور ثلاثين يوماً على إصدار القرار الخاص بها(٥٢).. ولكن الأمور اختلطت على ثيودوريتوس، ذلك أن مذبحة سالونيك وقعت بعد فتنة أنطاكية بثلاث سنوات.

ومع أن حرمان المواطنين من ارتياد المسارح وحلبات السباق كان يشكل لهم ألماً بالغاً، وتلك كانت سمة المواطنين فى معظم مدن الإمبراطورية عامة، إلا أن تحطيم كبرياء أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق، كان يعد صفعة قوية لشيوخ المدينة وجموعها على السواء، ولعل هذا يتضح جلياً فى أن يوحنا ذهبى الفم قد خصص العظة السابعة عشرة من عظاته للحديث عن هذه الناحية ، إذ راح يواسى الجموع قائلاً :

"هل تحزنون لأن عزة المدينة قد ولت؟ تعلموا معنى عزة المدينة ومن ثم توقنون بوضوح، بأنه ما لم يخن المدينة أهلها أنفسهم فلن تستطيع أية فئة أخرى أن تسلبها عزتها. إن عزة المدينة لا تكمن فى كونها عاصمة ولا فى أبنيتها الكبيرة الجميلة، ولا فى أعمدتها الكثيرة وأروقتها الواسعة وممراتها، ولا فى أنها تذكر فى المراسم قبل غيرها من المدن، ولكنها تكمن فى فضيلة أهلها وورعهم، هذه هى عزة المدنية وحليتها وحصانتها، لأنه إذا لم تكن هذه الأمور موجودة فيها فإنها تصبح من أتفه المدن فى العالم، حتى ولو كانت تتمتع بحظوة الأباطرة المطلقة"(٥٣).

ولما كان عمال الإمبراطور جادين فى التحقيق الذى أرسلوا من أجله، فقد انتزعت الاعترافات من الناس انتزاعاً باستخدام أقسى وسائل التعذيب، إلى الحد الذى دفع أحد الرهبان ويدعى ماكيدونيوس أن يجهر بامتعاضه واشمئزاز لهذا الأسلوب العنيف الذى يتبعه المحققون الإمبراطوريون، مخاطباً إياهم "أبلغوا الإمبراطور أنه ليس إمبراطوراً فحسب، بل إنساناً أيضاً، ولما كان الله قد خلق الإنسان على صورته، فإن الإمبراطور بهذه الفعال سوف ينتهك صورة الله ويغضب الصانع، وإذا كان هذا كله يجرى لأجل تمثال من البرونز يمكن أن يصنع منه المئات، فإن

---

(٥٢) انظر Id وراجع الفصل الخامس.

(٥٣) دوانى: أنطاكية، ص٢٠٩.

الإمبراطور لا يستطيع أن ينبت شعره واحدة فى رأس إنسان"(٥٤). غير أن هذا ما كان ليوقف لجنة التحقيق عن مباشرة عملها، لترفع تقريرها إلى ثيودوسيوس حتى يمكنه بناء على ما توفر لديه من أدلة، أصدار أحكامه ضد المواطنين.

وكان فلافيانوس قد جاء الآن إلى القسطنطينية، وتمكن من لقاء الإمبراطور الذى يبدو أنه كان ما يزال على سخطه لهذا الذى حدث، ولكن الأسقف الأنطاكى ظلا يتوسل إلى ثيودوسيوس ليذهب عنه الروع ويجادله فى قوم أنطاكية. ولما كان الإمبراطور يبدى – كما يظهر من سيرته – احترامه وتقديره لرجال الدين، فقد قدر لفلافيانوس ارتحاله وهو يحمل على كتفيه هذا العمر الطويل من أنطاكية إلى القسطنطينية، فأظهر لين جانب، ثم ما لبث أن أصدر عفوه العام عن المدينة استجابة لتوسلات فلافيانوس(٥٥). ولعل الإمبراطور قد اكتفى بما أنزله الحاكم العام بالمدينة من إعدام واحراق وسجن عدد من المواطنين، وكذا ما فعله رسله الذين بعث بعم لمباشرة التحقيق، بحيث رأى فى هذه الإجراءات الصارمة ما يكفى لردع الأنطاكيين، وهذا واضح مما يذكره المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس فى هذا الصدد(٥٦).

ولا ريب أن هذه الأحداث، وسفارة فلافيانوس إلى ثيودوسيوس، كانت من بين أسباب التقارب الذى حدث بين الإمبراطور والأسقف الأنطاكى، والذى ظهر خلال الأعوام الثلاثة التالية، عندما وقف الإمبراطور إلى جوار فلافيانوس ولم يكرهه على الارتحال إلى الغرب للمثول أمام المجمع الذى كان مزمعاً عقده فى كابوا – كما قدمنا – حسبما كان يبتغى أسقفا روما وميلانو. كما أن هذه الأحداث قد كشفت لثيودوسيوس عن الاتجاه العام للأنطاكيين إزاء الشقاق الكنسى الواقع بينهم، واعترافهم بشرعية فلافيانوس واختياره ممثلاً لهم لدى السلطات الإمبراطورية.

---

(٥٤) THEOD. hist. eccl V 19.

(٥٥) يقول سوزومنوس إن الأسقف فلافيانوس عندما وصل إلى القسطنطينية، وجد أن الإمبراطور ما زال ثائراً يتميز من الغيظ لما حدث فى أنطاكية، فلجأ إلى وسيلة معينة هى الاستعانة بعدد من المنشدين الذين اعتادوا الانشاد على مائدة الإمبراطور، كى يقدموا ترانيم الأنطاكيين وصلواتهم وتوسلاتهم أمام الإمبراطور، فما أن سمع ثيودوسيوس ذلك حتى انهمرت الدموع من مآقية وأصدر عفوه عن المدينة!! انظر: SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٥٦) THEOD. hist. eccl. V, 19.



الفصل الرابع

المسيحية النيقية
الدين الرسمى للإمبراطورية

الفصل الرابع

المسيحية النيقية
الدين الرسمى للإمبراطورية

لم يكن بمقدور جراتيان، وعمه فالنز فى الشرق يحكم، أن يعلن صراحة عن اتجاهاته العقيدية، فالإمبراطور العم يدين بالآريوسية التى وجد أقاليم سيادته تؤمن بها، وجراتيان اعتلى العرش فى الغرب بعد موت أبيه، وهو غض العمر غرير، وولاياته لا تعانى شأن ولايات عمه من النزاع العقيدى بين الآريوسية والنيقية. ولذا لم يجد خيراً من السير على هدى السياسة التى رسمها أبوه من قبل، والتى تقضى بعدم التدخل فى المسائل العقيدية والمشاكل الكنسية قدر الاستطاعة، وساعده على ذلك انشغاله منذ بداية عهده بصد الجماعات الجرمانية على الراين وعند أعالى الدانوب، ومن ثم فقد حظيت المسيحية والوثنية على السواء خلال السنوات الأولى من عهده، بخيرية وسماحة الحاكم الشاب.

ولقد أدرك جراتيان عقب مقتل عمه فالنز عام ٣٧٨ وقيامه بحكم الإمبراطورية فرداً، أنه ليس من الحماقة أن يقدم على التخلى عن سياسة التسامح التى اتبعها طيلة ثلاث سنوات سوياً، ومن قبل أبوه، فى وقت يعلم أن جل كنائس الشرق تخضع للآريوسيين، وهو ليس على استعداد لأن يثير ثائرة هذه الولايات الشرقية بينما يخلو عرش القسطنطينية من إمبراطور، ولهذا أصدر على الفور من سيرميوم مرسوماً عاماً يقضى بالتسامح، وأن تمارس كل الفرق المختلفة طقوسها فى كنائسها دون تمييز[١]. ولكنه فى الوقت ذاته أرسل إلى أمبروز أسقف ميلانو يطلب إليه أن يعد له رسالة عن الإيمان تهديه سواء السبيل[٢]، وعلى الفور عكف أمبروز على إعداد هذا العمل، والأمل يحدوه أن يضم إلى قضية النيقية الإمبراطور الشاب الذى يسيطر الآن على الإمبراطورية بشطريها، إذا استثنينا تلك المشاركة الواهنة لأخيه الطفل فالنتينيان الثانى، خاصة وأن أسقف ميلانو كان

---

(١) SOCART. hist. eccl. V 2.

(٢) AMB. de fide I 3.

يحمل فى نفسه الكراهية والمقت الشديدين للآريوسية وإمبراطورها الراحل فالنز. ولم يلبث جراتيان أن استدعى إليه فى العام التالى، وهو فى طريق عودته من تراقيا، أمبروز ليتسلم منه رسالة الإيمان. ولما كان قد أصدر فى يناير من هذا العام مرسومه بتعيين ثيودوسيوس إمبراطورا فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، ولما كان الأسقف الميلانى قد قد ترك تأثيره واضحاً فى نفس جراتيان، فقد أقدم هذا دون توان على إلغاء مرسوم التسامح السابق الذى أقره فى العام الماضى، وأصدر مرسوماً جديداً يقضى بعودة جميع الأساقفة الذين نفاهم فالنز من قبل إلى بيعهم ثانية، وحرم كل الفرق المسيحية غير النيقية ممارسة طقوسها، وخص منهم بالذات اليونومويين Eunomions أو الأنومويين، أتباع يونوميوس الذين يمثلون الآريوسية المتطرفة، والمانويين Manichoean وأنصار فوطين Photinians وأرسل على الفور رسله لطرد الآريوسيين من الكنائس(٣).

وكان أول تطبيق عملى لهذه القرارات فى روما نفسها، على الرغم من أن الخلاف الذى كان قائماً فيها لم يتعد شقاقاً كنسياً وليس خلافاً عقائدياً، ذلك أن الأكليروس هناك انقسم على نفسه عقب وفاة ليبيريوس أسقف روما سنة ٣٦٦، فأعلن داماسوس الأول أسقفاً خلفاً، إلا أن فريقاً من المعارضين اختاروا للأسقفية أورسنيوس Ursenius وظل الصراع بين الرجلين قائماً لفترة طويلة. وقد تشجع داماسوس وأنصاره بمرسوم جراتيان، وكانت لهم الأغلبية، وان لم يكن منافسوهم قلة، فعقدوا المجمع الرومانى الرابع تحت رئاسة داماسوس، حضره، أمبروز، وطلبوا إلى الإمبراطور أن يكلف النائب الإمبراطورى وموظفيه بالقبض على خصومهم وعزلهم عن كنائسهم. ورغم أن جراتيان قد أظهر تردداً فى بادئ الأمر

---

(٣) SOCRAT. Hist eccl. V 2; SOZOM. Hist eccl. VII 1; RVFIN. Hist. Ecc; II 13; THEOD. Hist. Eccl. V 1, 2.

وكان فوطينن شماساً لماركللوس أسقف أنقرة، واعتنق آراء أستاذه وتطرف بها وأصبح أسقفاً لسيرميوم (٣٤٠-٣٥١) وجهر بالقول بأن الابن استمد وجوده من مريم العذراء، وأنه محض إنسان، وأنكر وجوده قبل كل الدهور حسب قاعدة الإيمان النيقى. وقد أدين فى مجمعى سيرميوم الأول سنة ٣٤٧ وسيرميوم الثانى سنة ٣٥١ حيث عزل من أسقفيته. راجع للمؤلف: الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص١٩١-١٩٢، ٢٥٤، ٢٥٥.

خشية إحداث الاضطرابات والفوضى فى روما، إلا أنه لم يلبث أن أقدم على إجابة ملتمس داماسوس وحزبه، وأمر بأن يدخل الجميع هناك فى شركة داماسوس(٤). وأعاد المجمع من جديد التأكيد على حرمان الفرق التى شملها مرسوم جراتيان من ممارسة طقوسهم الكنسية وتجريدهم من وظائفهم الكهنوتية، وأضاف إليهم الماكيدونيين والأبوللينارين(٥).

وعلى امتداد الأعوام الثلاثة الأخيرة (٣٨١-٣٨٣) من حياة جراتيان، حرص الإمبراطور على أن يتردد بانتظام على ميلانو ويقيم فيها بعض الوقت، حيث كان أمبروز قد انتهى من وضع الكتب الثلاثة الباقية من رسالته عن الإيمان De Fide، وراحت حماسة جراتيان الدينية وتعلقه بالنيقية تزداد بصفة مستمرة وذلك بتأثير الأسقف الميلانى، وفى الوقت ذاته كان ثيودوسيوس قد أقدم على اتباع السياسة نفسها فى أقاليمه الشرقية، فأصدر مرسوميه المتتاليين فى فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١ باعتبار النيقية العقيدة الرسمية، وجاء الإعلان عن ذلك بصفة جماعية فى الشرق والغرب فى مجمع القسطنطينية المسكونى فى ربيع ذلك العام، ومجمع أكويليا المنعقد فى صيف العام نفسه. بل إن أمبروز وقد اطمأن إلى أن نجم النيقية آخذ الآن فى الصعود، لم يتوان عن رسم أحد خلصائه وهو أنيميوس Anemius أسقفاً لمدينة سيرميوم، والتى كانت تعد مركزاً رئيسياً للآريوسيين ممثلين فى الفوطينيين.

والحقيقة أن شخصية أمبروز قد فرضت نفسها تماماً على هذه الفترة من أخريات القرن الرابع الميلادى. وساعده على ذلك عاملان، أولهما يختص بالأسقف نفسه، والثانى هيأته له الظروف السياسية والكنسية القائمة آنذاك، حتى قال عنه أحد المؤرخين "إنه يمثل فى كثير من الجوانب وبكثير من المفاهيم نموذجاً حياً يجمع فى شخصيته الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة فى الربع الأخير من القرن الرابع(٦). ولما كان حاكماً مدنياً قبل اعتلائه كرسى الأسقفية، نفقد امتزجت عنده بشكل كبير الوظيفة الرعوية بشقيها الزمنى والدينى، وإذا كان قد عكف على

---

(٤) THEOD. hist. eccl . V 2.

(٥) Ibid. 11.

(٦) Chadwickk, op. cit. p. 167.

الدراسات القانونية أثناء مراحله التعليمية حتى حقق فى ذلك نجاحاً كبيراً وذاع صيته، وقاده ذلك إلى أن يصبح حاكماً على ليجوريا وإيميليا، فإنه صرف همه وجهده بعد ترسيمه أسقفاً إلى دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة خاصة الآباء اليونان. والواقع أن الآباء اللاتين باستثناء أوغسطين، لم يكونوا دارسين متعمقين أو مفكرين ميتافيزيقيين، ولهذا كانوا تلاميذ اليونان فى المسائل اللاهوتية، واقتصر نشاطهم على جعل التراث الفكرى الذى أنتجه الشرق المسيحى فى متناول العالم اللاتينى، ومع هذا فإنهم كانوا أيضاً فى الوقت ذاته ورثة التراث الغربى، فربطوا بين معارفهم الجديدة والقوة الخلقية وروح النظام، وهى النواحى التى ميزت الكنيسة اللاتينية واكسبتها طابعها الخاص. من ثم كان اهتمامهم بالمسائل اللاهوتية ثانوياً دائماً بالقياس إلى إخلاصهم للتقاليد الكنسية وحرصهم على الوحدة الكاثولويكية[٧]. ويتمثل هذا أيضاً بصورة واضحة فى أمبروز فقد شغلته مشاكل رعاية أسقفيته إلى الحد الذى لم يتح له أن يترك عملاً ضخماً فى المسائل اللاهوتية، إذا استثنينا رسالته عن الإيمان المسيحى، على الرغم من أنه على قدر كبير من الثقافة والمعرفة [٨]. بينما حرص على أن يضع مؤلفاً "عن وظائف الأكليروس"[٩]. De officiis ministrorum يقول فى مقدمته: "عندما تركت منصة الحكم لأتسلم رداء الكهانة، فقد رحت أتعلم ما لم أتعلمه من قبل، وكانت النتيجة أنه يجب على الآن أن أتعلم وأعلم فى آن واحد [١٠].

ولقد شارك أمبروز بهذا الكتاب فى الاتجاه الرومانى إزاء الفلسفة، بمعنى الاهتمام بالنواحى الخلقية والعملية، وتأثر إلى حد كبير جداً فى هذا المؤلف بما وضعه من قبل المفكر الرومانى الأشهر شيشرون Cicero تحت نفس العنوان[١١].

---

(٧) دوسن : تكوين أوروبا.. ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور سعيد عاشور، ص٤٩.

(٨) Rand, op, cit. p. 77.

(٩) AMB. de off. minis. I –III.

(١٠) AMB. Ibid. I 3.

(١١) AMB. Ibid. I 73, 83, 126, 132, 135, 138, 141, 142, 145, 175, 176, 202, 202, 219, 226, 228, 231, 231, 240, 263-264; II 22, 28, 38, 40, 43, 49, 50, 56, 60, 66, 69, 71, 73, 78, 80, 81, 88, 93, 96, 97, 102-103, 107, 109, 112, 117, 126' III 2, 9, 24, 27, 29-30, 45, 58, 59, 66, 70-71, 73, 76, 78, 80, 87, 91, 97, 124, 125, 127, 132-134.

"De officiis" ولقد وجه أمبروز عمله هذا إلى اكليروس ميلانو بصفة خاصة وتابع فيه شيشرون فى تقسيمه لكتابه ومعالجته للفضائل، وإن كانت المعالجة كلها تسودها الروح المسيحية[١٢]. وإذا كان أمبروز قو حرص فى مؤلفه على أن يبين سمو الأخلاق المسيحية على المثالية الرواقية لدى شيشرون، فإنه لم يستطع شأن جيروم، أن يهرب من التأثير الكلاسيكى، لينتهى به الأمر إلى تبنى النموذج الرواقى لشيشرون باعتباره جوهر الأخلاق المسيحية [١٣]. ومن ثم فإن أمبروز بهذا المؤلف – كما يقول كوبلستون – لم يضف شيئاً جديداً خاصاً بالأخلاقيات المسيحية، ولكن أهمية أعماله تكمن حقيقة فى تأثيرها على الفكر الذى جاء بعده وما كتبه خلفاؤه عن الأخلاقيات، حيث ظل هذا الكتاب لعدة قرون أحد المصادر الرئيسية فى هذا المجال، وعد المنبع الأساسى لدخول الأخلاقيات الرواقية فى المسيحية[١٤]. وكان أوغسطين من أول وأكثر من تأثروا بالأسقف الميلانى فى كثير من كتاباته وتفسيراته[١٥].

وفى الوقت ذاته نرى فى كتابات أمبروز اقتباسات كثيرة من الفلاسفة الإغريق سقراط وأفلاطون وأرسطو واكسنوفون والرواقيين، بل وحتى الأبيقوريين[١٦]، ومن الجدير بالملاحظة أنه كان متضلعاً من اليونانية أكثر من البلاغى الإفريقى الشهير لاكتاننتيوس Lactantius وحتى معاصره الأشهر أوغسطين، ولذا فقد كان أمبروز قارئاً متطوراً ممتاز، فقرأ لآباء الكنيسة اليونان، ليس فقط كلمنت وأوريجن السكندريين، بل أيضاً ديديموس Didymus السكندرى الضرير، ورئيس مدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع، وباسل

(١٢) Copleston, A history of philosophy, II part, I p. 15; Rand, op. cit. pp. 79-83; Laistner, op. cit. p. 52.

(١٣) Thompson, & Johnson, op. cit. p. 60.

(١٤) Copleston, op. cit. p. 51. وراجع أيضاً Thompson & Johnson, op. cit. p. 60 .

(١٥) عن تأثير أمبروز الواضح على أوغسطين راجع:

Dawson, religion and the rise of western culture, pp. 39-41; Shiel, Greek thought and the rise of Christianity, p. 48; Hughes, A history of the church, II p. 10; Bainton, history of chrristianity, I pp. 149-150; Stephenson, Mediaeval history, p. 81.

(١٦) AMB. de off. minis. I 31, 50, 132' de fide, IV.

الكبادوكى وجريجورى النيساوى وجريجورى النازيانزى، وحتى فيلون اليهودى[١٧]. ولا شك أن هذه الثقافة الواسعة والإطلاع العريض، قد أهلاه لأن يمتلك ناصية الخطابة، حتى أن أناشيده التى نظمها كانت تترك تأثيراً قويا فى نفوس الجموع المسيحية، وكان عليه من جزاء ذلك أن يواجه تهمة رماه بها الآريوسيون، من أن هذه الأناشيد بها أسرار السحر [١٨]. ومع أن أمبروز كان شديد المقت للفرق المسيحية غير النيقية، والوثنيين، وسعى جاهداً طيلة عمره الأسقفى لإعلاء شأن النيقية والقضاء على هؤلاء وأولئك، إلا أنه كان من بين الذين عرف عنهم عدم ميلهم إلى استخدام العنف ضد المخالفين، وهو فى ذلك يتبع شأن ترتوليانن ولاكتانتيوس وهيلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان ترتوليان ولاكتانتيوس وهلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان الذين يرفضون تماماً فكرة اللجوء إلى القسوة ضد الخارجين عن العقيدة[١٩].

هذه هى شخصية أمبروز فيما يتعلق بتكوينه العلمى وثقافته ورعايته لشئون الكنيسة واهتمامه بأمور إكليروسه، غير أن هذه السمات لم تكن لتصقل لو لم تجد المناخ الملائم لها متوفراً فى الظروف التى كانت تعيشها الكنيسة والدولة آنذاك، فعندما اعتلى أمبروز كرسى الأسقفية فى ميلانو كانت الساحة الكنسية قد خلت من الشخصيات القوية التى لعبت دوراً كبيراً حتى سبعينيات القرن الرابع، إما بالوفاة أو بأرذل العمر، أو بالعزل، سواء فى ذلك رجال النيقية أو الآريوسية، فأثناسيوس السكندرى كان قد مات فى العام السابق على رسامة أمبروز، بعد أن ظل قرابة نصف قرن من الزمان (٣٢٨-٣٧٣) يشغل فكر الأباطرة والأكليروس والرهبان والجموع، وأجهزة الدولة، المدنية وأحياناً العسكرية، فى شطرى الإمبراطورية،

(١٧) انظر HIER. Epp. XLIII 1; LXXXIV 9; Shiel, op. cit. p. 53; Rand, op. cit pp. 78-79; Romestin, Nicene and p.n.f. vol. X p. XV.

(١٨) Jenkins, some aspects of Medieval Latin literature (in legacy of Middle Ages), p. 155.

(١٩) Heer, The Medieval world, p. 146. ويصفه يوحنا القاشيانى بأنه "رجل الله الأشهر الذى لم يترك أبداً يد الرب، دائماً يسطع ويبرق كحجر كريم علق بأصبع الله" IOH. CASS. De incarnatione Verbi, V 25.

ولم يكن لخليفه بطرس وتيموثى أو حتى ثيوفيلوس أى حظ أو قدر من ذكائه ودهائه وجرأته وعناده. أما الكبادوكيون الثلاثة، فقد شغلوا عن هذه الصراعات بالانغماس فى الدراسات اللاهوتية، ولم يحاولوا أن يوقعوا أنفسهم فى حلبة الصراع، إلا عندما أقحم عليهم، كما حدث لباسل الكبير أسقف قيسارية على عهدى الإمبراطورين جوليان وفالنز. وفى الغرب لم يعد هناك شخصيات تعدل هوسيوس القرطبى، الملقب بأبى المجامع، والنيقى المتحمس، أو هلاريوس أسقف بواتييه. بل إن روما نفسها افتقدت بعد وفاة أسقفها يوليوس، الشخصية القوية التى يمكن أن تشارك أمبروز الدور الرئيسى على مسرح الأحداث، ولم يكن ليبريوس أو داماسوس بالذى يمكن أن يعدل كفة الأسقف الميلانى. يضاف إلى هذا أن الشقاق الذى كانت تعانى منه أسقفية روما بين داماسوس وأورسينوس لسنوات طويلة قد فت فى عضد قوة الكرسى الرومانى.

وإذا كان هذا هو حال زعماء النيقية فى الشرق والغرب، فإن الآريوسية هى الأخرى لم يعد لها من زعمائها وآبائها الأقوياء من يستطع أن ينافح أمبروز الحجة ويحاوره. فقد مات يوسيبيوس النيقوميدى منذ زمن بعيد (٣٤١) ثم لحق به على التوالى يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس، ولم يكن خلفاء هؤلاء بمن يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركوه. كما أن الآريوسية فقدت آخر حماتها من الأباطرة، أعنى فالنز، فجأة على يد الجرمان، ولم تقم لها بعد ذلك فى الشرق قائمة. وهذا هو الفارق الكبير بين أمبروز وأثناسيوس، فهذا الأخير أمضى ستة وأربعين عاماً متواصلة يتصدى للآريوسيين إكليروسا وأباطرة، ويتحدى سلطان الآريوسية ممثلة فى قسطنطيوس وفالنز، بينما وجد أمبروز الأمور أمامه ميسرة، فالأباطرة فى شطرى الإمبراطورية على النيقية، إذا استثنينا هذا الظل الباهت للآريوسية الممثل فى فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا، والأكليروس كله مال إلى الإيمان النيقى إن طوعاً أوكرهاً، والجدال اللاهوتى من حول مكانة المسيح خفت حدته بعد أن شهدت الفترة الواقعة ما بين إنتهاء جلسات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ووفاة أثناسيوس عام ٣٧٣، وهى تمتد إلى نصف القرن، أربعة وثلاثين مجمعاً كنسياً عقدت فى الشرق

عدا ثمانية فقط شهدها الشطر الغربى من الإمبراطورية، كلها تدور حول العقيدة الآريوسية[٢٠].

وإذا كانت هذه هى حال الكنيسة فى الربع الأخير من القرن الرابع، فإن الظروف السياسية التى عاشتها الدولة آنذاك، كانت عاملاً هاماً ساعد على أن ينجح أمبروز فى إدراك المكانة التى حققها وإحراز الشهرة التى حازها؛ فالإمبراطورية لم تخضع طيلة أسقفيته لسيادة امبراطور واحد إلا على فترتين قصيرتين جداً خلال ثلاثة وعشرين عاماً (من ٩ أغسطس ٣٧٨ إلى ١٩ يناير ٣٧٩) أى منذ قتل فالنز إلى أن أعلن ثيودوسيوس إمبراطوراً شريكاً، مع إدخال وجود إمبراطور آخر يحبو فى عمر الصبا هو فالنتنيان الثانى، وإن لم يكن له نفوذ فى الحسبان، أما الفترة الثانية فهى التى أصبح فيها ثيودوسيوس إمبراطوراً فرداً، ولم تزد عن شهور أربعة وأحد عشر يوماً (من ٦ سبتمبر ٣٩٤ إلى ٧ يناير ٣٩٥) وهى الواقعة بين انتصار ثيودوسيوس على مغتصب العرش فى الغرب يوجنيوس، ووفاة ثيودوسيوس نفسه[٢١].

ووجود إمبراطورين على العرش فرصة أفاد منها أمبروز، والشواهد والأدلة على ذلك قائمة وسابقة. فالإمبراطور قسطنطين حكم الإمبراطورية منفرداً طوال أربعة عشر عاماً (٣٢٣-٣٣٧) فرض فيها سيطرته الكاملة وسيادته على الدولة والكنيسة، فلما مات وخلفه أبناؤه الثلاثة، كان ذلك باباً فتح على مصراعيه ليلج منه الجدال اللاهوتى بين النيقية والآريوسية، وتمكن أثناسيوس من الإفادة من ذلك الوضع إلى حد كبير جداً، إلى الحد الذى هدد إمبراطور النصف الغربى قنسطانز أخاه قسطنطيوس إمبراطور النصف الشرقى بالحرب، من أجل الأسقف السكندرى وبولس أسقف القسطنطينية! حتى إذا أصبح قسطنطيوس الآريوسى حاكماً منفرداً (٣٥١-٣٦١) نجح إلى حد ليس بالقليل فى فرض سيادة الدولة والعقيدة الآريوسية على الكنيسة كلها فى الإمبراطورية عامة. فلما عادت

(٢٠) للوقوف على هذه المجامع كلها وما دار فيها والنتائج التى ترتبت عليها، راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، ملحق رقم ٣.

(٢١) انظر الفصل الخامس.

الإمبراطورية يعتلى عرشها رجلان، فالنتينيان الأول وفالنز، أفاد النيقيون والآريوسيون من هذا الوضع بقدر سواء، وليس أمبروز والإمبراطورية على عرشها عاهلان، بل ثلاثة عواهل فى بعض الأحيان(٢٢)، استثناء من هذه القاعدة.

ولا يخفى علينا، أن أباطرة الغرب لم تكن لأحدهم قوة الشخصية التى يتمتع بها الأسقف الميلانى، فجراتيان رغم شجاعته العسكرية وانتصاراته المتتالية على الجماعات الجرمانية، إلا أنه كان ما يزال شاباً فى مقتبل العمر، صرف وقتاً كبيراً فى إشباع هواياته الخاصة، كما أنه كان واقعاً تحت تأثير أمبروز مفتوناً بشخصيته لا يعصى له أمراً. أما أخوه فالنتينان الثانى فقد أريد له أن يظل طفلاً لفترة طويلة، حيث خضع لوصاية أمه جوستينا ونفوذها فذابت شخصيته، فلما ماتت كان هو قد استمرأ حياة الدعة والنعيم ولم يلبث أن قتل. ولذا فإن عداء جوستينا وبالتالى ابنها فالنتينيان لأمبروز، كانت نتيجتها الحاسمة ازدياد نفوذ الأسقف الميلانى لدى الجموع، خاصة أن الإمبراطور الطفل وأمه كانا يبديان ميلهما إلى الآريوسية.

وإلى جوار هذا كله فإن الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية التى شهدها النصف الغربى، كانت من بين الأسباب الرئيسة التى أدت إلى إضعاف سلطان الحكومة هناك والتقليل من هيبتها. فقد قتل جراتيان عام ٣٨٣ على يد ماكسيموس، ولم ينقض على ذلك خمسة أعوام حتى كان هذا قد لقى حتفه صريعا. وإن هى إلا سنوات أربع (٣٩٢) حتى شهد هذا الشطر من الإمبراطورين مقتل فالنتينيان الثانى، ولم ينعم المتآمرون الذين رفعوا إلى العرش يوجنيوس بفعلتهم هذه إلا سنتين فقط، حيث لحق بمن سبقوه كرهاً سنة ٣٩٤ ولم يمكث ثيودوسيوس بعد ذلك إلا قليلاً حتى ودع دنياه، تاركاً على العرش إمبراطورين، أحدهما فى الشرق صبى، أركاديوس، وفى الغرب طفل هو هونوريوس. هذه الأحداث فى مجموعها تدل دلالة صادقة على افتقاد الشطر الغربى من الإمبراطورية للحكومة المركزية القوية التى تستطيع أن تفرض على الجميع سلطانها دون منازع، كما أنها استنفدت

---

(٢٢) شهدت الإمبراطورية خلال الربع الأخير من القرن الرابع فترات كان عرشها يحتله أباطرة ثلاثة، ونعنى بذلك الفترة التى حكمها ثيودوسيوس فى الشرق، وجراتيان وفالنتينيان الثانى فى الغرب، ثم بالاشتراك مع ماكسيموس بعد مقتل جراتيان.

أيضاً جهد ومال وفكر ووقت حكومة الشطر الشرقى، بقيامها بإعداد حملات متتابعة لإقرار الأمور المتردية هناك.

وفى غيبة الحكومة المركزية القوية فى الغرب، وانشغال حكومة الشرق بما يجرى فى الغرب، وبمشاكلها الخاصة على الجبهة الفارسية، والتى كان محورها هذه الجولة فى أرمينيا، والتى لم يستطع ثيودوسيوس أن يفرغ منها إلا بعد ثمان سنوات من حكمه (٣٨٧) بالتوصل إلى اتفاق مع سابور الثالث الملك الفارسى، لينطلق بعدها إلى الغرب لحرب ماكسيموس، واستنفاد الجرمان لجزء كبير من فكره وجهده، ومحاولة إعادة بناء الجيش الإمبراطورى الذى تمزق عند إدرنه، وجهوده المتواصلة للتخلص من الآريوسية والقضاء على الوثنية. كل هذه الظروف مجتمعة، بالإضافة إلى تكوين أمبروز الفكرى والثقافى، قادته إلى أن يعتبر الشخصية البارزة الحقة فى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى على نفس القدر مع الإمبراطور ثيودوسيوس.

وإذا كان أمبروز قد أفاد إلى أقصى حد من الظروف الكنسية والزمنية التى أحاطت به وتهيأت له على امتداد أسقفيته الطويلة، وساعده على ذلك خبرته كحاكم مدنى قبل سيامته، ودراساته القانونية وقراءاته اللاهوتية، وشخصيته وثقافته. فإن ثيودوسيوس قد استحق لقب العظيم الذى اقترن باسمه لأعماله العسكرية والدبلوماسية لاحتواء موجة المد الجرمانى الأول داخل الإمبراطورية، ولما أنفقه من جهد فى سبيل الاعتراف بالمسيحية النيقية ديناً رسمياً للإمبراطورية. وقد سار هذا الطريق منذ العام الأول لاعتلائه العرش بخطوات قدمناها، تمثلت فى مرسوميه الشهرين فى فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١، ثم الإقدام على طرد ديموفيلوس أسقف العاصمة الآريوسى وجماعته من المدينة وتجريدهم من الكنائس التى كانت بأيديهم وتسليمها إلى النيقيين، فإدانته للماكيدونية وغيرها من الفرق المسيحية الأخرى التى تعتبرها الكنيسة الجامعة خارجة عن دائرة إيمانها، وتأكيده لقانون الإيمان النيقى فى المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، فإعادة هذا التأكيد من جديد على الهوموسية فى مجمع القسطنطينية الثانى الذى عقد فى العام التالى.

غير أن الآريوسيين بفرقهم العديدة لم يستسلموا طواعية لما أراده ثيودوسيوس، ووقعت كثير من حوادث الشغب والفوضى في عدد من مدن الإمبراطورية عند تسلم النيقيين للكنائس من خصومهم[٢٣]. ويبدو أن الإمبراطور صمم على أن يخطو الخطوة الأخيرة بالحسنى في تعامله مع الآريوسيين، فوجه الدعوة إلى مؤتمر عام يعقد في القسطنطينية يضم النيقيين والآريوسيين على اختلاف فرقهم، لإجراء حوار جدلي لاهوتي بينهم جميعاً، علهم ينتهون إلى وفاق في أمر العقيدة، وتمثل هذا المؤتمر في المجمع الذي التأم عقده في القسطنطينية سنة ٣٨٣، وهو المجمع الثالث على التوالي الذي شهدته العاصمة خلال سنوات ثلاث. وكان على رأس الحضور نكتاريوس أسقف العاصمة، وأجليوس Agelius أسقف جماعة النوفاتيين [٢٤]. وهما يمثلان النيقية، لأن النوفاتيين كانوا يدينون أيضاً بالهوموسية. أما الآريوسيون فكان يتزعمهم ديموفيلوس، أسقف العاصمة الأسبق، والماكيدونيون يقود خطوهم اليوزيوس Eleuxius أسقف كيزيكوس Cyzicus، على حين يتقدم يونوميوس فريق الأنومويين[٢٥].

وفي يونية تقاطر على القسطنطينية هؤلاء جميعاً والصفوة من أنصارهم، التي تجيد فن الجدال، وكانت خطة الإمبراطور تقضي بالسماح لكل فريق بشرح إيمانه على الحاضرين، ومناقشته من جانب الفرق الأخرى، حتى يبين للجميع صدقه أو زيفه، فلما عرض ثيودوسيوس هذا الرأي على أسقفه نكتاريوس أصابه الفزع [٢٦]. ورغم أن مؤرخي الكنيسة لم يقدموا أي تبرير لهذا الهلع الذي تملك نكتاريوس، إلا أن الحقيقة التي لا مراء فيها، هي أن أسقف العاصمة النيقي كان يعرف تماماً قدر نفسه ومقدرته، فهو لم يكن بأي حال من الأحوال يستطيع أن يتصدى جدالاً ، أو أن يدخل في أي حوار لاهوتي مع رجال الآريوسية الذين

(٢٣) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

(٢٤) اشتقت هذه الطائفة اسمها من نوفاتيان Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين في روما، والذي ناصب كورنليوس Cornelius أسقف روما في خمسينيات القرن الثالث العداء، للخلاف الذي نشب بينهما حول قبول المارقين عن الدين زمن الاضطهاد ثانية في الكنيسة. وهم يطلقون على أنفسهم المتطهرين شأن الدوناتيين في أفريقيا والمليتيين في مصر.

(٢٥) SOCRAT. hist. eccl. V 10 ; SOZOM. hist. eccl. VII 12.

(٢٦) SOCRAT. Loc. Cit.

تمرسوا فكراً على هذه الأمور، وقضوا فى متاهاتها العقيدية جل أعمارهم خاصة يونوميوس، الذى يتفق مؤرخو الكنيسة على ذكائه وسحر بيانه رغم عدائهم له(٢٧). ونكتاريوس لم تكن له باللاهوت معرفة كافية، ولا بالجدال خبرة، ومن ثم اختلط عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل إلا أن يلجأ إلى أجليوس النوفاتى، الذى أشار عليه بدوره أن يلجأ إلى شماسه سيسنيوس Sisinius الذى كان متضلعاً من اللاهوت، بلاغياً ومجادلاً(٢٨).

وقد اقترح سيسينيوس على نكتاريوس أن يقدم إلى المؤتمرين اعترافات آباء الكنيسة الأول عن الإبن، ويطلب إلى رؤساء الفرق المختلفة الإدلاء بآرائهم حول هذه الاعترافات. وقد سر أسقف العاصمة لهذا الاقتراح الذى لا يحمل فى جوهره أى فرصة للنقاش أو الجدال، وهو ما كان يتمنى الخلاص منه. وقد فعل. وطرح على الحضور سؤاله الأول: هل تحترمون الآباء الذين عاشوا قبل أن يناجى آريوس بدعوته؟ فأجابه الجميع بالإيجاب. ثم كان سؤال الثانى: هل تعترفون بأنهم آباء الإيمان المسيحى القويم؟ وهما دبت الفوضى فى المجمع، وأنقسم الحاضرون كل يرى فى الآباء رأيه، بل إن هذا قد أدى أيضاً إلى انقسام الواحد على نفسه(٢٩).

---

(٢٧) يذكر سوزومنوس أن يونوميوس كان يقيم فى هذه الفترة فى بيثينيا Bithynia على الساحل الآسيوى القريب والمواجه للقسطنطينية، حيث تجمع حوله الكثيرون ممن أعجبوا بحديثه وسحرتهم لباقته، حتى وصلت سمعته مسامع الإمبراطور، فأبدى رغبته فى عقد مناظرة معه وحوار، غير أن الإمبراطورة فلاكيلا Flacilla وهى الزوجة الأولى لثيودوسيوس وأم ولديه أركاديوس وهونوريوس، حالت دون عقد هذا اللقاء، مخافة أن يتأثر زوجها بسحر بيان يونوميوس وقوة أقناعه فى الجدال. راجع SOZOM. Hist. Eccl. III 15, VI 26, VII 6; SOCRAT. Hist. Eccl. II 35

(٢٨) SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist. eccl VII 12.

(٢٩) ظهرت هذه الانقسامات بصورة واضحة فيما بعد، حيث اختلف دورثيوس الذى كان أسقفاً آريوسياً فى أنطاكية وأصبح الآن أسقفا للآريوسيين خلفاً لديموفيلوس خارج أسوار القسطنطينية، اختلف مع مارينوس Marinus الذى استدعاه الآريوسيون بعد وفاة ديموفيلوس وقبل قدوم دورثيوس، وقد عرف أتباع مارينوس بالكعكيين Psathyrians حيث كان أحد المتحمسين لآراء مارينوس وهو سورى المولد يدعى ثيوكتستوس Theoctistus بائعاً للكعك Psathyropla ولم يلبث مارينوس أن اختلف مع أجابيوس Agapius الذى كان هو نفسه قد رقاه إلى مرتبة أسقف إفسوس، ولم يعد الآريوسيون إلى الوفاق الظاهرى فقط إلا عام ٤١٩=

ورأى الإمبراطور أن المجمع يسير إلى نهاية مفزعة غير التى كان فى البدء يؤملها، إذ زاد الانقسام انقساماً، ومن ثم لجأ إلى نفس الأسلوب الذى اتبعه من قبل سلفه قسطنطين(٣٠). بقهر هؤلاء جميعاً على أن يسلكوا الدرب الذى يخطه لهم، فأمرهم بأن يتقدم زعيم كل فريق على حدة بوثيقة إيمانه الذى به يدين، وسوف يبحث هو بنفسه عن أيها أقوم!! ولم يتمخض قرار الإمبراطور إلا عن النتيجة المعروفة والمرادة سلفاً، وهى الاعتراف بقانون الإيمان النيقى ورفض كل ما عداه. وقد جاء ذلك فى صيغة مرسوم عام صدر عن الإمبراطور فى سبتمبر ٣٨٣ باعتبار النيقية هى المسيحية الحقة، وكل ما خرج عنها زيف وضلال، وقرر حرمان كل الفرق المسيحية الأخرى الخارجة – عدا النوفاتية – من مباشرة طقوسهم أو نشر عقائدهم، أو رسم أحد منهم لوظائف الأكليروس، وتجريدهم من كنائسهم، وتهدّد المخالفين بأقسى أنواع العقاب (٣١).

=على عهد ثيودوسيوس الثانى. ولم يكن أتباع يونوميوس أقل من ذلك إنقساماً، فقد خرج ثيوفرونيوس Theophronius الكبادوكى على بعض آراء أستاذه يونوميوس وعرف أتباعه باسم "اليونوميوثيوفرونيون" Eunomiotheophronians ولم يلبث أحد رجال الأكليروس فى القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eytychius أن انشق هو الآخر عن يونوميوس وجماعته، وتولد عن ذلك فرقة أخرى هم اليونوميوطيخيون Eunomieutychians ويقول سقراط إن هذه الانقسامات حدثت فى القسطنطينية وحدها وضواحيها، وإنه رأى أن يقصر حديثه عليها فقط لقربه منهم، ولأنها التى ولد فيها، ويضيف إنه لن يتحدث عن الفرق الأخرى فى مدن عديدة لأن هذا سوف يخرج به عن الهدف الأساسى لكتابه. راجع:

SOCRAT. Hist. eccl. V 23, 24; SOZOM. Hist. Eccl. VII 17.

(٣٠) فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى نيقية سنة ٣٢٥، "أقتيد" الأساقفة حسب تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس، إلى التوقيع على صيغة الإيمان بعد أن أضاف إليها الإمبراطور قسطنطين بنفسه، بوحى من هوسيوس القرطبى، عبارة "من نفس جوهر الأب Homoousius أو الهوموسية التى كانت فاتحة الجدال اللاهوتى طيلة القرن الرابع، كما أن قسطنطين طلب من آريوس بعد إعادته من المنفى عام ٣٢٨ أن يقدم وثيقة إيمانه، وقد قبلها قسطنطين واعترف بها دون أن يعرض الأمر على الكنيسة أو أحد رجالها، رغم خلو هذه الوثيقة من "الهوموسية".

(٣١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

وهكذا حققت النيقية بعد لأي انتصارها على الآريوسية، وأصبحت تمثل الصيغة الرسمية للمسيحية، بعد أن ظلت تتصارع والآريوسية على امتداد خمسة وستين عاماً (٣١٨-٣٨٣)، ولم يكن نصرها الذى حققته على الآريوسية عام ٣٢٥ فى المجمع النيقى إلا بريقاً خاطفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات، ولم يكن خالصا. أما الآن فقد سادت الكنيسة بمقتضى مرسوم إمبراطورى عام كان الأول من نوعه منذ اعتبرت الإمبراطورية فى شخص قسطنطين وليكينيوس المسيحية ديانة شرعية riligio licita فى اجتماع ميلانو عام ٣١٣. ورغم أن الآريوسية قد كسبت جولات كثيرة قبل ذلك على عهود قسطنطين وقسطنطيوس وفالنز، إلا أن أحدا من هؤلاء الأباطرة ، أو حتى الإمبراطورين الآخيرين وهما أقطاب الآريوسية، لم يصدرا مرسوماً عاماً باضطهاد الفرق المسيحية المخالفة. حقيقة وقعت بعض حوادث العزل والنفى للأساقفة، وكان ذلك يتم عن طريق المجامع الكنسية المكانية ويصدق عليها الإمبراطور، لكن مرسوماً إمبراطوريا عاماً بإنزال الاضطهاد بأتباع الفرق الأخرى، وملاحقتهم ومحاولة القضاء عليهم كلية، لم يصدر خلال فترة السيادة الآريوسية. وهكذا كان ثيودوسيوس أول إمبراطور يقدم على ذلك، ويتعداه إلى الحقوق المدنية حيث أخذت بالتدريج تسحب منهم بشكل واضح، خاصة تلك التى تتعلق بالأرث والوصية. لقد كان ثيودوسيوس أحد الأباطرة الذين يعتقدون أن سلطتهم لابد أن تظلل الكنيسة والحياة العقائدية لرعاياهم، وكان هدفه الأساسى أن يرسى دعائم كنيسة نيقية واحدة(٣٢). غير أنه على الرغم من كل هذه الجهود التى بذلها إلا أنه لم يكتب له النجاح فى هدفه هذا، حيث شهد القرن الخامس صراعاً من حول "طبيعة" المسيح أشد ضراوة مما اكتوى به القرن الرابع الذى دار الصراع خلاله حول "مكانة" المسيح فى الثالوث.

وكان الآريوسيون يبحثون عن الفرصة المواتية لاستعادة سيادة يعتبرونها حقاً لهم، وتحقق لهم ذلك عندما ارتحل الإمبراطور ثيودوسيوس قاصداً الغرب فى عام ٣٨٨ لحرب ماكسيموس، فأعلنوا الثورة فى القسطنطينية، وزاد من حماستهم، ما أشيع عن هزيمة الإمبراطور أمام عدوه، وانصب غضبهم على نكتاريوس

(٣٢) Vasiliev, op. cit. I pp. 80-83.

أسقف العاصمة، فأشعلوا النار فى بيته، وتحددت أهدافهم فى استرداد الكنائس التى كانوا قد طردوا منها قبل ذلك بسبع سنوات (٣٨١)، وقد نجحوا فعلاً فى ذلك. غير أن نجاحهم لم يدم طويلاً حيث أتت الأنباء تعلن انتصار جيش ثيودوسيوس على خصمه، ولم يلبث الإمبراطور أن أرسل أوامره وقواته لإخماد ثورة الآريوسيين، وعاد النيقيون للظهور مرة ثانية[٣٣].

وإذا كانت الأحداث تجرى على النحو هذا فى الشرق، فإن النصف الغربى كان يشهد الأمور بصورة مغاير بعد مقتل جراتيان، ذلك أن جوستينا اتخذت من اغتياله فرصة لمباشرة السلطة بنفسها فى إيطاليا باسم ابنها فالنتينيان الثانى، حيث كان ماكسيموس يمارس سيادته فى غالة. وكانت جوستينا تؤمن بالآريوسية، ولكنها لم تجرؤ لتفصح عن ذلك من قبل[٣٤].

وكان طبيعياً والإمبراطورة الأم وابنها يقيمان فى ميلانو أن يقع الصدام بينها وبين الأسقف أمبروز، خاصة وأن بلاطها فى ميلانو كان يستعين بخدمة أسقف آريوسى يسمى أوكسنتيوس، وهى سمى الأسقف الميلانى الآريوسى الراحل، وقد طرده ثيودوسيوس من كرسيه الأسقفى فى دوروستا Durostorum فى موئيزيا، فالتحق ببلاط جوستينا وفالنتينيان الثانى. وقد أوعزت الإمبراطورة إلى أوكسنتيوس أن يطلب من أمبروز السماح بتخصيص إحدى الكنائس فى ميلانو[٣٥]. فوجه فالنتينيان الدعوة إلى أمبروز لحضور مجلس كنسى يعقد فى القصر الإمبراطورى لبحث هذا الخلاف، ولكن الأسقف رفض أيضاً الاستجابة لدعوة الإمبراطور، وكتب إليه رسالة مطولة حول هذا المعنى[٣٦]. يوضح فيها أن المسائل الكنسية يجب أن تبحث داخل الكنيسة لا وراء أستار القصر الإمبراطورى[٣٧].

---

(٣٣) SOCRAT. Hist. eccl. V 13; SOZOM. Hist. Eccl VII 14; AMB. Ep. XL. 13.

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl V 11; THEOD. Hist. Eccl. V 12-13.

(٣٥) AMB. Sermo con. Aux. 33, 35; ep. XX 2, 3.

(٣٦) AMB. Ep. XXI وقد أوردنا نص هذه الرسالة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٣٧) AMB. Ep. XXI 2, 17.

وكانت جوستينا قد أوحت إلى أحد مستشاريها القانونيين ويدعى منيوفولوس[٣٨]. Meniopolus أن يدبج قانوناً يؤكد فيه الاعتراف من جديد بصحة ما جاء فى قانون الإيمان الذى صدر من قبل عن مجمع ريمينى Ariminium سنة ٣٥٩ على عهد الإمبراطور قسطنطيوس. غير أنه رفض ذلك، ولكنها تمكنت عن طريق غيره من إعداد قانون بهذا الخصوص، سرعان ما أصدره ابنها فالنتينيان سنة ٣٨٠ يقضى بمنح الحرية الدينية للآريوسيين شأن النيقيين [٣٩]. واتخذت الإجراءات الكفيلة بتنفيذ هذا القانون بالقوة. ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا بقهر أمبروز، فحوصرت الكنيسة التى اعتاد الأسقف أن يعظ فيها رعيته، واستخدم العنف ضد المعلمين، فى محاولة للقبض على أمبروز وإكراهه على الرضوخ للقانون الإمبراطورى [٤٠]. وفرضت غرامة مالية كبيرة على أهالى ميلانو خاصة التجار، واجبة السداد خلال ثلاثة أيام [٤١]. ولكن ذلك كله زاد أمبروز إصراراً على موقفه، وازدادت الجموع تعلقاً بأسقفها خاصة عندما رأته يواجه الأوامر الإمبراطورية بشجاعة، "ليس من حقى أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها . إنك لا تستطيع دون حق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟!"[٤٢]. ولما لم يكن لفالنتينيان الإمبراطور الصبى، من الشخصية ما يمكنه من التصدى لأمبروز، ولما كانت جوستينا تخشى اندلاع الفتنة فى المدينة، فقد تم سحب القوات المحاصرة للكنيسة[٤٣]. خاصة وأن الأنباء كانت قد أخذت تتسرب، إلى البلاط فى ميلانو عن اعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، بحجة الحفاظ على امور العقيدة النيقية [٤٤]. وكانت هذه المحاولة من جانب

---

(٣٨) ويدعوه روفينوس: "بنفولوس" Benevolus انظر RVFIN. Hist. Eccl. II 16

(٣٩) AMB. ep. XXI 9; SOZOM. hist. Eccl. VII 13.

(٤٠) AMB. ep. XX 11, 16.

(٤١) Ibid. 6.

(٤٢) Ibid. 19.

(٤٣) Ibid. 26.

(٤٤) SOZOM. Hist. VII 13. ويذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور ثيودوسيوس عندما علم بما كان من أمر النزاع بين أمبروز وجوستينا وفالنتينيان، واعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، كتب إلى فالنتينيان رسالة توبيخ جاء فيها "لا تدع الدهشة تتملك عليك كل سبيل إذا ما وجدت نفسك=

جوستينا وفالنتينيان هى المرة الأخيرة التى وقفت فيها السلطة الإمبراطورية إلى جانب الآريوسية فى الغرب. وبموت جوستينا عام ٣٨٣، نجح ثيودوسيوس فى التأثير على فالنتينيان وتحويله إلى النيقية، لتصبح هذه هى المسيحية الرسمية فى شطرى الإمبراطورية.

ويشير مجرى الأحداث إلى أن ثيودوسيوس كان قد قر فى ذهنه منذ البداية أن يقيم كنيسة واحدة، شاعت له نشأته فى الغرب، أن تكون النيقية عقيدتها، بحيث يمكنه بعد ذلك أن يقدم على تحقيق هدفه الثانى والأهم. وكان القضاء على الوثنية هو هذا الهدف الثانى أمام ثيودوسيوس(٤٥). ولم يقدم على ذلك دفعة واحدة، بل راح يجهز عليها خطوة خطوة على امتداد عهده، وكلما ازدادت ثقته فى رسوخ النيقية اشتد فى قسوته على الوثنية. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه مع الفرق المسيحية غير النيقية، وإن كانت الفترة التى قضاها فى مواجهة هذه الفرق لم تستغرق سوى الأعوام الخمسة الأولى من عهده، بينما ظل حتى نهاية عهده يصدر المراسيم ضد الوثنية. ولا شك أن هذا يعد شيئاً طبيعياً يتفق ومجريات الأمور. فالوثنية كانت ما تزال حتى الآن هى الدين الرسمى للإمبراطورية، ذلك أن قسطنطين عندما التقى بحليفه اللدود ليكينيوس فى ميلانو عام ٣١٣، ليبحثا ضمن مفاوضاتهما الأخرى موضوع العقيدة، لم يقدما للمسيحية – كما يعتقد كثير – شيئاً سوى مكاناً إلى جوار الوثنية دين الإمبراطورية . فسمحا لأتباعها بممارسة عبادتهم، وردت عليهم كنائسهم وأموالهم المصادرة، ورفع عنهم الاضطهاد. وإذا كان قسطنطين قد حرص بعد ذلك طوال عهده على أن يمالىء الكنيسة، فإن ذلك يعود لأسباب سياسية بحتة، ولكنه لم يكن فى يوم ما فى عقيدته مسيحياً. حقيقة، أصلح ما تهدم من كنائس وأقام كنائس جديدة، وأغدق على المسيحيين، وسمح لهم بإنشاء محاكم خاصة، ولكنه فى الوقت نفسه لم يضطهد الوثنيين ولم يرسل بكهنتهم إلى المنفى، ولم يحرق كتبهم ولم يغلق معابدهم،

=وقد أصابك الهلع، وعدوك فى حلل النصر يرفل، ذلك أنك رحت تتحدى التقوى، بينما هو بها يتحلى. لقد خلعت عنك رداءها ورحت تعدو عارياً. إن الذى منحنا قانون الإيمان الحق ليقف دائماً إلى جانبها".

(٤٥) انظر Downey, op. cit. p. 64; Bury, The later Roman Empire, I p. 368.

وإذا كان قد أغلق بعض المعابد فى بعلبك وكيليكيا، فقد كان ذلك لدوافع خلقية وليست دينية، حيث أمست مباءة للفجور بعد أن هجرها الأرباب وتخلى عنها العباد[٤٦]. والمؤرخ الكنسى ثيودوريتوس يعترف بهذه الحقيقة ويقول ما نصه "إن قسطنطين الكبير الذى يستحق كل التمجيد والإطراء، أصدر مرسوماً بتحريم التقريب للأرباب، لكنه لم يصدر مرسوماً بهدم المعابد وإنما اكتفى بإبقاء بعضها مغلقاً"[٤٧]، ومن المعروف أن قسطنطين كان يقرب للأرباب بنفسه فى قصره.

هكذا يمكن القول إن المسيحية فى عهد قسطنطين خطت فقط أولى خطواتها إلى دائرة الضوء، حيث اعترف بها ديانة "شرعية" أى لأتباعها حق ممارسة طقوسها شأن الوثنيين، وليست "رسمية". وعلى هذا النحو ظلت المسيحية طيلة عهود أبناء قسطنطين الثلاثة رغم أنهم كانوا فعلاً على المسيحية. وكانت الخطوة الوحيدة الجزيئة ضد الوثنية هى تلك التى أقدم عليها الأمبراطور قسطنطيوس عندما أمر بإزالة مذبح النصر من مبنى السناتو فى روما فى خمسينيات القرن الرابع، حتى إذا جاء الإمبراطور جوليان، الذى كان يحمل للمسيحيين كراهية عميقة، ويعتبر يوم عماده أسوأ أيام عمره، قام بالمحاولة الرسمية الأخيرة من جانب الدولة لإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها المتميزة عن العقائد الأخرى، وأعاد مذبح النصر إلى مكانه. غير أن جهوده ذهبت مع الرياح بموته السريع المفاجئ بعد عهد قصير (٣٦١-٣٦٣) ولم يمتد العمر بخلفه جوفيان أكثر من ثمانية أشهر، حتى يمكن التعرف على ملامح عقيدية معينة لسياسته، رغم ما يضفيه عليه مؤرخو الكنيسة من صفات التقوى والورع[٤٨]. أما فالنتينيان الأول فكان إمبراطوراً متسامحاً، لا مع كل الفرق المسيحية فحسب، بل تجاه العقائد الدينية على اختلاف أربابها[٤٩]، فأغض الطرف عن وجود مذبح النصر فى مجلس الشيوخ الرومانى[٥٠]، بل وسمح بمزاولة العبادات الأليوزية Eleusis الغامضة، فقد أوحى

(٤٦) ناقشت هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب الدولة والكنيسة، الجزء الثانى الفصل الثالث.

(٤٧) THEOD. hist. Eccl. V 20.

(٤٨) ATHANAS. Narr ad. Ammon; ep. ad imp. Iov. 1; GREG. NAZ. Orat. XXI 33; SOCRAT. hist. eccl. III 22; SOZOM. hist. eccl. VI 3.

(٤٩) AMM. MARC. res gest XXX 9.

(٥٠) SYMM. MEM. 3

إليه قنصل آخايا أنه إذا قهرت هذه العبادة ، فإن اليونان سوف يجدون أن الحياة قد أصبحت عبثاً[٥١]، ولم يكن فالنتينيان بحاجة حتى لمثل هذا الإيحاء، فقد أعلن منذ الشهور الأولى لاعتلائه العرش ابتعاده الكامل عن المشاركة فى المسائل العقيدية.

هكذا وجد ثيودوسيوس نفسه مسئولاً إلى حد كبير عن القضاء على الوثنية القضاء الأخير، حتى تحتل المسيحية التى طال انتظارها، المكانة الرسمية كدين للإمبراطورية بدلاً من الوثنية، خاصة بعد أن غفا الزمن على القوانين التى كان قسطنطين وأبناؤه قد أصدروها بتحريم الأضحيات للأوثان[٥٢]. ولم تكن العبادات الخاصة للأرباب هى التى ما زالت تلقى رواجاً فحسب، بل أيضاً التنجيم والسحر والعابادات الشرقية. وكان كل من هذه المعتقدات على حدة يشكل خطراً جسيماً على المسيحية. ولا شك أن مسألة العرافة كانت دافعاً قوياً لثيودوسيوس على إصدار مرسومه الأول ضد الوثنية فى ديسمبر ٣٨١، الذى يحرم إجراء الطقوس الوثنية الخاصة بالتنبؤ، وارتياد المعابد من أجل استلهام وحى الأرباب. وهذا القانون فى حد ذاته يعد دليلاً على مدى تغلغل التنجيم والسحر والعرافة فى نفوس معظم الطبقات المختلفة مهما بلغت درجة ثقافتها، حيث كان المنجمون والعرافون يدعون لممارسة طقوسهم فى بيوتات كبار النبلاء.

لقد كانت الطبقة المثقفة، ورجال السناتو والنبلاء والعائلات الثرية والعريقة من الحكام فى الأقاليم والمدن، من أشد طبقات المجتمع الرومانى تمسكاً بهذه العبادات التقليدية، التى كانت لا تمثل مجرد ارتباط تقليدى، أو اعتقاد روحى ولكن تراثاً ثقافياً كلاسيكيا، وتعبيراً عن الشعور بالارتباط بالوطن، ذلك أن عبادة الأرباب ارتبطت تماماً بالتقليد التاريخى بعقيدة روما حول تمجيد الآلهة الخاصة بها[٥٣]. من أجل هذا كان طبيعياً أن يحدث هذا المرسوم رد فعل عنيفاً خاصة فى مجلس السناتو الرومانى، الذى كان يعتبر نفسه حفيظاً على هذه الديانة، حيث كانت

---

(٥١) AMM. MARC. Res gest. XXX 9.

(٥٢) SOZOM..hist. Eccl VII 20. حيث يذكر "أن الوثنية أفادت كثيرا من التسهيلات الموجودة من جانب الدولة، وزاد عدد المترددين على المعابد".

(٥٣) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

الشخصيات القيادية فيه تمثل النبالة الرومانية المثقفة. وبينما لم يكن بمقدور السناتو فى القسطنطينية أن يفعل أكثر من إصدار تشريع يقضى بعدم إغلاق المعابد التى اعتاد السناتو زيارتها، لا من أجل العبادة بل إعجاباً بروائع آيات الفن فيها (٥٤)،فإن السناتو فى روما لم يقف مكتوف الأيدى إزاء هذا التحول الذى يراه خطيراً فى تراث روما.

وقد زاد من مخاوفهم أن الإمبراطور الشاب جراتيان، الذى كان واقعا تماماً تحت تأثير أمبروز، أقدم منذ أوائل سنى حكمه على التخلى عن لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maimus الذى كان يحمله الأباطرة الرومان الوثنيون، رغم كونه يمثل لقباً شرفياً لهم، وحرص قسطنطين وخلفاؤه على عدم التخلى عنه، حتى خلعه جراتيان الذى لم يقف عند هذا الحد، بل أصغى لما أوحى به إليه كل من داماسوس الأسقف الرومانى وأمبروز أسقف ميلانو، فأعاد من جديد إزالة مذبح النصر، وأضاف إلى ذلك مصادرة دخول عذارى الألهة فستا Vesta التى كانت عبادتها تعد واحدة من أعظم الرموز التقليدية الرومانية، وظل الرومان من رجال السناتو وزوجاتهم يقيمون طقوس هذه العبادة، كما بقيت عبادة الربة روما تلقى احتراماً كبيرا من الرومان الذين كانوا يعتقدون أن الخيرات التى ينعمون بها تعود إلى معبوداتهم هذه، وأن أمن الإمبراطورية وأمانها يعتمد إلى حد كبير جداً على هذه الأرباب التى يقدسونها(٥٥).

وكانت إزالة مذبح النصر من مبنى السناتو هذه المرة، هى المحور الذى دار من حوله الصراع بين زعماء الوثنية وآباء الكنيسة يعضدهم الأباطرة، وخلف تراثاً فكرياً لا يمكن تغافله، تمثل فيما كتبه الأديب الوثنى المفوه فتيوس أجوريوس برايتكستاتوس Vettius Agorius Praetextatus والشاعر الذائع الصيت كلوديانوس Claudianus عضو السناتو، الذى كان شديد التحمس لهذا الرمز الذى يمثل التراث الكلاسيكى الرومانى وتتجسد فيه عظمة روما ومجدها، ومن هذا المنطلق نظم قصيداً رائعاً أشاد فيها بما كانت عليه روما، التى لا يمكن

(٥٤) Downey. Op. cit. p. 65.

(٥٥) AMB. Ep. XVII 12; ep XVIII 11 b; SYMM. Mem 3, 10, 11, 13.

للقسطنطينية، وهى تدعو نفسها روما الجديدة، أن تحل محلها[٥٦]. ويفوق هذا وذاك ما كتبه محافظ المدينة والمتحدث باسم السناتو وخطيبه الأشهر أورليوس سيماخوس Aurelius Symmachus الذى قدم باسم السناتو ملتمساً إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى بعد مقتل جراتيان يطلب إليه فيه إعادة المذبح ورد أموال عذارى فستا ثانية. ويعد هذا الملتمس قطعة أدبية رائعة فى التغنى بمجد روما وعظمتها وتراثها [٥٧]. وفى الناحية الأخرى يقف أمبروز برسالتيه الشهيرتين إلى الإمبراطور نفسه حول هذا الأمر، وهما لا تقلان، خاصة أولاهما، جودة واتقاناً عما كتبه سيماخوس[٥٨].

والحقيقة أن مرسوم جراتيان هذا قد ترك أثره السىء الواضح فى نفوس أعضاء السناتو الوثنيين، والطبقة الأرستقراطية والنبلاء فى روما، فشكلوا وفداً ترأسه سيماخوس لمقابلة الإمبراطور للعدول عن قراره. غير أن داماسوس قاد هو الآخر مظاهرة معادية من رجال السناتو المسيحيين، وعلى ذلك فشلت مهمة سيماخوس حيث أمره الإمبراطور أن يعود أدراجه ثانية وهو على بعد مائة ميل فقط من روما مرتحلاً لملاقاة جراتيان[٥٩]. وقد عبر سيماخوس عن ذلك بكل الحسرة فى السطور الأولى من ملتمسه إلى فالنتينيان الثانى من بعد حين قال "ما أن علم مجلس السناتو الموقر الذى يكن لكم كل التقدير، أن عديداً من الجرائم يرتكب، وأن الأمور فى الآونة الأخيرة تتناولها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فقد انتهز هذه الفرصة المواتية ليفتح بعد الصمت المطبق الأليم فاه، وليأمرنى مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل فى جوارحه من أحزان، بعد أن رفض الإمبراطور الممجد، استقبالى بناء على مشورة نفر انطوت على الخبث نفوسهم. ولكننا الآن لن نفتقر إلى العدالة فى ظل سادتى وأباطرتى العظام".

ويبدو أن هذا المرسوم قد أعقبه نوع من الاعتداء من جانب المسيحيين على المعابد وبصفة خاصة تلك التى تتعلق بعبادة فستا وروما. وهو ما يشير إليه سيماخوس "الجرائم التى ارتكبت". ويقول بيورى Bury معلقاً على ذلك "إن ما تم

---

(٥٦) Downey, op. cit. pp. 66-67.

(٥٧) سوف نورد فى المتن بعد قليل نص هذه الرسالة.

(٥٨) انظر بعده.

(٥٩) SYMM. Mem I.

من تدمير لعدد من الأبنية الرائعة على يد الجماعات الجرمانية إبان زحفهم، لا يعدل مطلقاً ما تم تدميره وتخريبه على عهود هؤلاء الأباطرة المسيحيين، والحقيقة أن ذلك إنما يعزى دون شك إلى التعصب الأعمى لدى رجال الأكليروس وجماعات الرهبان" (٦٠). ويضيف فازيلييف "لقد ذهبت إلى الفناء هذه الثروات الفنية الرائعة في المعابد بأيدى المتعصبين المسيحيين"(٦١). ولما كان شيوخ السناتو الوثنيون ينظرون إلى هذا العمل على أنه يعد المسمار الأخير في هدم عظمة روما ومجدها، فقد انتهزوا فرصة مقتل جراتيان، والعداء القائم بين فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا من ناحية، وأمبروز من الناحية الأخرى، ليحاولوا من جديد مع الإمبراطور الصبى، علهم يفلحون. فعُهد إلى سيماخوس بكتابة ملتمس إلى فالنتينيان حول هذا المطلب، نورد هنا نصه بالكامل لنقف على مدى ما كان يعتمل في نفوس الوثنيين المثقفين آنذاك.

"ما أن علم مجلس السناتو الموقر، الذى يكن لكم كل التقدير، أن عديدا من الجرائم قد وقعت، وأن الأمور في الآونة الأخيرة وقد تناولتها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فإنه قد انتهز هذه الفرصة المواتية ليفتح فاه بعد صمت مطبق أليم، وأمرنى مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل في داخله من أحزان، ذلك أنه بناء على مشورة بعض اللئام رفض الإمبراطور الممجد استقبالى (٦٢). ولكن الآن لن نفتقر إلى العدالة في ظل سادتى وأباطرتى العظام، فالنتينيان وثيودوسيوس وأركاديوس. عز سلطانهم على الدوام ونصرهم".

والديباجة على هذا النحو، بتضمنها للأباطرة الثلاثة، ترمز في إيضاح إلى النظرية السياسية الرومانية القائمة على وحدة الإمبراطورية حتى وإن تعدد الأباطرة؛ ذلك أن هذه النظرية ترفض تاما فكرة التقسيم أو وجود إمبراطوريتين منفصلتين، وظل ذلك قائماً حتى بعد ضياع النصف الغربى باستيلاء الجرمان عليه

(٦٠) Bury, later Roman Empire, I pp. 368-369.

(٦١) Vasiliev, op. cit..I p. 82; Laistner, op. cit. 26.

(٦٢) المرة الأولى التى يشير إليها كانت على عهد جراتيان. وقد أمر سيماخوس وهو على بعد مائة ميل من روما أن يعود أدراجه ثانية.

خلال النصف الأول من القرن الخامس، ولهذا كانت القوانين تصدر باسم الأباطرة الموجودين في شطرى الإمبراطورية، وكان ملتمس السناتو على هذا النحو تعبيراً عن الخطوط العامة لهذا النظرية.

ويمضى سيماخوس قائلاً: "ولذلك فإنى فى الواقع، وأنا أحمل مسئولية مزدوجة، باعتبارى نائباً عنكم، أباشر بإخلاص مهام سلطاتى، وبصفتى مبعوثاً، أنقل إليكم الأعباء التى حملنى إياها المواطنون. وبادئ ذى بدء ليس هناك خلاف فى الرأى، ذلك أن الناس باتوا يعتقدون أنهم لن يمثلوا الكلمة العليا إذا ما تفرقت كلمتهم ولا ريب؛ فأن تكون محبوباً محترماً، مقدراً، فذلك شيء يفوق بكثير السلطان الإمبراطورى. ومن ذا الذى يستطيع أن يحتمل هذا الشقاق دون أن يهدد أمن الدولة؟ وخيراً يفعل السناتو عندما يؤدب أولاء الذين يفضلون مجدهم على سمعة الأمير.

"إن واجبنا الأول الآن أن نعمل من أجل رحماكم، فأى شيء أفضل من أن نحمى تراث الأسلاف، وحقوق وقدر بلدنا، الذى يعد فوق الجميع، وذلك عندما تدركون أنك لن تقدم على شيء يتناقض وما أقره أسلافكم من قبل. وعليه نرجو أن تعود أمور العقيدة إلى ما كانت عليه من قبل مما كان سبباً فى رقى الدولة وازدهارها، وأن تترك لمبادئ كل طائفة وآرائها حريتها. لقد سار واحد ممن سبقوك[٦٣] على سنة أسلافه، بينما سمح لها آخر[٦٤] بالبقاء. وإذا كانت عقيدة الأزمات الغابرة لا تمثل سابقة فلتغض الطرف عنها كما فعل آخران[٦٥].

"من ذا الذى يكون على مثل هذه الصداقة مع البرابرة، وليس من حقه أن يطالب بمذبح للنصر؟

"إننا من الآن فصاعدا سوف نلزم الحذر ونبتعد عن التظاهر بمثل هذه الأشياء، ولكن على الأقل فلندع تلك الكرامة تخلع على الاسم الذى يلفظ الآن

(٦٣) جوليان.
(٦٤) فالنتينيان الأول.
(٦٥) فالنتينيان الأول وفالنز.

بالنسبة للمعبود، وشهرتك الباقية على مر السنين، مدينة وستظل مدينة دوماً لهذا النصر، أما أولاء الذين يرفضون هذه القوة فإنهم لم يفيدوا منها أبداً. أتراك ترفض التخلى عن هذه الحماية التى تقترن بها انتصاراتك؟ إن شهوة السلطان لها عند الجميع رغبة جامحة، ومن ثم فليس لأحد أن ينكر ما يعترف بأنها فعلاً رغبته وأنها سوف تجلب له الفخار.

"وحتى لو افترضنا أن نتجنب مثل هذا الفأل[٦٦]. ليس كافياً، فإنه من اللائق على أقل تقدير الامتناع عن الأضرار بما يعد فخاراً لمجلس السناتو. إنا نتوسل إليك أن تسمح لنا وقد بلغنا أرذل العمر، أن نترك للأجيال ما فتحنا عليه عيوننا صبية، فلكم هو عظيم حب التراث. حقيقة إن ما فعله قسطنطيوس الممجد قد بقى ولكن لزمن قصير. إن كل السوابق يجب أن تهجر من جانبك. إننا حريصون كل الحرص على سمو اسمك ومجدك حتى يأتى زمان لا يوجد فيه ما يحتاج إلى إصلاح".

ويتساءل سيماخوس والأمل يحدوه فى رحمة الإمبراطور:

"على أى شىء إذن سوف نقسم على إطاعة أوامرك واحترام القانون؟ وبأى رضا دينى سوف ترتدع العقول الضالة؟ حقيقة أن الله يكمن فى كل شىء، ومع ذلك فليس هناك مكان يخلو من الزور والبهتان، ومن ثم فإنه من أجل إقرار صيغ دينية معينة، فلابد من تمثل سلطان قوى يؤدى بالتالى إلى الخوف من إتيان المعاصى. ولا شك أن هذا المذبح يحفظ الوئام بين الجميع، ويستدل به الكل على صدق الإيمان، ولا شىء مثله يعطى لقراراتنا قوة التنفيذ، ذلك أن أى مرسوم يصدر ومنه نظامنا هذا، يجىء كما لو كان قد صدق عليه بالقسم. من أجل هذا فإن مكاناً ما قد يصبح عرضة للإيمان الكاذبة، ولكنه سوف يصحح على يد سادتى العظام الذين يعلو مجدهم بقسم عام.

"ولقد قيل إن قسطنطيوس الممجد قد فعل نفس الشىء، فلا ضرورة فى أن نحاكى بقية أعمال ذلك الأمير الذى لم تكن الرحمة تعرف إلى شغاف قلبه سبيلاً، إذا ما أقدم أحد على أن يرتكب أمامه أية حماقة. وكان سقوط هذا سبباً فى أن

(٦٦) الفأل السىء نتيجة تحطيم مذبح النصر.

يصلح خلفه [٦٧] المسار وأن يقوّم أموراً نتجت عمن سبقه. ومن الممكن أن نلتمس العذر لسلفكم فى أمر جديد على مثل هذه الشاكلة، بحيث لم يستطع أن ينجو من اللوم. إذن.. هل من الممكن أن نقدم نحن أيضاً نفس هذه الحجة إذا رحنا نحاكى ما نعرف جيداً أنه أصبح أمراً نكرا؟!

"وهل يسمح عظمتكم بأن يقف على أعمال أخرى لنفس هذا الأمير الذى أنت جدير حقاً بأن تسير على هداه؟ أنه لم يقدم على المساس بامتيازات العذارى المقدسات، وملأ المناصب الكهنوتية بالنبلاء، ولم يرفض تقديم نفقات المراسم (الطقوس) الرومانية واقتفى أثر السناتو المبتهج عبر شوارع المدينة الخالدة، وراح يشاهد باقتناع كامل الأحرام.. واستفسر عن نظام المعابد، وأبدى إعجابه بمن شيدوها. وعلى الرغم من أنه هو نفسه مال إلى عقيدة أخرى، إلا أنه مع ذلك سمح ببقائها عقيدة للإمبراطورية، فقد كان يؤمن أن لكل إنسان تقاليده، ولكل طقوسه، ذلك أن العقل الإلهى قد جعل لكل مدينة حراسها وعباداتها، وكما أن الأرواح توهب للأطفال بالميلاد منفصلة، كذلك العبقرية تمنح للأناس حسب أقدارهم . وهنا يأتى هذا كبرهان للإنسان ودليل على الأرباب. ومن ثم فإنه مادامت عقولنا قاصرة، فمن أى شىء إذن نستقى معلوماتنا الصحيحة عن الأرباب إذا لم نأخذها من الذاكرة ودلائل السراء؟ وعليه.. فإذا كانت القرون قد أعطت للتقاليد الدينية سلطانا مكينا، فمن واجبنا أن نحفظ الإيمان على مر العصور، وأن نترسم خطى أسلافنا، كما اتبعوا هم سعداء سنن الأجداد.

"ولنفترض الآن أن روما جاءتك تسعى وراحت تحاورك قائلة: "أيها الأمير العظيم.. إن آباءك قد حفظوا على دهرى وقدموا إلى طقوس التقوى، فلتدعنى أحيا بشعائر الآباء حتى لا أشعر بالندم عليهم والأسى. دعنى أحيا حسب سننى.. فهذه إرادتى، إن هذه العقيدة قد أخضعت العالم لنظمى، وهذى المقدسات قد ردت هانيبال عن أسوارى، والسينونيين عن الكابيتول محرابى، أتراني كنت أدخر هذا لألام من أجله فى خريف عمرى؟ لسوف أضع فى اعتبارى أى فكر أو قصد يراد به إقرار النظام وإن كنت أعلم أن الرتابة والمهانة هما رفيقا شيخوخة العمر".

(٦٧) جوليان.

وهذه العبارات تمثل قمة الذكاء واللباقة من جانب سيماخوس، الذى لابد وأنه يشير من طرف خفى إلى ما تعانيه الآن الإمبراطورية من مهانة فى عهدها المسيحى، بما نالته على يد الجرمان الذين أذلوا كبرياءها فى إدرنة ومازالوا يعيثون فى ولاياتها فساداً، بينما كانت روما فى عصرها الوثنى تسيطر على مساحات واسعة وحضارات متباينة، من بريطانيا إلى الفرات ومن الدانوب إلى النوبة. ولنواصل سيرنا مع محدثنا لنراه يقول:

"وبعد فنحن نسعى من أجل سلام أرباب آبائنا والوطن، ومن العدالة أن ينظر إلى كل العبادات نظرة سواء، ولم لا، فنحن نهتدى بنفس النجوم، والقبة الزرقاء من فوقنا واحدة. وواحد العالم ا لذى يحتوينا، وأى خلاف إلا بسبب العناء ما دام الكل ينشد الحق. إننا لا نستطيع أن ندرك السر الأعظم عبر طريق واحد، وإذا كان الجدل بين الأفراد يسيراً بصورة ما، فأنا مع ذلك لا نقدم الآن صراعاً، بل صلوات وضراعة.

"أى كسب عاد على خزانتك نتيجة تجريد عذارى فستا مما كن به يتمتعن؟ وهل يعقل أن ترفض هذه الهبات على عهد أكثر الأباطرة كرماً وسخاء بينما منحت بيد أشدهم بخلاً وتقتيراً؟ إن كرامتهن الفردية تكمن فى هذه الامتيازات، حتى ولو دعوتها أجر بتولتهن. وكما أن العصابة التى يضعنها على رءوسهن هى التاج الذى يزين مفارقهن، فإن تميزهن يعود أساساً إلى تفرغهن الكامل لأداء الطقوس المقدسة. إنهن يسعين فقط من أجل الحصول على ذلك الاسم الأجوف للإعفاء، ذلك أن فاقتهن أعفتهن من دفع الضرائب. ولعل من ينتقص شيئاً مما هو مخصص لهن، يزيد من قدرهن، ومادامت العذرية (البتولية) قد كرست أصلاً لخير بنى البشر، فإن قدرها يسمو إذا ما كانت دون عوض.

"لا تدع أى كسب من هذا النوع يدنس قدس خزانتك، لا تدع الأمراء الاتقياء يزيدون من دخولهم على حساب ما يفقده رجال الكهنوت، بل من غنائم الأعداء والأسلاب. ترى.. هل جوزى أحد خير جزاء على عار ارتكب؟ ولأن خلقك لا يعرف البخل فإن أشد الناس شقاء أولاً الذين تتضاءل مصادر دخلهم القديم. ذلك أن الأباطرة الذين يعافون التدنى كغيرهم ويبغضون البخل، لا ينالهم الضرار الذى يصيب من تحركه الرغبة فى إتيانه.

"كما أن الخزانة تحفظت على الأراضى التى أوصى بها للعذارى بمقتضى وصايا من أدركهم الموت، وأنى لأضرع إليك أن تعيد الحقوق المسلوبة لأصحابها المقدسين وللأماكن المطهرة فى مدينتك. دع الناس يكتبون وصاياهم دون قلق أو خوف، ولتكن على يقين أن ما كتب لا يمكن أن ينقض على يد حكام، الجود شيمتهم والكرم. دع سعادة الناس جميعاً بهذا الأمر تجلب البهجة إلى قلبك، لأن الأسلاف قد أقلقوا الموتى باجترائهم على الوصايا. ألا ترتبط عقيدة روما بالقانون الرومانى؟ وماذا يمكن أن نسمى ضياع هذه الممتلكات بصورة لم يسبق لها مثيل فى القانون أو الأحداث؟ لقد ذهب الأحرار بالأرث، ولم ينكر على العبيد حق الوصية، أما العذارى الأطهار وخدام الأرباب فقد حرموا حق الملكية حتى عن طريق الأرث. أى شىء إذن أكثر نفعا للصالح العام من نذر النفس للعذرية، وبقاء الإمبراطورية تحظى برعاية السماء، وضم القوى الصديقة إلى جيشك ونسورك، والتعهد بالسهر على راحة الجميع؟ ومن ثم أنعم بالعبودية إذا كانت خدمة تهدى إلى الرجال، وإلا فنحن نسىء إذن للدولة التى لا يمكن أن يكون اهتمامها محل نكران أو عقوق.

"وأرجو أن لا يظن أنى أدافع فقط عن قضية العقيدة خاصة، ذلك أن أعمالاً من هذا النوع قد تؤدى إلى كوارث لا نهاية لها للرومان. لقد كانت قوانين أجدادنا تقدر وتمجد عذارى فستا وخدام الأرباب بشىء من الاعتدال والتمييز العادل. وقد ظل هذه التفوق قائماً حتى جاء زمان الصيارفة الأدنياء، الذين حولوا الأموال المخصصة للطهارة المقدسة، إلى أجور لنفر من الحمالين والحراس، وكان نتيجة ذلك أن عمت المجاعة وحدث القحط الشديد الذى أصاب الولايات كلها بخيبة أمل بالغة، ولم يكن ذلك ذنب الأرض ولا خطيئتها، فنحن لا ننسب إلى النجوم أى تأثير أو تدخل شرير. ولم يصب المحصول بالتعفن، ولم يؤد نزق الشباب وطيشهم إلى انعدام الغلال، ولكن العام نفسه كان عاماً تعيساً من جراء تدنيس المقدسات، لأنه كان من الضرورى أن ينكر على مختلف الأمور ما أنكر على أمور العقيدة.

"ولا ريب، فإنه إذا كان هناك أى مثال على هذا الشر، فقد نعزو مثل هذه المجاعة التى تأثير الفصل ذاته، فإن رياحاً عاصفة تحمل الموت فى هزيمها كانت

السبب فى هذا الجدب، ولكن الحياة يمكن أن تحتمل بالأشجار والشجيرات، كما أن عوز المواطنين انصب أصلاً على بلوط دودونا[٦٨]. Dodona وما هو الشر المماثل الذى عانت منه الولايات ما دامت التكاليف العامة تثقل كراهية خدام الدين؟ ومتى كانت ثمار البلوط التى تعصف بها الرياح معدة ليستخدمها الأناسى؟ ومتى اقتلعت جدور النباتات، ومتى فقدت مختلف البقاع ثروتها وخيراتها فى كل النواحى؟ ومتى كان الزاد مشاعاً بين الناس والعذارى المقدسات؟ لقد كان رضى الكهان خيراً وبركة لحصاد الأرض، بل كان أكثر تأميناً من أية عطية. ترى هل هناك أدنى شك الآن فى أن ما كان يعطى حقاً لخير الجميع؟

"وقد يقول قائل إن الإعانات العامة مرفوضة فقط فيما يتعلق بالإنفاق على الديانات الأجنبية، ولكن مما لا يتفق وخلق الأمراء ذوى الصلاح افتراض أن ما يمنح من الملكية العامة لأفراد معينين يؤدى إلى ازدياد طاقة الخزانة وبالتالى تسلطها، فكما أن الدولة تتكون أصلاً من مواطنين، فإن ما يصدر عنها يعود إليها ثانية ممثلاً فى ملكية الأفراد. إن سلطانك ولا شك فوق الجميع، ولكنه أيضاً من أجل الجميع، والعدالة عندك أعظم قدراً من إرادة متعسفة، فلتعد إذن إلى نفسك الحرة ولتشاوروها فى الأمر، إن كان ما تنعم به على الآخرين يجب أن يوضع فى عداد الملكية العامة. إن الأموال التى أوقفت ذات مرة على مجد المدينة لم تعد ملكاً لأولاء الذين قدموها. كما أن الذى كان فى البداية عند منحه يعد هبة، أضحى الآن بمقتضى العرف والزمن ديناً. ومن ثم فإن من يسعى الآن جاهداً ليضع فى صدرك خوفاً زائفاً، يؤكد أنك تشارك المنعمين مسئوليتهم، إلا إذا جلبت على نفسك عار الاقدام على سحب هذه الهبات.

"إن أولاء الحراس غير المرئيين لابد وأنهم ممتنون لرحمتك، ولابد أنهم وقد قدموا يد العون للأسلاف من قبل، سوف يدفعون عنك بوجه خاص، ومن ثم فمن حقهم علينا العبادة. من أجل هذا فنحن نرجو أن يعود الوضع الذى كانت عليه العقيدة من قبل، تلك التى حفظت الإمبراطورية لأبيكم الممجد[٦٩]. وأنعمت على

---

(٦٨) يقصد ثمار البلوط من أجل الطعام.

(٦٩) فالنتينيان الأول، وقد قال عنه سيماخوس أنه لم يقض على عبادة الأرباب وإن كان لم يشارك فى أداء طقوسها أو عبادتها.

ذلكم الأمير المبارك بارث شرعى. وها هو ذا أبوك، الموقر، يشهد من عليائه عند النجوم دموع الكهان، ناظراً إلى نفسه كما لو كان محل نقد نتيجة انتهاك تلك التقاليد التى رعاها لكل إرادته.

"ولتحاول أيضاً إصلاح ما أقدم عليه أخوك الممجد تحت تأثير آخرين لإرضاء السناتو، بعد أن أصبح معروفاً أن تلك السفارة قد حيل بينها وبنيه، حتى لا تتمكن من إطلاعه على ما يبتغيه الرأى العام، ألا من أجل فخار الماضى نناشدك أن لا تتردد فى التخلى عما ثبت بالقطع أنه لا يتفق وخلاق الأمير".

والملتمس فى جملته قطعة أدبية رائعة تدور حول تراث الأسلاف وعظمة روما ومجدها الذى يتمثل بصورة مباشرة فى احترام الأرباب والحفاظ على مقدساتها، وهو يوعز إلى فالنتينيان أن يسير على سنة أبيه وعمه، فى إغضائهما الطرف عن وجود مذبح النصر هذا، "فكم هو عظيم حب التراث"، وكان طبيعياً أن يثنى سيماخوس على الإمبراطور جوليان الذى قدس هذه الأحرام المقدسة، ورد عليها اعتبارها بعد ما فعله سلفه قسطنطيوس، وبفكر الفيلسوف، يعيد سيماخوس على ذهن الإمبراطور المسلمات والبديهيات الأولى المتمثلة فى وحدة الوجود.

ويشير سيماخوس فى صراحة غير مفرطة إلى ما أصبح معتقداً لدى الوثنيين المعاصرين من الأدباء والمفكرين وحتى بعض المؤرخين اللاحقين، من أن تحول الإمبراطورية إلى المسيحية كان السبب المباشر فيما حل بالإمبراطورية من الهزائم والكوارث التى لحقت بها، وكان هذا هو الدافع الرئيسى لأن يترك القديس أوغسطين من بعد دفاعه الشهير عن المسيحية فى كتابه الرائع "مدينة الله".

والذى يدعو للانتباه أن أمبروز الأسقف الميلانى أسرع على الفور حالة سماعه بأن الخطيب الرومانى سيماخوس قد أرسل ملتمساً إلى الإمبراطور حول موضوع مذبح النصر ودخول عذارى الربة فستا، وشحذ قلمه على الفور، وكتب إلى الإمبراطور فالنتينيان رسالة عنيفة أوضح فيها أن حماية العقيدة المسيحية وليس انتهاكها هى أهم واجبات الإمبراطور(٧٠)، وأن هذا الالتماس من جانب

(٧٠) AMB, ep. XVII 3.

. سيماخوس لا يمثل السناتو كله، ولم يأت نتيجة إجماع الآراء فيه، لأن أعضاءه المسيحيين لم يوفقوا على ذلك، ولم يشتركوا فى المطالبة بما جاء فيه، ويدلل على ذلك بأن هؤلاء قد بعثوا باحتجاجهم إلى داماسوس البابا، الذى قام بدوره بإرسال احتجاجاتهم هذه إلى أمبروز ليعرضها على الإمبراطور(٧١)، كما أكد على أن استجابته لمثل هذا الرجاء سوف تلطخ سمعة أبيه وأخيه (٧٢)، ثم وضع فالنتينيان أمام الأمر الواقع وحذره صراحة بأنه فى حالة الموافقة على ما طلبه الشيوخ الوثنيون فسوف يصدر ضده قرار الحرم الكنسى(٧٣).

وليس أقدر على وصف ما تملك مشاعر أمبروز من الفزع مخافة أن يعيد الإمبراطور فالنتينيان مذبح النصر إلى سابق عهده ثانية، وأن يرد إلى عذارى فستا ما كان لهم، نقول ليس أقدر على وصف تلك المشاعر عند أمبروز.. إلا أمبروز نفسه.. فلندع له القلم هنا ليخط به فى رسالة بلاغية رائعة إلى الإمبراطور كل ما تحتويه نفسه .. قال أمبروز:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير المبارك والإمبراطور الورع فالنتينيان.. "من منا الآن ليس جنديا لهذا الإله الحق، ومن عبده بمجامع روحه وقدس، ليس من حقه أن يحمل إلى قدس خدمته رياء ولا نفاقا.. بل عبادة خالصة وإيماناً هو الإيمان، فإذا لم يكن على هذا بقادر، فلا أقل من أن يحجم عن إظهار أى رضاء عن عبادة الأوثان وطقوسها، ذلك أن أحدا لا يمكن أن يخادع الله الذى يعلم السر وأخفى.

"وبعد .. أيها الإمبراطور الورع.. فإن عليك واجبا تجاه الإله.. إيماناً وتحمساً، ألا فلترع العقيدة وتحمى المعتقد .. وإنه لمما يثير دهشتى أن أناساً داعبهم الأمل أن يكون من بين واجباتك إعادة المذابح إلى أرباب الوثن، وتوفير الأموال اللازمة لتقديم القرابين، وما ذاك إلا لما شاع طويلاً من أنك تميل – فيما يبدو – إلى أن تقدم لهم من أموالك الخاصة،، فضلاً عن الخزانة الإمبراطورية وخزانة المدينة، بدلاً من أن تسترد ما بأيديهم.

(٧١) Ibid. 10-11.
(٧٢) Ibid. 16 a, b.
(٧٣) Ibid. 13, 17.

"وإنهم الآن يشكون الضياع، وهم الذين من قبل أراقوا دماءنا، والكنائس دمروا، ثم هاهموا ثانية يطلبون إليكم أن ترفع قدرهم، وهم الذين أنكروا من قبل علينا بمقتضى قانون جوليان[٧٤] الحق فى التعلم والتعليم. هذه الامتيازات التى يطالبونها، طالما خدعوا المسيحيين بها وأوقعوا البعض من جرائها فى حبال شراكهم، إما بالغفلة، وإما بالتخلص من عبء الخدمة العامة. والنتيجة أن عدداً كبيراً منا حتى على عهد الحكام المسيحيين، قد زلت أقدامهم.

"وإذا كانت هذا الأمور ما زالت قائمة، فإنى أكاد أجزم أنها بفضل سلطانك لابد وأن تنقشع. خاصة وأنها قد حرمت من قبل بفضل كثير من الحكام فى كل أنحاء الإمبراطورية تقريباً، وكذا فعل طيب الذكر جراتيان، أخ رحمتكم، من أجل الإيمان الحق. فأزالوا بمراسيمهم فئة الضلال. وإنى لأضرع إليك.. أن لا تحدث فى أمر الإيمان ما استقر أمره، وأن لا تنقض ناموس أخيك. وهل يعقل أن أمور الدولة التى رتب شئونها لا يجرؤ أحد على أن يسمها من بعيد، بينما تطأ النعال ما أرساه فى شأن العقيدة!.

"لا تدع أحد يستغل صباك، فإذا ما كان هذا وثنياً، فليس من الصواب أن يصادر عقلك بحبال مكره، بل بالحرى يجب أن تدفعك حماسته إلى أن تتعلم كيف تكون غيوراً على الإيمان الحق، مادام هو يدافع عن الباطل بكل ما أوتى من قوة، وأنى لناصحك بأن تصغى لمن أوتى الحكمة من الرجال، وإن كان الله لا ريب فوق الجميع.

"ولنفرض مثلاً أنا رحنا نتشاور حول أمور عسكرية، فإن رأى رجل الحرب لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار، ولا بد أن تطاع آراؤه. فإذا كانت المسألة تتعلق بالدين.. كان حتماً مقضياً أن ينصرف إلى الله فكرنا. لا أحد يضار لأن الله أمامه. إنه حافظ عقله. إنك لا يمكن أن تسوق إنساناً إلى أن يعبد ما يكره قلبه. أيها

(٧٤) هذا القانون الذى يشير إليه أمبروز هنا كان يعنى فى الدرجة الأولى الإبقاء على الأطفال المسيحيين جهالاً دون تعليم، ذلك أن جوليان أصدر مرسوماً يقضى بمنع المسيحيين من القيام بالتدريس، وعهد بذلك إلى المدرسين الوثنيين الذين كان عليهم تدريس فلاسفة الوثنية، ومن ثم أمتنع المسيحيون عن إرسال أبنائهم إلى المدارس.

الإمبراطور فلتدع نفس الحرية توهب لك، ولتدع أنت كل إنسان يعايشها بكل الاحتمال، حيث لا يستطيع أن يبتز من الإمبراطور ما يجب أن يحصل عليه في يسر، إذا كان الإمبراطور نفسه تحدوه الرغبة في أن يسلبه إياها. إن أي روح خادعة لا يمكن أن يسر بها الوثنيون أنفسهم، ذلك أن كل إنسان لابد وأن تعطى له حرية التمسك والدفاع عن إيمانه وهدفه اللذين يهديه إليهما عقله.

"ولكن إذا ما ساورت أي إنسان – والمسيحيين بصفة خاصة – الظنون في أن هناك مرسوماً ما على وشك الصدور، فلا تسمح لكلمات جوفاء أن تضل عقلك، ولا لعبارات معسولة أن تخدعك. وإن كان الكل هنا – الناصح والمستمع – ضحايا، ولكن أن يُضحى بواحد فقط، لهو أفضل بكثير من أن يهوى الجميع!! إن المسيحيين من شيوخ السناتو – أيها الأمير – لفي خطر.

"ولنفرض ثانية أن إمبراطوراً وثنياً أقدم اليوم على بناء مذبح للأوثان، رغم أن الله يحرم ذلك، وأنه ساق المسيحيين قسراً إلى هناك، لينتظموا في صفوف أولئك الذين يقربون، فإن الرائحة المنبعثة من على المذبح، وتدنيس الحرمات المقدسة، ودخان المحرقات المتصاعد، لسوف يزكم أنوف المخلصين ويسد منهم الحلوق، ولسوف يدان ذلك، حيث أن عدداً من الأعضاء قد أكره على التصويت بعد أن أقسم أمام مذبح لأحد الأوثان. (لأنهم سوف يعللون ذلك بأن مذبحاً قد أقيم لهذا الغرض، وأن كل اجتماع سوف ينعقد في ظل رضائه كما يفترضون، رغم أن السناتو الآن يضم أغلبية مسيحية). غير أن المسيحي الذي اضطر إلى مثل هذا الاختيار، سوف يعتبر ذلك نوعاً من الاضطهاد غالباً ما يحدث لأنهم اقتيدوا قهرا إلى السناتو. أيها الإمبراطور.. هل كان هؤلاء المسيحيون عند اختيارك إمبراطورا قد أكرهوا على القسم أمام مذبح وثني؟ وما القسم إلا أن يكون اعترافاً بسلطان الإله الذي تبتهل إليه، وهو على إيمانك رقيب. ولكن ما أن غدوت إمبراطوراً حتى أصبح هدفاً لدى البعض منشوداً أن تأمر ببناء مذبح، وأن تقدم نفقات القرابين.

"غير أن هذا لا يمكن أن يحدث دون انتهاك للحرمات المقدسة، ومن ثم فإني أضرع إليك أن لا تصدر مرسوماً بهذا أو تأمر به، أو أن توقع على أي مرسوم بهذا الخصوص. وأنا باعتباري كاهناً للمسيح، أستجير بإيمانك، بل إن كل الأساقفة سوف يتضافر جمعهم عائذين بك، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر مفاجئاً أو غير

صادق، لأن مسألة كهذه لابد وأن تطرح للمناقشة فى حضرتك، أو أن يقدم بها إليك السناتو ملتمسا. ولكنى أستبعد أن يكون السناتو قد أقدم على مثل هذا، ولا يعدو الأمر أن جماعة الوثنيين به استغلوا فى ذلك اسمه، ذلك أنه منذ حوالى عامين مضيا، عندما جرت مثل هذه المحاولة، بعث إلى المقدس داماسوس أسقف الكنيسة الرومانية المختار بأنهم يشجبون هذا المطلب من جانب الوثنيين، ويعلنون صراحة وفى شجاعة أنهم لن يحضروا اجتماعات المجلس إذا ما صدر مثل هذا القرار. إذن هل يليق بك كمسيحى، أن يجرد الشيوخ المسيحيون من كرامتهم، من أجل إضفاء نفوذ على تلك الإرادة الدنسة للوثنيين؟ وقد أرسلت بهذه المذكرة إلى أخيكم وكان واضحاً منها، أن السناتو لم يصدر أية أوامر حول تكاليف هذه الخزعبلات.

"ولقد يقال أين كانوا عندما نوقشت هذه الالتماسات فى السناتو؟ وكيفما كان الأمر ففيما قالوه للإمبراطور الكفاية. وإنى لأعجب، إذ استطاع أولئك الأفراد تجريد غيرهم فى روما من حق الاعتراض، من تراه لا يرغب فى أن تكون لك الحرية كى لا تأمر بما تراه حسناً أو أن تستمسك بالذى عليه فكرك؟

"ومن ثم فإنه لا يسعنى، وما زالت ذاكرتى تعى تلك المهمة التى عهد بها إلى مؤخراً [(٧٥)]. إلا أن ألوذ بإيمانك مرة أخرى، وأناشد فيك مشاعرك ألا تستجيب لرغبة الوثنيين هذه ، أو تركن إلى أى نوع من انتهاك المقدسات بتوقيعك على هذه الملتمس، وليكن رائدكم فى ذلك، أب رحمتكم، الإمبراطور ثيودوسيوس الذى اعتدت أن تسأله النصح فى كل الأمور ذات الأهمية الخاصة. ولا شىء أهم من العقيدة، ولا شىء أعظم من الإيمان.

"وهب أن هذا الأمر كان قضية مدنية، فمما لا شك فيه أن حق الاعتراض سوف يكون مكفولاً للخصوم، فما بالك وهذه قضية الدين. وها أنذا أسقف (ميلانو) أرفع الدعوى. فلتسمح لى بالحصول على نسخة من الالتماس المقدم من الوثنيين حتى أستطيع أن أعد ردى عليه. ولتسمح لأب رحمتك (ثيودوسيوس) أن يقف على هذه القضية بكل تفاصيلها، وأن يتعطف بالرأى فيها. وليكن معلوماً، أنه إذا ما

(٧٥) يشير بذلك إلى الرسالة التى بعث بها إليه داماسوس طالباً أن يقدم الالتماس الذى وضعه رجال السناتو المسيحيون إلى جراتيان.

صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا. وقد تأتى إلى الكنيسة، ولكنك لن تلقى فيها كاهناً، ولا أحـداً حتى يعترض سبيلك.

"وبم ستجيب الكاهن إذا راح يحاورك: "أن الكنيسة ليست فى حاجة إلى عطاياك، ما دمت قد زينت معابد الوثن بمثل هذه العطايا. إن مذبح المسيح يرفض قربانك يا من أقمت للأوثان مذبحاً، لأن الصوت صوتك. وهذى يداك، وهذه بصماتك.. وتلك فعالك. الرب يسوع يعرض عن قداسك يا من تقوم على خدمة الأصنام، وهو الذى يخاطبك قائلاً: "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين[٧٦]."أن العذارى اللاتى نذرن لله أنفسهن لم يحصلن على امتيازات، بينما عذارى فستا بها يتنعمن، فلماذا إذن تبحث عن كاهن للرب الذى عليه آثرت دعوى الوثنيين الزائفة؟ إنا إذن لا نشارك الآخرين آثامهم.

"كيف إذن ستجيب على ما تقدم؟ من تراه مثلك يسقط إلا أن يكون صبياً؟ إن كل عمر فى المسيح تام.. وكل أجل عند الله مكتمل. ليس فى الإيمان طفولة، لأنه حتى الأطفال، اعترفوا بالمسيح فى وجه مضطهديهم بفم غير مرتعش.

"وبم ستجيب أخاك.. ألن يقول لك: "لم أشعر أنى قد توليت، لأنى تركتك إمبراطورا، لم أحزن عندما حان حينى، فقد رأيت فيك إرثى. لم أنتحب عندما خلعت عنى عباءتى الإمبراطورية، وكيف وقد أيقنت أن كل ما أقررت، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، سوف يبقى ما بقيت الحياة. لقد أقمت نصب الرحمة والفضيلة وطرحت كل ما غنمت ممن هو للجميع عدو. وفيها يكمن النصر الأبدى. ترى أى شىء إذن أكثر من هذا يمكن أن يسلبه عدوى منى؟ لقد ألغيت مراسيمى، وفعلت ما لم يفعله ذلك الذى رفع راية العصيان فى وجهى [٧٧]. ألا ترى معى الآن أنى قد تلقيت طعنة نافذة بيد أخى عندما انتهك قراراتى؟! وإذا كان جسدى قد واراه التراب، لأنك تلطخ الآن أفضل ما بقى لى.. سمعتى. حقيقة لقد ضاع سلطانى،

---

(٧٦) متى ٦/٢٤.

(٧٧) ماكسيموس.

ولكن الذى يشق على نفسى أنه يضيع بيد أسرتى، وهذا الذى يضيع شهد به من قبل أعدائى. إنك إن أطعت هواك، انتهكت الإيمان الذى كان معتقدى، وإذا استسلمت دون إرادة، كنت لنفسك خواناً. إن أشد ويلاتى التى أكابدها، إن مصيبتى فيك هى المصيبة.

"بل كيف ستواجه أباك وهو يسألك والحزن يعتصر منه الفؤاد: "ولدى.. لقد أعييتنى عندما ظننت أنى عن الوثنية تغافلت. إن أحدا لم يخبرنى أن هناك مذبحاً مقاماً فى مجلس السناتو ولم يدر بخلدى مطلقاً مثل هذه الخبائث. أعنى تقريب الأضحيات للأوثان، والمسيحيون والوثنيون فى اجتماع مشترك، ،أو أن يقال إن الوثنيين تعمدوا إهانة المسيحيين الحاضرين، وأن المسيحيين الآخرين أكرهوا على المشاركة فى ذلك. لقد وقع كثير من الجرائم فى عهدى. وقد قضيت فى كل بما تكشف. فإذا كان أحد قد أفلت، أمن الواجب أن يقال إنى استحسنت أن أحداً لم يخبرنى. مرة أخرى إنك تسىء إلى إذا ما سمحت لخرف الخزعبلات أن تسود الإمبراطورية ولم تحفظ عليها إيمانى.

"وبعد أيها الإمبراطور .. فقد رأيت أنك إذا أقدمت على شىء من هذا، فإن ضراراً لا حصر لها لا محالة واقعة.. أولها بالله يلحق.. ومن بعد بأبيك وأخيك. وإنى لأضرع إليك أن تفعل ما تعرف أنه سوف يكون سبباً فى خلاصك أمام الله".

ومن استعراض هذه الرسالة يتضح لنا أنها تشتمل على نقاط ثلاث، الأولى يخاطب فيها جانب الإيمان المسيحى فى الإمبراطور فالنتينيان، مبيناً أن الملوك جميعهم يستمدون سلطانهم وقوتهم من الله وحده، الذى يمكنه فى الوقت نفسه أن يسلبهم كل ما بأيديهم، وهذه وإن كانت لا تشير إلى الإمبراطور صراحة، إلا أنها تومئ إلى أن الله قادر عن طريق رجاله – نعنى كما يعنى أمبروز – رجال الكنيسة، التصدى لمن يخرج عن تعاليمه.

وأمبروز فى رسالته يخلع على الإمبراطور صفات التقوى والورع والجلال، ويخاطبه بـــ "الأمير المبارك"، و"الإمبراطور الورع"، ويحدد فى الوقت ذاته مهام

الحاكم وواجبه الأساسى الذى يتركز فى حماية العقيدة والحفاظ عليها ضد من يحاولون انتهاكها من عبدة الأرباب هؤلاء.

ويضرب له مثل الرجلين، أباه وسميه فالنتينيان الأول وأخاه جراتيان، اللذين نذرا نفسيهما – فى رأيه – للدفاع عن المسيحية، رغم أن أمبروز يذكر فى رسالته أن الأب – فالنتينيان – الأول ترك المذبح فى مكانه "لأنه لم يعلم بوجوده ولم يخبره أحد بذلك!! "كما جاء على لسان فالنتينيان فى الرسالة هذه، وهذا لا يتفق بطبيعة الحال مع ما ذكرناه آنفاً عن شخصية فالنتينيان الأول وسياسته تجاه المشكلات الكنسية والعقيدية عامة.

أما النقطة الثانية التى تضمنتها الرسالة فتتمثل فى أن أمبروز يطلب إلى فالنتينيان الثانى عرض القضية على الإمبراطور ثيودوسيوس، باعتباره – حسب تعبيره – ناصحه الأمين، حتى "يتعطف بالرأى فيها". وهنا تنتقل الرسالة تدريجياً إلى مرحلة أخرى فى مخاطبة الإمبراطور، فبعد الحديث عن الإيمان وسلطان الله، يقحم أمبروز ثيودوسيوس على القضية حتى يصبح حكماً فيها، وذلك لما يعلمه عن هذا الأخير من تعلق بالمسيحية النيقية وقوة الشخصية، ولكن الأهم من هذا كله أنه يعلم يقينا مدى الحرج السياسى الذى يعانيه فالنتينيان الثانى من جراء مقتل أخيه وتهديد المغتصب ماكسيموس بغزو إيطاليا، والاحتياج الكامل من جانبه للعون العسكرى والتأييد المادى والمعنوى من ناحية إمبراطور الشرق لإنقاذه من مخططات ماكسيموس، ومن ثم فإن الإمبراطور الصبى لابد وأن يخضع طوعاً أو كرهاً لما يقرره ثيودوسيوس، والذى سوف يأتى بالطبع موافقاً لكل ما يريده الأسقف الميلانى، وأمبروز يعبر عن ذلك صراحة بقوله: "وليكن معلوماً أنه إذا ما صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا، وهذا القول يأتى مباشرة بعد طلب تدخل ثيودوسيوس، ومن ثم فالمقصود بـــ "الرأى الآخر" هنا هو أى قرار يصدر مخالفاً لرأى الإمبراطور فى الشرق، وهذا فى حد ذاته يمثل تهديداً مستتراً لفالنتينيان.

وهنا ينتقل أمبروز تلقائياً ومباشرة إلى النقطة الثالثة وهى التهديد المباشر للإمبراطور الصبى باللعنة والحرم الكنسى إذا ما أجاب الوثنيين إلى مطلبهم،

وعلى هذا النحو أقفل أمبروز كل المنافذ أمام الإمبراطور، بحيث لا يسعه فى النهاية إلا أن يرفض ما جاءه الوثنيون من أجله.

ويشير أمبروز فى رسالته هذه إلى أن سيماخوس لا يمثل الأغلبية فى مجلس الشيوخ الرومانى، لأن الأغلبية الآن – حسب تعبيره – مسيحية، وهذه مغالطة تاريخية، فحتى هذا التاريخ كان المسيحيون فى الإمبراطورية كلها يمثلون الأقلية، وإذا كان الشرق نفسه مهد المسيحية على هذا النحو أو هو أقرب، فالأحرى أن يكون الغرب وثنياً فى معظمه، وكانت الأرستقراطية الرومانية والنبالة وأعضاء مجلس السناتو، لا يزال كثيرون جداً منهم أو غالبيتهم بتعبير أدق، يتمسكون بالوثنية باعتبارها تراثاً رومانياً صادقاً وأصيلاً فى نفوسهم، وأن التخلى عنها يعنى الخروج من العباءة الرومانية.. ومن ثم فإن ما يذهب إليه أمبروز هنا لا يمثل الحقيقة فى شىء، حيث كان سيماخوس الخطيب الرومانى، ومحافظ العاصمة القديمة، يمثل بحق زعيم الأغلبية الوثنية فى مجلس السناتو.

وقد طلب أمبروز إلى الإمبراطور أن يمده بصورة من ملتمس سيماخوس حتى يمكنه الرد عليه جملة وتفصيلاً، وقد أجابه الإمبراطور إلى طلبه. ولم يلبث أمبروز عندما حصل على صورة من هذا الملتمس[٧٨] أن كتب رسالته الثانية إلى فالنتينيان حول هذا الأمر، يرد فيها على كل ما أورده سيماخوس، ويفند مطالبه وما ذكره حول عظمة روما الوثنية والفخار الذى نالته، ويدلل على ذلك ببعض الأحداث التاريخية التى تتمثل فى الحروب الأهلية بين الفيالق العسكرية الرومانية، أو وقوع بعض الأباطرة أسرى فى يد أعداء الإمبراطور [٧٩]، ويقول على لسان روما رداً على ما قاله خطيب السناتو: "لم تلطخون جبهتى دواماً بتلك الدماء المراقة عبثاً لهذى القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة المحاربين.. لماذا تضعون دائماً فى المقدمة مقدسات أسلافى؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبى.. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبط باراقة دماء البهائم، لماذا. إذن تبحثون عن وحى الله فى الحيوانات المائتة؟ اذهبوا

(٧٨) AMB. Ep. XVIII 1.

(٧٩) AMB. Ep. XVIII 7.

وعلموا الأمم كيف يكون جهاد السماء.. نحن هنا نحيا.. وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى، يعلمنى أسرار السماء، وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه"(٨٠).

وقد جاءت رسالة أمبروز هذه مطولة، ولكنها تكشف فى كل فقرة من فقراتها عن مدى الغيظ والغضب الذى تملك الأسقف من مطالب السناتو فى روما ومخافة أن يستجيب فالنتينيان لالتماسهم، وهو يعبر عن ذلك صراحة فى الفقرة الأخيرة من الرسالة حين يقول "لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى، على الرغم من أننى لا أستثار، فهدفى الأساسى ليس إلا شجب هذا الالتماس"(٨١). ولذا جاءت الرسالة عنيفة وصارمة، بحيث لم تدع للإمبراطور فالنتينيان أى فرصة للتردد فى رفض هذا النداء والرضوخ لتوجيهات الأسقف الميلانى أمبروز. ولم يكن رفض الإمبراطور لملتمس السناتو صادراً عن عقيدة دينية خالصة، ولكن خوفاً من تهديدات أمبروز بالحرمان الكنسى، وهو القرار الذى كان سيفاً مصلتاً على رقاب الأباطرة فى الغرب طيلة العصور الوسطى، وما يستتبع ذلك القرار من إحلال الرعية من ولائها لإمبراطورها وعزله. يضاف إلى هذا سبب أخر كان الدافع المباشر فى اعتقادنا وراء موقف فالنتينيان. فهذا الملتمس قدم فى عام ٣٨٤، وفى هذا العام كان الإمبراطور وأمه يسعيان بكل الرجاء لدى أمبروز ليقوم بسفارته إلى ماكسيموس فى غالة، موفداً من قبلهما، ليطلب إليه عدم التقدم بقواته نحو إيطاليا، وليتركها لفالنتينيان وأمه، لقاء الاعتراف به إمبراطوراً شريكاً، خاصة وأن ثيودوسيوس كما علمنا، كان مشغولا بمشاكل أقاليمه فى الشرق والتى لم يفق منها إلا فى نهاية ٣٨٧ . وقد استجاب الأسقف لنداء جوستينا وفالنتينيان، وارتحل للقاء ماكسيموس، وقد حققت هذه السفارة الأولى للأسقف إلى غالة نجاحاً جزئياً، إذ أخرت لسنوات ثلاث قادمة مهاجمة ماكسيموس لإيطاليا. وعلى أية حال، فإن الإمبراطور كان على استعداد تام، وسط هذه الظروف السيئة التى تحيط به فى الغرب، وانشغال القسطنطينية عن مساعدته ولو إلى حين، أن ينفذ بدقة كل ما يأمره به الأسقف أمبروز.

---

(٨٠) Id.

(٨١) Ibid. 39.

ولعله من الأهمية بمكان هنا أن نعود أدراجنا إلى حضرة الأسقف الميلانى أمبروز، ونصغى إليه بكل الاهتمام، وهو يتناول كل كلمة وردت فى ملتمس سيماخوس ليرد عليها، وسوف ندرك للوهلة الأولى أن رد أمبروز يعد لوحة بلاغية راقية أراد بها صاحبها أن تقف مناظرة للوحة سيماخوس فى ملتمسه، ومن ثم آثرت أن أورد هذه الرسالة كاملة – رغم طولها – لنرى صورة من أخريات صور الأدب فى العصر الرومانى الأخير، من خلال رسالتى سيماخوس وأمبروز، رغم ما يقوله هذا الأخير من أنه لن يلجأ مطلقاً إلى الصنعة اللفظية، ولكن رسالته جاءت بإرادته عكس ما ذكره.

كتب الأسقف الميلانى يقول :

"من أمبروز الأسقف إلى الأمبر المبارك، والإمبراطور الرحيم فالنتينيان أوغسطس".

"مذ علمت أن المبجل سيماخوس، محافظ المدينة، قد بعث إلى رحمتكم ملتمساً إعادة المذبح الذى كان قد أزيل من مبنى السناتو فى روما، وأنت أيها الإمبراطور وإن كنت ما تزال فى مقتبل العمر والخبرة، ولم تتمرس بعد فى أمور العقيدة، ومع ذلك رفضت ضراعة ذلك الوثنى، أقول إنى منذ علمت ذلك تقدمت على التو أطلب نسخة من هذا الملتمس، رغم أنى كنت قد حددت عدة نقاط كان لابد منها فى هذا الخصوص.

"ومن ثم فإن الشك لا يساورنى فى صدق إيمانك، وإن كان القلق يتملكنى حول مدى خطورة هذا الأمر، ولذا فإنى أقدم فى هذه الرسالة ردى على ما جاء فى ذلك الملتمس، مبتعداً عن التصنع فى الأسلوب الذى لست أنت الآن فى حاجة إليه بقدر ما تبتغيه من معرفة الحقيقة، مقتفيا فى ذلك ما علم به الكتاب المقدس من أن لسان ذوى الحكمة أشبه شيء بالذهب، يتألق بكلمات براقة، ويفوه بعبارات ساحرة، يأخذ بالألباب ويبهر العيون. هذا الذهب إذا قدرته حق قدره، فإن قيمته تظل بادية للعيان داخل دائرة المعادن. أتوسل إليك أن تمعن الفكر جيداً وأن تفحص بدقة كل ما يتعلق بالوثنيين، أحاديثهم، همساتهم، أقدارهم، ولتقف إلى جانب ما تعتقد – دون مشقة – أنه الحق. إنهم يتحدثون عن الله ويعبدون الأوثان.

"لقد حدد محافظ المدينة المبجل فى التماسه ثلاثة افتراضات يعتبرها من الأهمية بمكان، وهى أن روما – كما قال – تنادى بعودة مقدساتها ثانية، واستمرار إجراء الهبات على كهنتها وعذارى فستا، ووقوع المجاعة عقب رفض دفع مخصصات الكهنة.

"ففى افتراضه الأول تبدو روما حزينة تخنق كلماتها العبرات وهى تشكو طالبة عودة مقدساتها التى تتعلق بطقوسها القديمة، ويضيف أن هذه المقدسات هى التى ردت عن الأسوار هانيبال وأبعدت السينونيين[٨٢]. عن الكابيتول. بينما اتضح للعيان فى الوقت ذاته مدى ما عليه هذه المقدسات من ضعف وخذلان، ذلك أن هانيبال طالما أهان هذه الآثار الرومانية المقدسة، وتمكن من الوصول إلى أسوار المدينة، بينما الأرباب كلها تدفع عنها، فلماذا إذن يكلفون أنفسهم مشقة معاناة الحصار إذا كانت أربابهم تتولى حمايتهم؟

"ولماذا أحدث عن السينونيين، وهم الذين تمكننوا من الوصول إلى قلب الكابيتول؟ آخر ما كان قد بقى للرومان دون أن يتعرض لهم أحد. فلتنتظر إذن بأى نوع من الأرباب كانت معابد الرومان تحتمى ؟ أين كان جوبتر آنذاك؟

"ولكن لماذا أنكر على الرومان أن آثارهم المقدسة كانت تحارب من أجلهم؟ فلقد كان كانيبال هو الآخر يعبد نفس الأرباب. دعهم إذن يختارون ما تهوى أنفسهم، فإذا ما وقفت هذه الأرباب إلى جانب الرومان فإنها بالتالى تكون قد قلبت للقرطاجنيين ظهر المجن، أما إذا حالف النصر القرطاجنيين، فلابد أن تكون الآلهة قد تخلت عن الرومان.

"ولنفرض أن شكاية الرومان المغرضة هذه قد وصلت إلى غايتها، فإن روما نفسها لا يمكن أن تقدم على مثل ذلك، لأنها لابد وأن تتحدث بأسلوب آخر. إنها سوف تقول: "لم تلطخون جبهتى دواماً بتلك الدماء المراقة عبثاً لهذى القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة

(٨٢) اسم يطلق على قبيلتين غاليتين قديمتين، الأولى فى غالة والثانية فى إيطاليا حارب الأولى يوليوس قيصر بين عامى ٥٣–٥١ ق.م. فى غالة أما الثانية فقد هاجمت روما واحتلتها سنة ٣٩٠ وظلت فيها حتى تم طردها سنة ٢٨٣ ق.م. على يد كورنيليوس دولا بللا.

المحاربين. لقد أخضعت العالم بأسلوب مغاير تماماً. لقد كان كاميللوس[٨٣]. Camillus هو قائدى الذى ذبح أولئك الذين استولوا على صخرة طاربيا[٨٤]. Tarpeia وأعاد ثانية تلك المقدسات التى سلبت من الكابيتول. إن الشجاعة هى التى دفعت بأولاء الأعداء إاى الحضيض حيث لم ينفعهم دينهم. وماذا أقول عن آتيليوس[٨٥]. Regulus Attilius الذى أسلم الروح شهادة؟ ولم يجد الأفريقى[٨٦] نصره على مذبح الكابيتول، بل حققه على صفوف هانيبال. لماذا تضعون دائماً فى المقدمة مقدسات أسلافى؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبى. ولماذا أكلف نفسى عناء الحديث عن أباطرة لم يدم حكمهم أكثر من شهرين[٨٧]. أباطرة ترتبط نهاية عهودهم ببدايتها؟ وهل يعد من قبل المصادفة عبور البرابرة لحدودى؟ وهل كان هؤلاء الذين جرت على أيديهم أحداث لم يسبق لها مثيل، مسيحيين مخلصين؟ لقد وقع أحد الأباطرة فى أيديهم أسيراً [٨٨]، بينما ظهر للعالم على عهد آخر أن مقدساتهم التى وعدتهم النصر محض زيف وضلال. ألم يكن هناك ساعتها مذبح النصر؟ إنى لأبكى الآن على هذا السقوط الذى آل إليه مصيرى. إن عمرى المديد قد ارتبط بهذه الدماء المراقة عاراً. وليس يخجلنى أنى تحولت إلى المسيحية مع

---

(٨٣) دكتاتور روما عام ٣٩٦ ق.م هزم الاتروسكيين، وحقق انتصاراً ثانياً على الغال عندما هاجموا روما سنة ٣٩٠. توفى سنة ٣٦٥ ق.م.

(٨٤) على الطرف الجنوبى الغربى لتل الكابيتول، اختيرت ليلقى الخونة عليها الإعدام.

(٨٥) هو قائد وقنصل رومانى فى عامى ٢٦٧ ق.م، ٢٥٦ ق.م. هزم الأسطول البونى إبان الحرب البونية الأولى، وكانت شروطه للصلح قاسية دفعت القرطاجنيين إلى الاستمرار فى الحرب، وقد هزم فى عام ٢٥٥ ووقع فى الأسر وظل أسيراً، ثم أرسل إلى روما للتفاوض حول السلام أو تبادل الأسرى عام ٢٥٠، ويقال أنه أوحى للسناتو برفض الاقتراحين، ثم عاد إلى قرطاجة وعذب حتى مات.

(٨٦) سكيبيو.

(٨٧) لعله يشير هنا على سبيل المبالغة البيانية إلى جالبا Galpa وأوتو Otho وفيتليوس Vitellius الذين لم يدم حكمهم فيما بينهم أكثر من ثلاث سنوات، أو ربما إلى برتيناكس Pertinax وخليفته جوليان اللذين قتل كل منهما خلال ثلاثة شهور من حكمه.

(٨٨) يشير هنا إلى الإمبراطور فاليريان Valerianus الذى وقع أسيراً فى يد الفرس عام ٢٦٠ وعومل معاملة غير كريمة. أما الآخر فهو جاللينوس الذى أعلن عدد من قواده التمرد عليه وعرفوا باسم "الطغاة الثلاثة" وراحوا يمارسون سلطة مستقلة، وقد بذل جاللينوس محاولات كثيرة للقضاء عليهم ولكن دون جدوى.

العالم كله فى هذا العمر. وليس هناك فى الحقيقة عمر يعد متأخراً على التعلم، فليبق إذن هذا العمر المتقدم مصدر خجل لمن لا يرغب فى إصلاح أمره، وليس امتداد العمر شيئاً يستحق المديح بقدر ما تستحقه الأخلاق، وليس هناك عار فى التحول إلى الأفضل. لقد كان هذا فقط هو الذى يربطنى بالبرابرة فى ماضى الزمان، ذلك أنى لم أكن أعرف الله. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبط باراقه دماء البهائم، لماذا تبحثون عن وحى إله فى الحيوانات المائتة. اذهبوا وعلموا الأمم كيف يكون جهاد السماء، نحن هنا نحيا، وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى يعلمنى أسرار السماء وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه. من أحق من الله أن يصدق فيما به هو يتعلق ؟ وكيف أصدقكم يا من تعترفون أنكم لا تعلمون شيئاً عمن إياه تعبدون؟

"ولقد قال أيضاً، إن طريقاً واحداً لا يمكن أن يقود إلى معرفة السر الأعظم، ولكن الذى لا يعرفه، نعرفه نحن بوحى الله. وما تبحث عنه بالوهم والخيال نجده نحن فى حكمة الله والحق. إن طرائقك من ثم لا تتفق وطرائقنا، إنك تسعى لسلام أربابك من خلال الأباطرة، أما نحن فننشد سلام الأباطرة أنفسهم من خلال المسيح. إنك تعبد ما صنعته يداك ولكننا نؤمن أنه من الكبائر أن نقارن شيئاً ما مهماً كان بالله. لقد شاءت إرادة الله أن لا يعبد فى حجر. وباختصار فإن فلاسفتكم أنفسهم قد سخروا مما تفعلون.

"فإذا ما أنكرت كون المسيح إلهاً، لأنك لا تعقل أنه مات (حيث تجهل أن الموت كان للجسد وليس للألوهية) أى نزق أكثر من أن تمجد كل مهين، وتحقر ما يجب أن توقر، ذلك أنك تجد فى قطعة من الخشب إلهاً لك. يالمهانة هذه العبادة!! إنك لا تؤمن أن المسيح يمكن أن يموت، أى ضلالة تلك؟!

"إنه يقول: ألا فلتعد المذابح إلى بهائها، وإلى أحرامها المقدسة، الزخرف. ألا فلتترك ذلك لإنسان يشاركهم خرف خزعبلاتهم، أما أنت كإمبراطور مسيحى فقد تعلمت أن تقدس مذبح المسيح وحده. لماذا تراهم يصرون بأيد نقية وشفاه نقية على الاحتفاظ بالكهان لمعابدهم؟ ألا فليردد إمبراطورنا اسم المسيح وحده، وليتحدث عنه دون غيره، الذى هو به أعلم، لأن "قلب الملك فى يد الرب"[٨٩]. ترى

(٨٩) أمثال ١/٢١.

هل أقام أى إمبراطور وثنى للمسيح مذبحا؟ بينما هم يطالبون بعودة أشياء يريدون أن يثبتوا لنا بها أى تقدير واحترام يجب أن يقدمه أباطرة مسيحيون لما هم يعبدون، ما دام غيرهم من أباطرة الوثن قد قدموا لخزعبلاتهم كل ما هم عليه قادرون.

"لقد سرنا الطريق منذ زمان، وها هم الآن يقتفون أثر مَن من قبل لفظوهم. إنا لنباهى بأنا قدمنا دماءنا بينما هم يسعون من أجل النفقات، نحن نعتبر ذلك نصراً لنا على حين يضعونها هم فى موقف الخسران. إنهم لم يقدموا لنا شيئاً أكثر نفعاً من إقدامهم على جلد المسيحيين ونفيهم وذبحهم، إن الإيمان يقدم جزاء الحسنى لمن لا يتطرق إليه الظن أنه يعانى عقاباً. أنظر إلى عظمة أرواحهم!! إننا نزداد من خلال ما نفقد، من خلال ما يعوزنا، من خلال إنزال الاضطهاد بنا، فى الوقت الذى يعتقدونن فيه أن طقوسهم لا يمكن أن تدوم دون هبات.

"وإنه ليقول : ألا فلتعد إلى عذارى فستا امتيازاتهن، دعهم يقولون هذا فإنهم لا يستطيعون إدراك أن العذرية يمكن أن تبقى دون مكافأة. دع أولئك الذين لا يثقون فى الفضيلة، يبحثون عنها فيما يسكبون. ولكن كم من العذارى قد حصلوا فعلاً على ما وعدوا به من جزاء؟ إنهم بالكاد لا يجاوزون سبعاً. ولكن انظر من بعد إلى ذلك العدد الكبير ممن زينت رؤوسهن بالضفائر والأكاليل. وإلى صباغ أرديتهن الأرجوانى، وإلى أبهة المحفة وقد أحيطت بزمرة التابعين، وإلى عظمة الامتيازات، وسعة العائد. ما ذا لو جمع هذا كله مع الزمن المقرر للعذرية.

"ألا فليرفعوا عيون الروح والجسد، ألا فليرقبوا أولئك المتضعين الأتقياء وجماعة العذارى. إن الضفائر والأكاليل ليست هى التى تزين رؤسهن، ولكنه خمار مشترك تزينه العفة، وغواية الجمال لا تنشد لذاتها بل تطرح جانباً، لا شىء من هذه الأشعرة الأرجوانية، لا أبهة ولا رفاهة، ولكن تعبد وصيام. لا امتيازات، لا منفعة، كل شىء على هذه الشاكلة قد يظن الإنسان أنه كامن فى المتعة والهناء لا تجده عند هؤلاء إلا فى أدائهن لواجباتهن. وهذا الأداء هو الذى يجلب السعادة والهناء. والعفة ترسخ والطهارة بالتضحية. والعذرية لا يمكن ابتياعها بثمن، ولا تحفظ إلا من خلال حب للفضيلة أو تعلق بها، ذلك أنه لا تعد طهارة تلك التى تشترى فى مزاد من أجل النقود. أو هذه التى تقدم لبعض زمن. إن أول نصر

تجنيه العفة التغلب على شهوة المال، وذلك أن السعى من أجل الكسب هو السبيل إلى الدنو. ومع كل هذا، دعنا نقدم تلك الأعطيات للعذارى بسخاء، فأى مبلغ إذن سوف يفاض به على المسيحيين؟ وأى خزانةسوف تكفى لسداد ذلك؟ وإذا ما ظنوا أن تلك الهبات سوف تقدم فقط لعذارى فستا، ألا يغشاهم الخجل من أنهم ادعوا لأنفسهم كل شيء على عهود الأباطرة الوثنيين، بينما يظنون أنه ليس من حقنا أن نشاركهم فى شيء على عهود الأباطرة المسيحيين؟

"إنهم يشكون كذلك من أن الدعم العام لا يمتد إلى كهنتهم وخدام أربابهم. وأى عاصفة من الاحتجاج ثارت حول هذا الأمر بالذات، بينما أنكر علينا من ناحية أخرى حتى ميراث الملكية الخاصة بمقتضى عدد من القوانين صدرت مؤخراً (٩٠). ومع ذلك لم يشك منا أحد، لأنا لا نعد ذلك ضرارا ألم بنا، والحزن لا يتملكنا على شيء فقدناه. وإذا ما سعى أسقف إلى التخلص من الأعباء المدنية (٩١)، فإن عليه فى الوقت ذاته أن يتخلى عن كل ما كان يمتلك. وإذا كان الوثنيون يعانون مثل هذا، فكيف إذن يبررون شكايتهم، ذلك أن الكاهن عليه أن يبتاع الوقت اللازم لممارسة وظيفته لقاء فقدان كل ما فى حوزته، وعليه أن يشترى سلطان وظيفته العامة هذه على حساب أملاكه الخاصة، وعليه أن يجد العزاء لنفسه فى رضا رعيته عوضاً عن قيامه بصلاة الليل من أجل خلاص الجموع، ذلك أنه لا يبيع الخدمة بل يحصل على الكرامة.

"قارن إذن بين هذه الأوضاع، إنك تجد فى نفسك الرغبة لالتماس العذر لقائد عشرة بينما لا يسمح للكنيسة أن تبرىء ساحة أحد قساوستها. لقد كتبت الوصايا من أجل كهنة المعابد، لم يستثن أحد من أولاء الكافرين، ولا من أولئك الأدنياء. أو أى

(٩٠) وهو القانون الذى صدر عن فالنتينيان فيما يتعلق بالأساقفة، والذى قال عنه جيروم .HIER Ep. LII ad Nepotianum "لا أشكو من القانون، ولكن ما أحزننى أننا قد أهلنا بذلك لوضع لا نحسد عليه، بينما عمليات النهب والسلب تجرى بلا رادع". وكانت الإمبراطورية منذ بدأت تتحول للمسيحية غداً الأساقفة شخصيات لها حسابها ووزنها، وتضاعفت بمرور الزمن ثرواتهم وفضائحهم حتى ثار المسيحيون أنفسهم ضد الكنيسة خاصة فى الغرب.

(٩١) صدرت قرارات الإعفاء من الأعباء المدنية هذه على عهد قسطنطين، فلما أسىء استخدامها من بعد تقرر الاستغناء أو إلغاء هذه الامتيازات الخاصة بالإعفاءات.

من الصفقين قليلى الحياء، أما رجال الأكليروس فإنهم وحدهم الذين حرموا من المشاركة فى هذا الحق، بينما هم وحدهم القادرون على إقامة القداس العام من أجل الجميع، ومع ذلك لا يسمح لأى وصية حتى من الأرامل المحزونين ولا هبات. وحيث لا هنات تسىء إلى أى خلاق، فإن العقوبة مع ذلك توقع على المنصب ذاته، وعليه يمكن القول إن أية أرملة مسيحية تعد وصيتها شرعية إذا ما أوصت بها لكهنة المعبد، وغير شرعية إذا ما أوقفتها على رجال الله! وأنا لا أقص هذا بقصد الشكوى أو التبرم، ولكن ليكون معلوماً فقط لديهم ما لا أشكو منه، ذلك أننا نفضل أن نكون فقراء مالا على أن نفتقر إلى الرحمة.

"ولكنهم يقولون أيضاً إن ما أعطى للكنيسة أو ترك لم يمس، دعهم يقررون كذلك من ذا الذى حرم على المعابد هباتها التى جعلت للمسيحيين. فإذا ما تم ذلك للوثنيين، فإن الخطأ سوف يكون ثواباً أكثر منه عقاباً. الآن فقط أصبح على الأقل ادعاء العدالة أمراً محتماً. وأين كان هذا الشعور عندما أقدموا، بعد سلب كل ما يمتلك المسيحيون، على إضمار الحقد على حقهم حتى فى الحياة، وحرموهم استخدام حتى الحد الأدنى من حق دفن موتاهم، وهو ما لا ينكره أحد على ميت أبداً. ولقد أعاد البحر ثانية أولاء الذين ألقوا بهم إليه. هذا حقاً هو نصر الإيمان، أفلا تراهم الآن يلومون أسلافهم الذين أقدموا على هذه الفعال التى تدينهم؟ أى سبب هناك يدعو إلى السعى من أجل أولئك الذين يدينون هم الآن أعمالهم؟

"ومع ذلك، فلا أحد ينكر الهبات على الأحرام المقدسة، ولا الوصايا على العرافين، لقد أخذت منهم فقط أراضيهم لأنهم لم يستخدموا بمقتضى العقيدة ما ادعوا أنه حق للعقيدة. لماذا لا يمارسون ما نمارسه نحن إذا كانوا يدعون أنهم ينهجون فى الحياة نفس نهجنا؟ إن الكنيسة لا تملك شيئاً فى هذا العالم ملكاً خاصاً لها إلا الإيمان، ومن ثم هنا يكمن الجزاء.. هنا يوجد الفيض. إن ملكية الكنيسة هى رعاية الفقراء. دعهم يقدرون كم من أسارى المعابد تم افتداؤهم، وأى خبز لذوى المتربة قدموا، ولأى من المنفيين أعطوا ما يقيم أودهم. من أجل هذا كله أخذت منهم أراضيهم وليست حقوقهم.

"أنظر ماذا ترى.. لقد جاءت المجاعة انتقاماً – كما يقولون – لأن ما كان من قبل قصرا على الكهان، أصبح مصدر نفع للجميع، ولهذا السبب – كما يقولون – راحت أفواه الرجال الذين أغمى عليهم يرتشفون عصارة النباتات التى لا طعم لها، ولنفس السبب أيضاً استبدلت الحنطة بثمار البلوط الخئونى Chaonian وعاد الزمن ثانية بالناس إلى غذاء الماشية وأسوأ أنواع الأطعمة، وراحوا يهزون إليهم بجذوع البلوط علهم يجدون فى أخشابها ما يسد رمقهم، وهذه الظواهر بكل تأكيد تمثل معجزات جديدة على الأرض لم يسبق أن وقعت من قبل عندما كانت الخزعبلات الوثنية تسود العالم كله! ولكن للحقيقة وحدها.. متى حدث من قبل أن سخرت الغلال من صلوات المزارعين الأشحاء فأعطتهم قشا دون سنابله؟ ومتى خيبت أوراق القمح فى خطوطها آمال الفلاحين؟

"ومم استلهم الإغريق وحى بلوطهم هذا إلا أن يكون من خلال اعتقادهم بأن هذا العون من طعام الغابات كان هبة من عند السماء، لأنهم يعتقدون دوماً فى مثل هذه الأمور أنها نعمة من أربابهم. من تراه غير الوثنيين يعبد أشجار دودونا Dodona خاصة عندما يمجدون هذا الصنف الدنئ من طعام الغابات؟ ولعله ليس من قبيل الاحتمال أن تكون أربابهم فى سورة غضبها قد ابتلتهم بهذا عقاباً لهم، فرضته الأرباب تهدئة لهم وتسكيناً، وأى عدالة يمكن أن تتحقق، وهم الذين تملكهم الحزن لمنع استمرار تقديم العون لقلة من الكهنة، بينما ينكرونها على الجميع؟ أقول أى عدالة تلك إذا لم تكن العقوبة أشد وأبقى من الاثم نفسه؟ وعلى أية حال فإن السبب ليس كافياً لمثل هذه المعاناة لعالم يتهاوى، إذا كان هذا الأمل الكبير لتلك السنة سوف يتحطم والمحصول لم ينضج بعد.

"ومما لا شك فيه أنه لسنوات طويلة مضت فإن أنوار المعابد كانت قد خبت على امتداد الإمبراطورية كلها، أترى ذلك قد قفز الآن مؤخراً إلى عقول أرباب الوثنيين لتقدم على هذا الانتقام الكبير؟ وهل لم يحقق النيل فيضانه كما جرت عادته كل عام لينتقم لما فقده كهنة المدينة؟ على حين لم يحدث مثل هذا الانتقام لأهل اقليمه.

"وليكن ما يقولونه من انتقام الأرباب فى العام الماضى لما وقع بها من ضرار صحيحاً، فلماذا لم يحدث مثل هذا فى عامنا هذا؟ والآن فإن المواطنين لا

يقتاتون باقتلاع الجذور، ولا يبحثون عن السعادة فى لحاء الأشجار، ولا يقطفون طعامهم من أشواك النباتات، ولكنك تراهم وقد غمرهم السرور فى أعمالهم الناجحة، بينما يغشاهم العجب لمحاصيلهم التى يعدونها من أجل صيامهم الذى يقدمون عليه بملء إرادتهم ورغبتهم الصادقة، ولم لا والأرض أخرجت لهم غلتها بكل ما فى باطنها.

"من ذا الذى لم يعتد على أمور البشر فتراه يقف مشدوها أمام تصاريف السنين؟ بل إنا نعلم جيداً أن ولايات عديدة قد شهدت فى العام الماضى وفرة إنتاج أرضها. إنى لا أجد الكلمات التى أعبر بها عما أنتجه الغال بصورة لم تحدث من قبل، والبانونياويون باعوا غلالا تفوق ما زرعوه، أما بائيتيا الثانية Phaetia secunda فقد عانت الضرار من جراء ثرائها، ذلك أنها وقد اعتادت الأمان فى فاقتها، قد أثارت الآن الأعداء طمعاً فى خيراتها. وأطعمت ثمار الخريف ليجوريا وفينيسيا. وهكذا نجد أن العام الماضى لم يصبه القحط بسبب انتهاك الأحرام المقدسة، كما أن هذه قد ازدانت بغرس الإيمان. أتراهم يستطيعون إنكار أن مزارع الكروم هى الأخرى قد زاد إنتاجها بشكل واضح ولهذا فأنا قد جنينا كسباً مزدوجاً.. هذه الغلال بكل ما فيها من فائدة ونفع، وتملكنا قطاف الكروم بكل ما لها من عائد.

"بقيت نقطة أخيرة وهامة أيها الإمبراطور يجب أن تضعها فى اعتبارك بما يحقق لك كل الخير، ذلك أنه يقول: "دعهم (الأرباب) يحمونك.. أما نحن فسوف نكون لهم عباداً". تلك هى إذن – أيها الأمير الورع – ما لا نقدر على حمله، فلسوف يعيروننا بأنهم سوف يبتهلون إلى أربابهم من خلال أسمائك، وأنهم سيقدمون – دون إذنك – على انتهاك الحرمات المقدسة، معتبرين سكوتك على ذلك موافقة، ألا فليحتفظوا بأربابهم لأنفسهم، وليحفظ هؤلاء – إن استطاعوا – عبادهم، ذلك أنهم إذا لم يكونوا قادرين على عون من يعبدونهم، فكيف إذن يستطيعون حمايتك وأنت لهم عدو؟

"وهو يقول أيضاً إن طقوس الأسلاف يجب أن تعود، ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن كل ما تم سلفاً كان نجاحاً محققاً، فما الذى تراه الأفضل.. إن العالم نفسه الذى تآلف فى البداية من خلايا العناصر المختلفة المكونة خلال الفراغ

(الخلاء – العدم – الفضاء) فى كرة لدنة (مرنة)، أو كان ظلاماً فى فوضى لا نهاية لها، ألم يتلق من بعد ذلك التشكيل الذى به اكتمل بهاؤه (هذا التمايز بين السماء والبحار والأرض وقد استقر كل شىء منها وفيها) لقد نزعت الأرض عن نفسها ذلك الظلام الدامس وراحت تبتهج بالشمس فى علٍ، ولم يحظ النهار بالضوء فى البدء، بل راح بمرور الزمن يكسب الضياء ويزيده، ويشع دفئاً كلما اشتدت الحرارة.

"والقمر.. ذلك الذى تمثلت فيه نبوءات الوحى عن الكنيسة، عندما ارتفع فى البدء، وراحت هى تحبو فى أشهر عمرها الأولى ليختفى منا فى الظلام ثانية، وليملأ جنبيه حتى اكتملت استدارته فى مواجهة الشمس، وراح يتلألأ بضياء لامع صاف.

"والأرض فى سالف الأزمان لم تكن تملك أية تجربة فى العمل أو الاثمار. فلما بدأ الفلاح الماهر يتسلط عليها ويخضعها ويخط فيها الحقول، ويغطى التربة الجرداء بعرائش الكروم، خلعت عن نفسها فطرتها القفر، وتحلت بأزاهير ما تنبت.

"والزمن نفسه فى عمره الباكر، والذى صبغنا على شاكلته كما ينمو كل شىء، كلما تقدمت به السنون، غدا ربيعاً بهذه الأزهار التى ما تلبث أن تذبل، ثم تثمر حتى يكتمل نضجها ثم تصير إلى النهاية.

"ونحن أيضاً، وليست لدينا فى البدء عن أى شىء خبرة، كل ما لدينا طفولة فى إدراكنا، ولكنا سرعان ما نتغير، كلما مرت بنا السنون، ونتخلى رويداً عن المبادئ الأولى لقدراتنا.

"فليقولوا إذن إن كل شىء يجب أن يعود إلى ما كان عليه فى البدء، ومن ثم فالعالم الذى يغشاه الظلام يبدو الآن وقد افتقد المسرة لأنه استنار بضياء الشمس، وأى شىء أعظم بشراً من أن نمحوا ظلام العقل بأكثر مما نزيل أثقال الجسد، وسوف يبدو قبس الإيمان أشد وهجاً من أشعة الشمس. ولما كانت الحالة الأولى التى كان عليها العالم قد مضت، شأن كل شىء، فلا غرو أن ينسحب ذلك أيضاً على العقائد القديمة. ولندع أولاء الذين يتحسسون الخطأ فى نقص الإنتاج، يبحثون عن العيب فى قطاف الكروم، لأنها تحين فى نهاية العام، ويشيرون إليه أيضاً فى ثمار الزيتون، لأنها آخر ما ينضج من الثمار.

"لكن إيمان الأرواح هو غلتنا، ورحمة الكنيسة هى قطاف الفضل كله، التى ازدهرت منذ البداية فى القديسين، وراحت تنشر نفسها من بعد على كل الجموع، ولا ريب فقد لاحظ الجميع أن الإيمان بالمسيح قد تلقته العقول التى لم تكن فى يوم ما فجة شرسة (ذلك أنه ليس هناك تاج للنصر دون خصوم) وتم رفض ذلك المعتقد الذى من قبل ساد، فالحق أحق أن تكون له الغلبة.

"وإذا كانت الطقوس القديمة هى الحق، فلم اتبعت روما عقائد أجنبية عنها؟ ولسوف أغض الطرف عن تلك المناطق التى علتها هذه المبانى الباهظة التكاليف وبيوت أولئك الرعاة (الكهان) التى تتألق بذهب انطفأ بريقة، ولسوف أرد فقط على أهم ما يشكون هم منه، لماذا رحبوا بآلهة المدن المغلوبة، والأرباب المنهزمة. والطقوس الدخيلة لهذه الخزعبلات الأجنبية؟ ومن أين كان أنموذج الألهة كيبيلى يغسل مركباتها لتزييف الألمو Almo وأنّى فرسان الحرب (الشعراء) الفريجيون؟ وآلهة القرطاجنيين الجائرين المكروهين دوماً لدى الرومان؟ بل أين التى عبدها الأفارقة فى شخص كلستيس Celestis والفرس فى نيترا Nitra والجل فى فينوس تبعاً لمسميات مختلفة وليس لربات متعددات؟ ومن ثم فإنهم يعتقدون أن النصر يتجسد فى آلهة بعينها ولذا فهو بلا شك يأتى هبة وليس بالقوة، يمنح ولا يؤخذ، نتائج لعون الفيالق وليس لسلطان العقائد. ترى.. هل هذه الربة أعظم أو أكثر من تلك الأعداد التى يتطلبها القتال، أو تستدعيها وقائع المعركة؟

"ولقد طلبوا أن تحتفظ (ربة النصر) بمذبحها فى مبنى السناتو فى روما، بينما أغلبية الشيوخ فيه من المسيحيين!! إن المعابد مليئة بالمذابح، وهناك فى معبد النصر أيضاً مذبح. وإذا كانت كثرة العدد هى التى تدخل السرور إلى قلوبهم فإنهم يقدمون أضحياتهم فى كل مكان. أما الإصرار على تقديم الأضحيات على هذا المذبح بالذات، فإن هذا الأمر لا تفسير له إلا ازدراء الإيمان. وهل يحتمل المسيحى قيام وثنى بالتضحية فى حضرته؟ إنه يقول: "دعهم ولو على غير رغبة منهم يرمقون الدخان بعيونهم ، ويصغون إلى الترانيم بأسماعهم، ويزدردون رائحة الأضحيات بحلوقهم، ويستنشقون البخور بأنوفهم، وليغط الغبار المتصاعد من مواقدنا وجوههم وهم كارهون. أليس فيما تزخر به الحمامات والأروقة والشوارع

من تماثيل كفاية لهم؟ ألن يكون هناك لكل قدره ومصيره فى هذا المحفل العام؟ إن الجزء المؤمن من مجلس السناتو سوف يكون مرتبطاً إذن بأصوات أولئك الذين يعطون للأرباب مواثيقهم، بإيمان أولئك الذين يقسمون بهؤلاء الأرباب، فإذا ما أبدوا اعتراضهم بدوا وكأنهم يكشفون زيفهم، وإذا ما أذعنوا، سلموا بما هو انتهاك للحرمات...

"أين سنقسم إذن على طاعة قوانين رحمتك ومراسيمك؟ ترى هل ارتضى عقلك وارتبط، وهو الذى تضلع فى القوانين، بالصدق عن طريق تلك الطقوس الوثنية ؟ لقد اعتدى على قداسة الإيمان ليس فقط من جانب هؤلاء، بل أيضاً على يد من سبقوهم، ولكن ما هو أنكى من ذلك أن إيمانك أيها الإمبراطور قد تعرض للتجريح أيضاً، ولكنك قادر على أن تقهر إذا شئت. وقد اعتقد عظيم الذكر قسطنطيوس، رغم أنه كان ما يزال مبتدئاً فى معرفة الأسرار المقدسة، أن سمعته سوف تدنس إذا ما سمح ببقاء ذلك المذبح، فأمر بازالته، ولم يأمر بإعادته ثانية. وقد اكتسبت الإزالة سلطان الفعل، أما الإعادة فليس لمجرد القرار هذا السلطان.

"لا يحق لأحد أن يمتدح نفسه بسبب سهوه أو غفلته، ذلك أن هذا الذى يربط نفسه بفكر آخرين، يبدو أكثر تواجداً من ذلك الذى يعطى موافقته صادرة عن حضور شخصه فقط دون فكره، فتآلف الفكر أشد وثاقاً من تقارب الجسد. إن السناتو إذا ما تمثلك رئيساً كأولاء الذين يدعون لم شمل الجماعة، فإنه يأتيك كرجل واحد، ويطلعك على سريرته ، ولا يسلمها لأرباب الوثنيين، ويفضلك أعضاؤه على بنيهم، ولكن ليس على إيمانهم. هذا هو الحب المنشود، هذا الحب يفوق كل مظاهر السيادة، إذا ما أصبح الإيمان الذى يحفظ السلطان فى أمان.

"ومن المحتمل أن يثير بعض القول إذا ما حدث ذلك، بأن الإمبراطور الورع[٩٢]. قد تم هجران جانبه، كما لو كان ذلك بكل تأكيد جزاؤه على ما قدم من أعمال جديرة بالتقدير بهذه الإجراءات الانتقالية للأعمال الحاضرة. وما من رجل حكيم يجهل أن المسائل التى تتعلق بأمور البشر يمكن أن تنتظم فى نوع من الدورة

---

(٩٢) جراتيان.

أو التتابع، لأنها لا تحقق على الدوام نفس النجاح، ولكنن أوضاعها تختلف وتعانى تقلبات الزمن.

"ومن ذا الذى يفوق كنيوس بومبى Cenius Pompeius فى نصر المعابد الرومانية ودعمها فى الخارج؟ ولكنه، بعد أن ساد الدنيا بانتصارات ثلاثة حققها، ما لبث أن هزم فى إحدى المعارك، فتحول إلى هارب من الحرب، ثم منفياً خارج حدود إمبراطوريته، ثم سرعان ما سقط صريعاً على يد خصى كانوبس Canopus

"من ذا الذى امتلك ناصية الشرق أكثر مما ساد قورش ملك الفرس؟ ولكنه هو أيضاً، بعد أن تغلب على كل منافسيه، ثم أبقى عليهم، ما لبث أن لحقته الهزيمة وأمسى سجيناً، وهلك على يد امرأة(٩٣). ومع أنه قد ذاع صيته بحسن خلقه وطيب معاملته حتى لمن قهرهم، فقد قطعت رأسه ووضعت فى إناء امتلأ بدمائه. وهكذا ذل لصلف امرأة متسلطة.

"ومن تراه أشد حرصاً واهتماماً بالأضحيات من هاميلكار زعيم القرطاجنيين؟ لقد كان يقرب حتى بين أقل الجنود رتبة على امتداد سير المعركة، فلما رأى أن الهزيمة قد أحاطت به، ألقى بنفسه فى النار التى كان يطعمها، ولعله أراد أن يخمد حتى بجسده تلك النيران التى أيقن أنها لم تقدم له نفعاً بلا اضرا!!

"وبماذا ترانى أحدث عن جوليان الذى ما أن وثق بحماقة فى أقوال العرافين، حتى دمر كل وسائل ملاذه، ولذلك فإنه حتى فى مثل هذه الحالات، لا نجد انتهاكاً مماثلاً، ذلك أن وعودنا لا تخدع أحداً.

"لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى على الرغم من أنى لا أستثار، ذلك أن هدفى الأساسى كان شجب هذا الالتماس، لأفضح تلك الخزعبلات، ولكن ليجعلك هذا الملتمس أيها الإمبراطور أكثر حرصاً، فبعد هذا العرض للأباطرة السابقين الذين سار الأوائل منهم على طقوس آبائهم، ولم يحد المتأخرون عنها، وذكرنا بالإضافة إلا ذلك أنه إذا كانت الممارسة العقيدية لأولاء الأوائل لم تصبح سابقة، فإن إغضاء الأواخر الطرف عنها جعلها كذلك. ولقد بدأ واضحاً ما أنت به مدين

(٩٣) توميريس Tomyris ملكة الماساجيتيين.

إلى إيمانك أولا، أعنى أنه يجب ألا تتبع الطقوس الوثنية، وثانيا تجاه شعورك، أقصد عدم تحطيمك أو انتهاكك لما أقره من قبل أخوك، ذلك أنهم إذا ما أقدموا من جانبهم فقط على امتداح هذا التغاضى من جانب الأباطرة السابقين، الذين على الرغم من كونهم مسيحيين، إلا أنهم لم يقدموا على الاعتداء على التقاليد والتعاليم الوثنية، كان واجبا عليك أن تسلم إلى حب الأخوة قيادك، وأن ترعى أمورا قد لا تكون أنت نفسك راضيا عنها، حتى لا تنتقص من قدر أخيك. عليك الآن إذن أن تحفظ ما ترى أنه يتفق وإيمانك ورابطة الأخوة".

وبعد.. فهذه رحلة طويلة قطعناها مع أمبروز فى رسالته الثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى، ردا على ملتمس سيماخوس إليه من أجل إعادة مذبح النصر إلى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى. وقد جاءت الرسالة كما عرضناها مطولة مفصلة، تناول فيها أمبروز كل ما تضمنه ملتمس سيماخوس بالتفنيد، كما أنها جاءت انفعالية تتقد غضبا وغيظا ، ملقية بالتبعية فى خراب روما فى كثير من الأحيان إن لم يكن كلها من وجهة نظر الأسقف الميلانى على الأرباب الرومانية القديمة، والتى كانت من الوهن والضعف بحيث لم تقدر على الصمود أمام هانيبال وجحافل السينونيين، وتعيب على الوثنيين التفاخر بذلك، لأن الغزاة كانت لهم نفس الأرباب أو المثلات، أما إعادة المذبح ثانية فهذا أمر لا يمكن تقبل حدوثه من إمبراطور مسيحى يجب أن يقر بمذبح واحد فقط خاص بالمسيح. ويسخر أمبروز من مسألة عذارى فستا، وينتدر بالدعوة لرد الأموال والهبات المخصصة لهن، معتبرا ذلك إساءة كاملة إلى قيمة العذرية ومعناها ، ويشيد بقرينتها فى المسيحية، ويفند دعوى سيماخوس القائلة بوقوع المجاعة لأسباب تتعلق بانتقام الأرباب، ويدلل على ذلك بأن هذا لم يحدث إلا فى بعض المناطق بينما عم الرخاء مناطق أخرى، وأن نيل مصر لا زال فياضا، ويحذر الإمبراطور من الوقوع فى الشرك التى يراد اصطياده بها من القول بحماية الأرباب له ولملك أبيه من قبل، حيث أن الإمبراطور لا يزال فى مقتبل العمر والخبرة ولم يتمرس بعد فى أمور العقيدة والحياة". ويتساءل أمبروز إذا كانت روما تود الاحتفاظ بأربابها ومقدساتها لأنها سبب انتصاراتها ومكمن الفخار لها، فلماذا لجأت إلى أرباب أخر استقدمتها من

الشرق. ويختتم رسالته مبيناً أن من اتبع هواه وتمسك بالأرباب فقد ضل وغوى، وضرب مثلاً رجلين هما بومبى وقورش، وعززهما بثالث.. هاميلكار القرطاجى، وجعل خاتمة مطافه جوليان.

ويبدو أن هذه النغمة العالية من التهديد، مع الظروف السياسية السيئة التى كانت سائدة فى الغرب، قد أدخلت فى روع الإمبراطور الصبى أن تحدى أمبروز والظروف سوف يجر عليه وعلى عرشه الوبال. ومن ثم كان طبيعياً أن يستجيب وهو حسير لآراء الأسقف الميلانى. وهكذا باءت محاولتا سيماخوس ومن ورائه شيوخ السناتو الوثنيون مع جراتيان ثم فالنتينيان، بالفشل. ولما كان الوثنيون فى الغرب يدركون المعنى الجوهرى الذى يرمز إليه وجود هذا المذبح من رمز لمجد روما القديم، فإنهم حاولوا عن طريق سيماخوس أيضاً – هذه المحاولة للمرة الثالثة مع الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه بعد انتصاره على ماكسيموس، فى عام ٣٨٨[٩٤]. وإذا كان من الصعب تحقق إعادة المذبح على يد الإمبراطور الصبى بما عرف عنه من خور العزيمة وضعف الشخصية ووقوعه تحت تأثير أمه وانزعاجه من سلطان أمبروز، فلعله من الأحرى أن تتجسد الصعوبة تماماً فى شخص ثيودوسيوس النيقى المتحمس، الذى يحمل للأسقف الميلانى كل الاحترام والتقدير، ولذا لم يكن حظهم معه بأسعد من حظهم فى المحاولتين الأوليتين. ولكن اليأس لم يتملك السناتو وسيماخوس، فأعادوا الكرة من جديد مع فالنتينيان الثانى عام ٣٩٢ بعد انفراده بحكم النصف الغربى من الإمبراطورية وعودة ثيودوسيوس إلى القسطنطينية[٩٥]، غير أن الأقدار لم تمهله ليبدى فى هذا الأمر رأياً جديداً، إذ لم يلبث أن اغتيل على يد أربوجاست Arbogastes الذى لم يمكنه أصله الجرمانى من إعلان نفسه إمبراطوراً، فأعلن بيديه تتويج يوجنيوس Eugenius على العرش، فتحول سيماخوس بسفارته إلى هذا الإمبراطور الجديد، الذى استجاب لندائه وأمر بإعادة مذبح النصر إلى سابق مكانه[٩٦]. ويذكر بيورى أن محاولة إعادة نفوذ

---

(٩٤) AMB. ep. LVII. 4.
(٩٥) Ibid. 5.
(٩٦) Ibid. 6.

الوثنية، كانت إحدى النقاط الرئيسية فى البرنامج الذى أعده القائد الجرمانى أربوجاست وصنيعته الإمبراطور يوجنيوس، وكان ذلك هو الطعم الذى اجتذب إليه عدداً من الشخصيات البارزة(٩٧).

وعلى الرغم من أن يوجنيوس كان مسيحياً، إلا أن مسيحيته كانت فيما يبدو مسألة ظاهرية فقط، أو لعله كان خاضعاً لتأثير ونفوذ القائد الفرنجى الوثنى أربوجاست الذى جعل منه إمبراطوراً، ولهذا فإنه فى الوقت الذى كان أربوجاست يعلن فيه عزمه صراحة على إعادة الوثنية إلى السيادة من جديد، وتحطيم الكنائس إذا ما تحقق له النصر على ثيودوسيوس(٩٨)، كان يوجنيوس يحاول قدر طاقته الاحتفاظ بسياسته التوازن بين المسيحيين والوثنيين. ولما كان ينتمى لعائلة نبيلة، مثقفاً ثقافة عالية، متضلعاً من الفلسفة، وأستاذاً للبيان، فقد أصبح صديقاً لسيماخوس الخطيب الرومانى والمتحدث باسم السناتو. وفى الوقت ذاته محافظ روما، ولذلك كان طبيعياً أن يعمل يوجنيوس على كسب جانب أعضاء السناتو الوثنيين وزعيمهم فى حربه القادمة ضد إمبراطور الشرق. وفى سبيل ذلك، فإنه فى الوقت الذى سمح فيه بإعادة مذبح النصر إلى مبنى السناتو، فإنه لم يسمح بإعادة الدخول والهبات المخصصة لعبادة الربة فستا والعذارى(٩٩). وإن كان قد أقدم على تعيين نيقوماخوس فلافيانوس Nicomachus Flavianus الزعيم الوثنى فى روما نائباً إمبراطورياً هناك (١٠٠). ولا شك أن هذا كله كان راجعاً دون شك لتأثير القائد الوثنى الجرمانى أربوجاست، لما نعلمه عن شخصية يوجنيوس. ولا ريب أن المسيحيين قد تملكهم الفزع لهذا الذى يحدث، خوفاً من أن يطلع عليهم جوليان جديد ممثلاً فى يوجنيوس ومن ورائه قائده الفرنجى. ومهما يكن من أمر فإن هذه المحاولة الجديدة لم يكتب لها النجاح أيضاً حيث أزيل المذبح للمرة الأخيرة على يد الإمبراطور ثيودوسيوس بعد انتصاره على إمبراطور الغرب هذا عام ٣٩٤.

---

(٩٧) Bury, op. cit. I p. 369.

(٩٨) Jones, L. R. E. I p. 169.

(٩٩) AMB. Ep. LVII 6.

(١٠٠) أنظر Id وراجع أيضاً : Jones, L.R.R. I p. 168; C. M. H. IV p. 246.

وعلى الفور شحذ أمبروز سنان قلمه، وكتب إلى الإمبراطور رسالة احتجاج على مسلكه هذا، وأبدى استياءه لما أقدم عليه الإمبراطور، وقد تضمنت بعض سطور الرسالة إرهاصات بفكر الغرب الأوروبى عن العلاقة بين الدولة والكنيسة. قال الأسقف الميلانى:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الكريم يوجنيوس".

"إن سبب ارتحالى هو خوفى من الرب الذى عليه فى كل الأمور اعتمادى.. ولا أشرك فى عقلى معه أحداً، ولا أقيم لأى إنسان مهما كان، قدراً أرفع من قدر المسيح. ذلك أنى لم أجلب على أى من الناس أذى. فإذا ما كان الله عندى قبل كل شىء، أضع فيه كل ثقتى، فلن يرهبنى أن أواجهكم أيها الأباطرة بما يعتمل فى نفسى مهما كانت صورته. وعليه فلن ألزم الصمت أيها الإمبراطور تجاهك، فى أمور لم أسكت عنها فى مواجهة أباطرة سبقوك، ولسوف أراعى ترتيب الأحداث وأمضى خطوة خطوة فى عرض الوقائع التى تتعلق بهذا الخصوص.

"عندما كان سيماخوس الشهير محافظاً للمدينة (روما)، قدم إلى فالنتينيان الأصغر الطيب الذكر، التماساً يطلب إليه إصدار أوامره بأن يعاد إلى المعابد ما سلب منها. وقد قام بدوره كما ينبغى بما يتفق وحماسته وعقيدته، وكان على أنا الآخر باعتبارى أسقفاً أن أقوم بدورى، فقدمت احتجاجين إلى الأباطرة أوضحت فيهما أن المسيحى لا يمكن أن يساهم فى تكاليف القرابين للأرباب. والحقيقة أنى لم أكن السبب فى إبطال ذلك، ولكنى رحت أنادى بكل حماسة بعدم إصدار مثل هذه المراسيم، وانتهى الأمر بعدم إعادة تلك الأموال إلى المعابد، لأن ما لم يسلبه بنفسه لا يمكنه إعادته، بينما باستطاعته أن ينعم من جيبه الخاص بنفقات وتكاليف تلك الخزعبلات. وأخيراً، فإنه إذا ما كان قد أقدم على ذلك، فإنه لم يكن بمقدوره والحالة هذه أن يسعى إلى الكنيسة، ولو جاء.. فإما أنه لا يجد الكاهن هناك، وإما أن يجد بها من يعترض طريقه متحدياً، ولا يمكن التماس العذر عن ذلك بأنه لم يكن قد تناول بعد سر المعمودية، لأن انتظار العماد لا يبرر أو لا يسمح بالمساهمة فى دفع نفقات الأوثان.

"وقد قرئت رسالتى فى المجلس الكنسى الإمبراطورى، وكان من بين الحاضرين كونت باوتو Bauto وهو أحد كبار الضباط، وروموريدوس Rumoridus الذى ينتمى إلى نفس المرتبة، وقد عكف على عبادة الوثنيين منذ نعومة أظفاره. وقد أصغى فالنتينيان آنذاك إلى حديثى ولم يفعل إلا ما يتفق وقواعد الإيمان، ومن ثم أذعنوا لنائبه.

"ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى خاطبت الإمبراطور الرحيم ثيودوسيوس ولم أتردد مطلقاً فى مواجهته، وكان قد تلقى رسالة بنفس المعنى من السناتو، وإن لم تكن تمثل كل أعضاء مجلس الشيوخ، وقد وافق على توصياتى بعد زمن، ولذا هجرت جانبه لعدة أيام، ولم ينظر إلى ذلك بنية سيئة، لأنه يعلم جيداً أنى ما فعلته عن أمرى، ولِمَ أخزى من أن أقول فى حضرة المليك ما قاله النبى نفسه. "وأتكلم بشهاداتك قدام ملوك ولا أخزى" (مزامير ١١٩/ ٤٦)، وما ينبع من روحى.

"ولم يلبث السناتو أن أرسل سفارة ثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الممجد الذكرى، فى غالة، ولكنها باءت بالخسران، وبكل تأكيد لم أكن هناك ساعتها، ولم يخط يراعى إليه شيئاً آنذاك.

"ولكن عندما اعتليتم كرسى سلطان، اتضح أن دفة الأمور قد عهد بها إلى أناس على قدر كبير من الكفاءة حقاً فى تسيير مهام الدولة، ولكنهم وثنيون، وربما قيل أيها الإمبراطور العظيم أنك لم تقم بإعادة شىء فعلاً إلى المعابد، وإن كنت ق أنعمت بالهبات على أولئك الذين أبدوا لكم كامل الولاء، ولكنك تعلم أننا يجب أن نسلك دائماً سلوكا يرضى الله، كما نفعل دائماً فيما يتعلق بمسألة الحرية، ليس فقط من جانب رجال الاكليروس، ولكن أيضاً على يد العسكريين العاملين فى خدمتك، أو الداخلين ضمن عداد القاطنين فى الأقاليم، وقد تسابق الرسل إلى بلاطك عندما غدوت إمبراطورا يطلبون إعادة ما أخذ من المعابد ثانية، ولكنك لم تفعل ذلك، فعاودوا الكرة ثانية ولكنك ظللت على مقاومتك لهم، غير أنك عدت فرأيت من الأفضل أن تنعم على أولئك الذين تقدموا بمثل هذه الالتماسات.

"أيها الإمبراطور.. ضع فى اعتبارك جيدا أنه مهما عظمت السلطة الإمبراطورية فسلطان الله أعظم، إنه عليم بما تكنه الصدور، مطلع على خبئ النفوس. أحاط علمه كل شيء، وما هو بعد فى الغيب آت.. يعلم السر وأخفى. لا تعانى إذن خداع النفس، أتريد أن تخفى أى شيء من عند الله؟ ألم يدر ذلك بخلدك؟ وبما أنهم تصرفوا بمثل هذه المثابرة، ألم يكن من واجبك أيها الإمبراطور أن تكون أكثر منهم إصراراً بما يليق بالله الممجد الحق الحى، وأن تزدرى ما يعد انتهاكاً لقانونه المقدس؟

"من ذا الذى تراه يضمر الغل والبغضاء لرغبتك فى الأنعام على الآخرين؟ إنا لا نقيم من أنفسنا عيوناً تقتفى وقع خطى جودك، ولا نحمل فى نفوسنا الحسد لمن خصتهم نعمتك، ولكنا فقط حفظة الإيمان، خبرنى كيف ستقدم هديتك إلى المسيح؟ إن هناك من يضعون كل تقديرهم على ما سوف تفعله، ولا بد أنهم سوف يحذون على التو حذوك. ومن ثم فإن أى شيء يقدمون عليه لابد وأن يعزى إليك، أما ما لم يفعلوه فهو بلا ريب من عند أنفسهم. ولقد كان من الضرورى أن تكون – رغم كونك إمبراطوراً – أكثر الناس خضوعاً لله. وكيف يقوم خدام المسيح إذن بتوزيع هباتك؟

"لقد كانت هناك قضية على هذا النحو فيما مضى، غير أن الاضطهاد نفسه أذعن لقوة إيمان الآباء، وتولت إلى الظل الوثنية، ذلك أنه عندما أقيمت الألعاب الخماسية فى مدينة صور، وقدم ملك أنطاكية الأثيم لمشاهدتها، اختار ياسون Jason ضباطاً انطاكيين لإحضار ثلاثمائة دراخمة من أورشليم وتقديمها من أجل أضحيات هرقل، غير أن الآباء لم يدفعوا هذه النقود المطلوبة إلى الوثنيين ، بل أرسلوا من لدنهم رسلاً على الإيمان حريصين ليعلنوا أن الأموال لا ينبغى أن تنفق ثمناً لأضحيات الأرباب، إذ أن هذا يعد بذخاً فى غير موضعه، ولذا فقد تقرر أنه لما كان قد قيل إن هذه النقود حصلت من أجل التقريب لهرقل، فإنها يجب أن تذهب للغرض الذى من أجله جبيت، ولكن لما كان الذين حملوها يتقدون غيرة على الإيمان وحماسة، ويلتمسون عدم استخدامها للتقريب للأرباب، بل فى أغراض أخرى، لذا تقرر أن تخصص لبناء السفن. حقيقة لقد أكرهوا على حمل النقود، ولكنها لم تذهب إلى ما من أجله جمعت ولكن فى أمر من أمور الدولة.

"والآن.. فإن من أحضروا النقود قد أصبحوا دون شك فى عالم الصمت، ولكنهم وقفوا بكل قوة دفاعاً عن إيمانهم، فلقد علموا مقدماً أن النقود لابد وأن تحصل، ومن ثم فقد أرسلوها مع رجال هم لله أشد خشية، أفلحوا فى تخصيص هذه الأموال، لا للمعبد، ولكن لبناء السفن، وما ذلك إلا لأن الآباء قد عهدوا بالنقود إلى من يدافعون عن قضية القانون المقدس، وتولى الله المطلع على النوايا والضمائر القضاء فى هذا الأمر. وإذا كان هذا قد حدث، فليس هناك شك أيها الإمبراطور، فيما يجب عليك فعله. وكيفما كان الأمر، يصبح عليك حتماً مقضياً، وأنت لا تخضع لأى قهر، ولا يتحكم أحد فى سلطانك، أن تسعى حثيثاً من أجل الحصول على نصح رجل الأكليروس.

"وبكل تأكيد، فإنى فى نضالى وإن كنت وحدى، فإنى لست فيما أرغب أو أنصح وحدى. ولما كنت مسئولاً عن كل كلمة أقولها أمام الله والناس، فليس هناك شيء آخر يمثل لى وزناً، لأننى لا يمكن أن أضع فيك ثقتى الكاملة. ولقد كتمت من زمن أحزانى، وأيقنت أنه ليس من الصواب فى شيء تصنع أى شخص بأى شيء، ولم يعد من واجبى أن أغض الطرف عما لا أرتضيه، كما أنه ليس مسموحاً لى أن أعقل لسانى، ومن أجل هذا أيضاً لم أرد عليك عندما كتبت إلى فى أول عهدك، لأنى كنت كمن يتنبأ بأن هذا هو الذى سوف يقع. وأخيراً.. فإنك عندما طلبت منى رسالة لأنى لم أكتب لك رداً من قبل، قلت فى نفسى هذا هو السبب فى كل ما حدث.

"ولكن عندما وجد ما يتعلق بممارستى لوظيفتى، كتبت ملتمساً من أجل أولئك الحيارى، ذلك أنى فيما يتصل بأمر الله أرتعد خشية ولا يعنينى أى اطراء قد يوجه إلى روحى، أما فى الأمور التى يفضل فيها الرجاء والشكاية، فإنه سوف يصبح ضرورة مخاطبتك، كما أنى لا يفوتنى أن أقدم الاحترام الواجب مراعاته تجاه السلطة، تمشياً مع ما هو مكتوب:

"فأعطوا الجميع حقوقهم.. الجزية لمن له الجزية" (رسالة بولس إلى أهل روما) ذلك أنى إذا كنت أذعن من أعماق قلبى لشخص ما، فكيف لا أذعن

للإمبراطور؟ ولما كنت ترغب فى أن ترى مظاهر الاحترام والتبجيل تؤدى إليك، فلتسمح لنا أن نذعن لمن وهبك السلطان، ولمن تنتمى رضاه".

وإذا كان يوجينيوس لم يحقق لأمبروز رغبته، إلا أن الأيام لم تمهله ليواصل سياسته، ذلك أنه سرعان ما لقى الهزيمة مع قائده وصانعه أربوجاست على يد ثيودوسيوس الذى لم يتردد فى هدم المذبح.

وكان ثيودوسيوس طوال هذه السنوات الماضية من عهده قد اتخذ خطوات بعيدة نحو إعلاء شأن المسيحية والإجهاز على الوثنية، ووجهت ضرباته هذه المرة إلى المعابد ذاتها، ورغم أن الإمبراطور لم يكن راغباً فى تحطيم دور العبادة الوثنية تماماً، بل يطمع فى تحويلها إلى مرافق عامة، إلا أن الأمور أفلتت من يديه، حيث لعب الرهبان خاصة ورجال الأكليروس الدور الرئيسى فى هذه الناحية، وأقدموا بأنفسهم وبحمية بالغة على تدمير كل ما تصل إليه أيديهم من هذه المعابد، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مصر وسوريا.

ويذكر سوزومنوس – المؤرخ الكنسى – أن العديد من المناطق فى الولايات الشرقية كانت ما تزال تعج بالوثنيين الذين يترددون على المعابد ويمارسون طقوسهم فى حرية، ويؤيده فى ذلك الفيلسوف الوثنى ليبانيوس[١٠١]. وتركز هؤلاء بصفة خاصة فى البتراء والعربية ورفح وأفاميا جنوبى أنطاكية. ومن الطبيعى أن يعزو سوزومنوس أسباب الفوضى التى شهدتها هذه المناطق إلى الوثنيين، ويعتبرهم المحرك الرئيسى للاضطرابات التى وقعت، ومن الطبيعى أيضاً أن يرد المؤرخ الوثنى زوسيموس Zosiumus التهمة بمثلها معتبراً المسيحيين بمن فيهم النائب الإمبراطورى فى الشرق كينجيوس Cynegius مسئولين عن هذه الأحداث، وليس من العسير أن نعلل تلك الوقائع، فالمسيحيون وقد استندوا إلى اتجاه الحكومة الإمبراطورية وخاصة المراسيم التى صدرت عام ٣٨٥ بتحريم الأضحيات والقرابين والتردد على المعابد، ليهاجموا دور العبادة الوثنية ومستقر الأرباب. وكان ماركللوس Marcellus أسقف أفاميا أشدهم تحمساً لذلك، إلى الحد الذى دفعه

(١٠١) SOZOM. Hist. Eccl. VII 15.

إلى تكوين فريق من المصارعين الأشداء يعتمد عليهم فى إرهاب كل من تسول له نفسه من الوثنيين أداء الطقوس فى أحد المعابد. وقد لعب الدور الرئيسى فى تدمير عدد من دور الأرباب الوثنية، ليس فقط فى أفاميا، بل وسع دائرة نشاطه فى الريف المجاور، يدفعه إلى ذلك الإيمان بأنه ليس من السهل تحويل الوثنيين عن عقيدتهم إلا بهذه الطريقة وحدها[١٠٢]، وساعده بفرقة عسكرية مدربة على رمى السهام، النائب الإمبراطورى كينجيوس، لقهر جماعات الفلاحين الذين هم على عقيدتهم قائمون. غير أن ماركللوس ما لبث أن تجرع كأس موت سقاها من قبل للكثيرين قتلاً، إذ لم يسعفه عرجه بالهروب من إحدى المواقع التى كان يستتر فيها وراء فريق المصارعين، فلحق به الوثنيون المغيظون وأحرقوه حياً [١٠٣].

أما فى مصر فكانت الأمور أسوأ من هذا بكثير، ذلك أن الأسقف السكندرى ثيوفيلوس، الذى يصفه ثيودوريتوس بأنه صوت الحكمة ومكمن الشجاعة [١٠٤]، راح يلح على الإمبراطور ثيودوسيوس كى يسمح له بتحويل معبد الإله ديونيسيوس Dionysius إلى الكنيسة، ومع أن ثيودوسيوس لم يصدر أوامر صريحة بذلك، إلا أنه فى الوقت ذاته لم ينبئه برفضه، فاتخذ ثيوفيلوس من ذلك ذريعة ليبدأ حملة شاملة لتدمير المعابد الوثنية الشهيرة فى الإسكندرية، وعمد إلى السخرية بالطقوس الوثنية، عندما ألقى إلى عرض الطريق بكل ما يخص أسرار الشعائر الديونيسية. ثم تحول الهجوم بعد ذلك إلى السرابيوم[١٠٥]. وكان من الصعب على الوثنيين فى المدينة، خاصة فلاسفتهم ، إزاء هذه السخرية بالأرباب أن يكظموا غيظهم، ومن ثم اندفعوا فى غضبهم لا يلوون على شيء، واحتلوا مبنى السرابيوم، يقود جمعهم الفيلسوف أوليمبيوس Olympius وراحوا من هذه القلعة الوثنية يردون هجمات المسيحيين[١٠٦].

---

(١٠٢) SOZOM. hist. eccl. VII 15; THEOD. hist eccl. V 22.

(١٠٣) SOZOM. hist. eccl VII 15; THEOD. hist. eccl. V 21.

(١٠٤) THEDD. Hist. eccl. V 16 ويصفه المؤرخ جيبون بأنه "العدو الأبدى للسلام والفضيلة".

(١٠٥) SOCRAT. hist. eccl . V 16.

(١٠٦) Id.

ورغم أن سقراط يذكر هذه الحقائق، إلا أنه، ومن ورائه مؤرخو الكنيسة جميعهم، يلقون اللوم على الوثنيين في الإسكندرية لإثارتهم مثل هذا الشغب في المدينة، وهو نفس الموقف الذي اتخذه سوزومنوس من وثنيي سوريا، ويضيفون أن عدد القتلى من المسيحيين في المدينة كان يفوق الوثنيين!! وهذا أمر لا يمكن تصديقه حتى مما يرويه سقراط نفسه ومؤرخو الكنيسة، فنحن نعلم من تاريخه أن حاكم مصر إفاجريوس Evagrius وقائد الحامية العسكرية رومانوس Romanus قد تدخلا بالحامية الرومانية في المدينة لصالح الأسقف السكندري ثيوفيلوس، كما أن الوثنيين اضطروا أمام أعمال العنف التي تعرضوا لها إلى الهروب من الإسكندرية متفرقين في عديد من مدن مصر، وكان من بينهم النحويان هلاديوس Helladius وآمونيوس Ammonius [١٠٧]. هذا بالإضافة إلى أن الوثنيين "تملكهم الهلع والرعب مخافة أن يحل بهم غضب الإمبراطور" ولم يلبث أن تحقق صدق حدسهم، حيث جاءت الأوامر الإمبراطورية إلى الإسكندرية بتحطيم كل المعابد الوثنية في المدينة، فصهرت تماثيل الأرباب في غلايات ضخمة، بينما صودرت الأدوات الطقسية كالأواني المقدسة لمصلحة كنيسة الإسكندرية، واحتفظ ثيوفيلوس بتمثال واحد لأحد الأرباب ليقيمه في أحد الميادين من قبيل "الازدراء والسخرية" بالعبادات الوثنية. وقد أدى هذا بالذات إلى استياء أمونيوس، الذي عبر عن ذلك بقوله "أن ديانة الوثنيين قد أسيء إليها بصورة فجة بالإبقاء على هذا التمثال"[١٠٨].

---

(١٠٧) SOCRAT. Loc. Cit ويقول "وقد كنت أتتلمذ عليهما في القسطنطينية في فترة شبابي".

(١٠٨) يذكر سوزومنوس أن نيل مصر لم يفض في هذا العام، وأن الوثنيين عزوا ذلك إلى ما حل بأربابهم، وعدم تقديم القرابين لآلة النهر. وقد كتب حاكم مصر إلى الإمبراطور يخبره بذلك، فرد عليه ثيودوسيوس بقوله "دع هذا النهر يتوقف عن الفيضان حتى ولو كان السحر ضرورة لتأكيد انتظام فيضانه، أو كانت البهجة تعلو صفحته لتقريب الأضحيات، أو كان الدم يحب أن يمتزج بمياهه التي تنبع من فردوس الإله"!! ولكن سوزومنوس يختم القصة معلقاً بقوله: "لقد أوردتها كما رويت لي"! ويذكر ثيودوريتوس إنه عندما هوت المعاول على السرابيوم تهدمه، أفرج المعبد عن أعداد لا حصر لها من الجرذان، وأن هدم هذا المعبد دون حراك الآلهة كان سبباً في تحول كثير من الوثنيين إلى المسيحية" أنظر: SOZOM. Hist. eccl. VII 15; THEOD hist. eccl. V 22; RVFIN. Hist. eccl. II 29; SOCRAT. hist. eccl. V 15-16.

حتى إذا ما جاء عام ٣٩١ أدرك ثيودوسيوس ومستشاروه الكنسيون، وعلى رأسهم الأسقف الميلانى أمبروز، أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية للوثنية، فأعلنها حرباً على الوثنية ضروساً. ولعله من المنطقى أن نربط بين الإجراءات الصارمة التى اتخذها ثيودوسيوس فى هذا العام والذى يليه، وبين إذلال ميلانو الذى جرى له فى السنة السابقة على يد أمبروز بعد حادثة سالونيك. إذ أن الأسقف انتهز هذه الفرصة المواتية تماماً، ليحاول عن طريق الدولة الإجهاز كلية على الوثنية، بحيث تحتل المسيحية المرتبة الأولى، ومن ثم فإنه فى الرابع والعشرين من فبراير ٣٩١ أصدر ثيودوسيوس مرسوماً عاماً يقضى بإغلاق جميع المعابد فى كافة أنحاء الإمبراطورية وتحريم الأضحيات تحريماً تاماً، ثم لم يلبث أن ثنى ذلك فى الثامن من نوفمبر ٣٩٢ بمرسوم عام جديد نص على تدمير عدد من أشهر المعابد الوثنية فى الإمبراطورية، ومنع إحراق البخور أمام الأرباب فى المعابد أو فى البيوت، ولعن العرافة والتنجيم، وفرضت الغرامات المالية الباهظة على كل من يحاول التردد على المعابد التى أغلقت أو المزارات المقدسة، ووصلت إلى حد مصادرة الأملاك الخاصة من المبانى أو الأراضى التى تجرى فيها ممارسة مثل تلك الطقوس، واعتبرت الديانة القديمة وطقوسها، كما جاء فى المرسوم، محض "خزعبلات وثنية" gentilicia superstito وعد كل من يخالف نص هذين المرسومين، خارجاً على الإمبراطور والعقيدة، معرضاً نفسه لتهمة الخيانة العظمى ضد الدولة[١٠٩] حتى جاز لأحد المؤرخين أن يدعو هذا المرسوم الأخير "أنشودة الأحزان الوثنية"[١١٠]. وشهدت سنة ٣٩٣ أخر احتفال بالألعاب الأوليمبية، وتم نقل تمثال زيوس Zeus رب الأرباب، ذلك العمل الرائع للمثّال الإغريقى فيدياس Phidias من على جبل الأوليمب إلى القسطنطينية[١١١].

---

(١٠٩) انظر : SOZOM hist eccl VII 20

وقارن : Vasiliec, op. cit. I p. 83; Bury, op cit I p. 369.

و Jones, later Roman Empire, I p. 186.

وله أيضاً : The decline of the Ancient world, p. 71.

وكذلك : Chadwick, op. cit. p. 168.

(١١٠) Vasiliev, op cit. I p. 83

(١١١) Id.

هكذا غدت المسيحية على عهد ثيودوسيوس بمقتضى هذين المرسومين دين الدولة الرسمى، بعد أن ظلت ثلاثة أرباع القرن الرابع ديانة شرعية إلى جوار العقائد الأخرى فى الإمبراطورية، منذ رفع قسطنطين وليكينيوس عن كواهل رعاياها عبء الاضطهاد الوثنى، ذلك أنه منذ عام ٣١٣ وحتى عام ٣٩١ لم يصدر أحد من الأباطرة مرسوماً عاماً باضطهاد الوثنية، إلا عندما أقدم ثيودوسيوس على اتخاذ هذه الخطوة. ولا شك أن سياسة ثيودوسيوس الدينية تمثل الصورة المقابلة أو المضادة لسياسة الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)، فبينما كان ثيودوسيوس يعتبر اضطهاد الوثنية والفرق المسيحية الخارجة عن النيقية، ضرورة لأمن الإمبراطورية، فإن دقلديانوس كان يطبق نفس النظرة فى اضطهاده للمسيحيين، بل إن هذه أيضاً كانت نظرة الأباطرة الرومان الوثنيين للمسيحية قبل دقلديانوس عندما صدر أول مرسوم عام باضطهاد المسيحية على عهد الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١)، وكان ذلك راجعاً إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت تمر بها الإمبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث الميلادى.

وإذا كانت كفة الأقدار الآن قد مالت لصالح المسيحية، إلا أن هذا لا يعنى أن الوثنية قد استسلمت دفعة واحدة. فالفلاحون فى ريف الإمبراطورية كانوا أشد الناس تعلقاً بهذه الديانة القديمة، خاصة أولئك الذين يرتبطون بها بالمولد أو الزواج. وكانت المشكلة الحادة فى الغرب بصفة خاصة هى كيفية اقتلاع الخزعبلات والأساطير من بين أفئدة الفلاحين، أما فى المدن وحتى قلاع المسيحية ذاتها كسوريا وآسيا الصغرى وأطراف مصر، فإن الطقوس السرية بما فيها الأضحيات، ظلت تمارس على الأقل حتى القرن السابع الميلادى، ومن ثم فقد انقضى وقت طويل قبل أن تدخل هذه المراسيم الإمبراطورية التى صدرت عامى ٣٩١، ٣٩٢ حيز التنفيذ الجدى، بل إن ثيودوسيوس نفسه، صاحب هذه المراسيم، جعل من الخطيب الوثنى ثمستيوس Themstius محافظاً للقسطنطينية، وعهد إليه بتربية ابنه أركاديوس، وبقيت مدرسة أثينا تؤدى رسالتها فى حفظ التراث الكلاسيكى دون أن تتأثر بأى من مراسيم ثيودوسيوس، حتى أدركتها بالفناء يد جوستنيان فى القرن السادس الميلادى.



الفصل الخامس

إذلال ميلانو

الفصل الخامس

إذلال ميلانو

لم يكن من السهل على الفكر السياسى الرومانى أن يقبل وجود كيان داخل الدولة، أو بتعبير آخر، دولة داخل الدولة، ذلك أنه تبعاً للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والإمبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك فى أن يعتنق من العقائد ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام. ومن هنا كان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة المسيحية التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة، وزاد الأمر تعقيداً أن المسيحيين عزلوا أنفسهم عن المجتمع الرومانى والحياة العامة، فلا يشاركون الرومان الوثنيين طعامهم أو مبارياتهم أو مسارحهم، ولا يتزوجون منهم أو يزوجونهم، ولا يشتركون فى الوظائف العامة للدولة، ولا ينخرطون فى سلك التجنيد العسكرى، إلا بأعداد قليلة جداً وفى فترة متأخرة. ولما كانت الوثنية متسامحة مع أرباب العقائد الأخرى، وتسمح بوجودهم إلى جوار أربابها فى البانثيون الرومانى، على حين ترفض المسيحية الاعتراف بأرباب أخرى غير إله المسيح، ومن ثم يرفض المسيحيون العبادة الإمبراطورية، التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والإمبراطور، غدا المسيحيون فى نظر الرومان منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها. ومن هنا تعرض المسيحيون للاضطهاد لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب بل على أيدى أباطرة مصلحين أمثال تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس، وإن لم يكن اضطهاداً عاماً أو رسمياً أو مستمراً.

ولم يكن الأباطرة الوثنيون يعنيهم من أمر الخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة المسيحية شيئاً، ولهذا كانت نظرتهم إلى المسيحيين واحدة، وسياستهم تجاه الكنيسة بصفة عامة تسير على وتيرة واحدة، اضطهاداً أو تسامحاً، فلما كان عهد الإمبراطور قسطنطين وأخذت الدولة تتبع سياسة جديدة تتسم بالتسامح مع

المسيحيين، ثم التأييد على عهود أبنائه، ثم الانحياز الكامل زمن ثيودوسيوس وخلفائه من بعده، وجدت الدولة نفسها أمام مشكلة جديدة لم تعتد عليها من قبل، خاصة بعد أن أقحمت المشاكل العقيدية نفسها على الجهاز السياسى الرومانى. ومن هنا كان وضع الكنيسة فى الإمبراطورية الرومانية شيئاً جديداً وفريداً فى عالم تلك الأيام على حد تعبير بيورى(١)، خلق عدداً من المشاكل من نوع لم يكن أى إمبراطور رومانى حتى الآن قد اعتاد على مواجهتها من قبل، ولم يكن لأحدهم خبرة سابقة تفتح له بابا يلج منه لحل هذه المشكلات. ولا شك أن تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان سيصبح على قدر كبير من الاختلاف مما غدا عليه، لو أن الكنيسة بقيت مستقلة الشأن كما كان عليه الحال قبل قسطنطين، أو أن هذا الإمبراطور وخلفاءه أنعموا عليها بمثل ما أنعم به أسلافهم من حرية على المعابد الوثنية.

وبنفس الفكر السياسى الرومانى فى الإمبراطورية الوثنية، عالج قسطنطين شئون الكنيسة المسيحية وخلاف العقيدة فيها، خاصة وأن الرجل أمضى ثمانية عشر عاماً (٣٠٦-٣٢٣) يناضل من أجل وحدة الإمبراطورية سياسياً، ولهذا لم يكن يسيراً عليه أن يسمح لجماعة رفع عنها هو إصرها والإغلال التى كانت عليها، أن تعكر صفو سلامه السياسى بأمور عقيدية بدت له "تافهة" و"عقيمة" و"خلة حمق صبيانى" فدعا هو بنفسه إلى عقد المجامع، المكانية أولاً كما حدث فى المسألة الدوناتية (٢). وهو بعد فى الغرب، ثم تدخل فى الأمر بشخصه وقضى فيه بحكمه، ثم دعا من بعد إلى عقد المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥، ورأس الجلسة الافتتاحية، وشارك فى بعض جلساته وتدخل فى أمر العقيدة، فأضاف إليها ما ليس منها وما غدا قاعدة الإيمان للكنيسة الجامعة بعد ذلك، وصدق على قرارات المجمع، وأثاب الموافقين ونفى المخالفين، كل هذا يجرى ولم يكن قد تناول بعد سر المعمودية. ولم ترفع الكنيسة الرأس معارضة، ولم تكن فى ذلك راغبة، وحتى إذا

---

(١) Bury, op. cit. I p. 63.

وقارن Legacy of Middle Ages, p. 509.

(٢) عقدت فصلاً خاصاً للحديث عن المسالة الدوناتية فى كتابى: الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الرابع.

رغبت فلم تكن تقدر، بعد أن مد قسطنطين يده إليها لينتشلها وهى تصارع موج الاضطهاد وتوشك على الغرق إبان عصر الاضطهاد الأعظم (٣٠٣-٣١٣)، فكيف لها إذن أن تعارض ولى النعم!!.

ولم يتخل واحد من خلفاء قسطنطين على امتداد عمر الإمبراطورية عن ممارسة هذه الأمور مع الكنيسة، وحرص جميعهم عرفوا من أمر اللاهوت شيئاً أم لم يعرفوا - على أن يظلوا أصحاب السيادة المطلقة فى علاقاتهم مع الكنيسة، والتى تمثلت فيما يعرف بالقيصرية البابوية Caesaropapism فالإمبراطور الذى كان الكاهن الأعظم فى الإمبراطورية الوثنية، أصبح هو الآن الأسقف الأعلى وقد تحولت الدولة إلى المسيحية. وقد اتبع أبناء قسطنطين الثلاثة الأسلوب نفسه فى تعاملهم مع الكنيسة، وإن كان أحدهم وهو قسطنطيوس، قد دخل فى صراع سافر مع الأسقف السكندرى أثناسيوس طيلة عهده، ولما كان أثناسيوس يعتبر آنذاك رمز الأرثوذكسية، فإن المقاومة التى أبداها تجاه السلطة الإمبراطورية كانت مؤشراً على أن المجتمع الجديد يستطيع أن يقرر فكره وإرادته بصورة لم يسبق لها مثيل فى علاقة الدولة بالكنيسة [٣]. ولكن من الأهمية بمكان أن نضع فى اعتبارنا دائماً أن أسقف الإسكندرية فى تحديه للسلطة الإمبراطورية، لم يكن يضع نظرية معينة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، ذلك أنه لم يكن يناوئ سلطان الدولة فى حد ذاته بل كان يتحدى فيها سيادة العقيدة الآريوسية ليس إلا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو عند الأسقف السكندرى أثناسيوس، فإنه يختلف إلى حد كبير عنه عند أبى المجامع، هوسيوس القرطبى، وإذا كنا لا نعد ما كتبه هذا الأخير أيضاً نظرية فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، بالمعنى المفهوم للنظرية، إلا أنه يمكن اعتباره بادرة مبكرة، وخطوطاً واضحة لطبيعة هذه العلاقات الآتية التى سيطرت على العصور الوسطى فى أوربا فيما بعد، وصبغت تاريخ حقبة كبيرة من الزمن ما بين القرنين العاشر والثالث عشر، ويؤيد ذلك أن هوسيوس ظل مستشار الإمبراطور قسطنطين للشئون الكنسية طيلة عهده، ولم تصدر عنه أية إيماءة توحى بالاعتراض على أى من سلوك الإمبراطور الذى

(٣) Bryce, The holy Roman Empire, p. 12.

اعتبرته الكنيسة الحوارى الثالث عشر للمسيح. ومن هنا يصدق القول أن ما جاء فى رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس كان مجرد خطوة وإن كانت بعيدة على طريق تحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الغرب فى العصور الوسطى، على حين حسم الشرق هذه المسألة منذ البداية بحيث احتوت الدولة الكنيسة وأصبحت هذه إحدى دوائر تلك، والأسقف مجرد موظف كبير فقط عند الإمبراطور.

وكانت أهم العبارات التى تضمنتها رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس، والتى كتبها إليه بعد عقد مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ الذى انتهى بإدانة أثناسيوس والنيقية فى شخصه، ومحاولة التأثير على هوسيوس للتصديق على ذلك، قوله: "... لا تقحم نفسك فى المسائل الكنسية، لا تصدر إلينا أوامر هى من صميم شئوننا، بل لتعلمها أنت منا نحن. الله وضع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة، وكما أن الذى يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر فى عينى الرب، فلتخش أنت أيضاً التدخل فى شئون الكنيسة حتى لا تأتى بذلك شيئاً إدّا. مكتوب.. (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم فليس من حقنا أن نمارس حكم الدنيا، وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور"(٤). وإذا جاء حديث هوسيوس بهذه الصراحة، فلا ينبغى أن يغرب عن ذهننا أنه رحب شأن يوسيبيوس القيسارى بالتزاوج بين الدولة والكنيسة، منذ عمل فى خدمة قسطنطين، ومنذ طلب الدعم من ولده قنسطانز قبل انعقاد مجمع سرديكا عام ٣٤٣ وبعده، وإن كنا نعتبره فى الوقت ذاته – كما قدمنا – إرهاصاً وسابقة لما سيحدث بعد ذلك. ومن هذه الدائرة يمكننا أيضاً أن ننظر إلى ما كتبه هيلاريوس أسقف بواتييه فى عمله الشهير "ضد الإمبراطور قسطنطيوس" Contra Constantium Imperatorem بعد أن أصبحت الآريوسية الهوموية لها السيادة بعد مجامع ريمنى وسلوقية عام ٣٥٩ ونيقا والقسطنطينية سنة ٣٦٠.

وكان ابتعاد الأباطرة عن الغرب وإقامتهم على شاطئ البسفور فى القسطنطينية وبصفة خاصة الأباطرة ذوى الشخصية القوية والنفوذ خلال القرن الرابع، فرصة سانحة كى تمارس الكنيسة فى الغرب عملها دون إشراف مباشر من الأباطرة، كما جرى عليه الحال فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، وكان هذا

(٤) HOSIVS, ep, ad Cons (in ATHANAS, hist. Arian, 44, Nicene, vol. IV).

من بين الأسباب العديدة التى دعت أكليروس الغرب إلى نبذ العقيدة الآريوسية بعد ارتحال قسطنطيوس عائداً إلى القسطنطينية عام ٣٥٦، وكان هذا فى الوقت ذاته أيضاً مدعاة لأن تصبح الكنيسة الغربية أقل اعتماداً على الدولة من قرينتها فى الشرق.

وقد وجدت الكنيسة الغربية فى شخص أمبروز، الذى جعل من ميلانو منافساً خطيراً لروما، رغم احترامه وتقديره للكرسى الرومانى وأساقفته، منتهزاً فرصة خلو عرش بطرس من شخصية قوية آنذاك، وجدت فيه زعيماً استطاع أن يتمسك بحقوق الكنيسة وإن كان فى الوقت نفسه صديقاً مخلصاً للأباطرة وخادماً أمينا للإمبراطورية. ولما كان أمبروز رومانياً من الطراز الأول، ولد وتربى فى جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين فى الإمبراطورية، فقد جاء إلى خدمة الكنيسة مزوداً بما اشتهر به الموظف الرومانى من روح عامة وإخلاص للواجب العام. ولم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة، حيث كان يعتقد أن الإيمان الحق سوف يكون مصدر قوة جديدة للإمبراطورية، وكما انتصرت الكنيسة على الوثنية فستنتصر الإمبراطورية المسيحية على الجحافل الجرمانية (٥). لقد كان أمبروز بحق أول الدعاة إلى مثالية الدولة المسيحية فى الغرب، كما كان يوسيبيوس القيسارى فى الشرق، وإن كان هناك فارق كبير بينهما، فأمبروز يختلف تمام الاختلاف عن يوسيبيوس فى تصويره لواجبات الحاكم المسيحى والعلاقة بين الكنيسة والدولة، وإذا كان موقف يوسيبيوس من الإمبراطور قسطنطين قد اقتصر على موقف أسقف يدين بالفضل للبلاط الإمبراطورى، وهو يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان على غرار الهالة التى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة فى الشرق القديم، ويخاطبه على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر، فإن أمبروز ينتمى إلى تقاليد أخرى، إذ يقف فى منتصف الطريق بين مثالية العصور القديمة على المسئوليات المدنية، ومثالية العصور الوسطى المنادية بسمو السلطة الروحية. لقد جمع أمبروز فى شخصه شيئاً من صفات الحاكم فى العصور الرومانية وشيئاً من صفات البابا فى العصور الوسطى، فرأى أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدى رجالها، أى الأساقفة الذين يجب أن يخضع لسلطانهم

---

(٥) دوسن، تكوين أوربا. ص٥٢.

جميع الناس حتى الإمبراطور نفسه، وهو لا يتردد فى تحدى الأباطرة وزجرهم ومحاسبتهم على أعمالهم المنافية للعدالة [٦].

هذه النواحى نجدها متمثلة في علاقاته بالأباطرة فالنتينيان الأول وولديه جراتيان وفالنتينيان الثانى، ثم ثيودوسيوس. فهو يلوم الإمبراطور فالنتينيان الأول على سلوك بعض موظفيه وخروجهم عن جادة الصواب، ولما يمضى على اختياره لأسقفية ميلانو إلا فترة قليلة جداً، وهو يصر على ضرورة الإيمان النيقى لدى الأباطرة حتى يمكنهم مواجهة التحديات التى تهدد الإمبراطورية متجسدة فى الزحوف الجرمانية، إذ كتب إلى الإمبراطور جراتيان ضمن عمله "عن الإيمان" الذى أعده بناء على طلبه، يقول:

"ليس من واجبى أن أعوق مسير عظمتكم فى وقت تستعدون فيه للحرب وإتمام النصر على البرابرة، فتقدم يحميك درع الإيمان، مسلحاً بسيف الروح القدس، إمض إلى النصر الذى وعدنا الله به وأنبأت به المعجزات التى جرت على يديه[٧]... إن جيشنا لا تتقدمه النسور الحربية، ولا الطيور المحلقة، بل اسمك أنت أيها الرب يسوع، وصلواتنا عليك. ليست هذه الديار للكافرين، إنها إيطاليا التى اعتادت أن تبعث دوماً بالمعترفين، إيطاليا التى طالما أغراها أهل الهوى، ولكنها إليهم لم تنحرف، إنها إيطاليا التى كثيراً ما دافع عنها جلالتكم، والتى تعملون على إنقاذها الآن من البرابرة. إن إمبراطورنا لا يحمل فى رأسه عقلاً متردداً، بل إيماناً ثابتاً لا يتزعزع"[٨].

ورغم أن أمبروز لم يتوان عن القيام بمهمة سياسية أوفده فيها الإمبراطور فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا، إلى الإمبراطور المغتصب ماكسيموس فى عامى ٣٨٤، ٣٨٧، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواجهة فالنتينيان بكل الحزم والعنف عندما علم بما كان من أمر السناتو الرومانى وزعيمه سيماخوس معه فيما يتعلق بمسألة إعادة مذبح النصر إلى مكانه القديم، إلى حد التهديد بتوقيع الحرمان الكنسى ضد

---

(٦) المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤.

(٧) AMB, de fide II 136.

(٨) Ibid. 142.

الإمبراطور، ثم نجد أن أمبروز يكشف عن أفكاره الأساسية حول العلاقة بين الدولة والكنيسة، ويعلنها صراحة منذ الآن فصاعدا وحتى نهاية حياته فى رسائله إلى الأباطرة وسلوكه إزاءهم، فقد وقف موقفاً صارماً من فالنتينيان وأمه بعد أن أدرك ميلهما إلى الآريوسية ومحاولة الاستيلاء على إحدى كنائس ميلانو، فقد جاء فى رسالته إلى فالنتينيان بهذا الخصوص:

"... متى سمعت أن العلمانيين قد أصدروا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس؟ أو أن نعطى إلى آخرين ما عهد الله به إلينا؟ وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقش العلمانى وليصغ رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك، ولكن مع كل هذا الذى لا شك فيه، إننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه فى مسائل الإيمان، وأكررها، فى مسائل الإيمان،، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة وليس هؤلاء قضاة أولئك"[٩]. ويضيف: "إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحده"[١٠]. "القصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس.. لقد خولت فقط السيادة على المرافق العامة لا على الأبنية المقدسة"[١١]. "نحن نعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله. الجزية لقيصر، نحن لا ننكر ذلك، والكنيسة لله ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القصير"[١٢]. ويؤكد فكره حول هذا بصورة لا تدع مجالاً للشك عندما يقول: "إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"[١٣].

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

---

(٩) AMB. Ep. XXI 4.
(١٠) AMB. Ep XX 7.
(١١) Ibid. 19.
(١٢) Ibid. 35
(١٣) Ibid. 36.

وإذا كان هوسيوس قد خطا خطوة الكنيسة الأولى على طريق تحديد علاقتها بالدولة، فإن أمبروز قطع نصف الطريق وصولاً إلى ذلك الهدف، ذلك أن شيئاً من ادعاء الكنيسة بالسيادة فى الحياة لم يكن قد تحقق منه شيء حتى أيام أمبروز، ولذلك.فليس من المبالغة فى شيء القول بأن البابا جريجورى السابع اعتمد فى كثير من أفكاره وجهوده عن سمو الكنيسة فى القرن الحادى عشر على ما أقره قبلاً أمبروز فى القرن الرابع الميلادى، إلا أن أمبروز لم يجد السبيل أمامه فى هذا الطريق يسيراً، إذ أن ادعاءاته هذه بحقوق الكنيسة وكيانها المستقل، كانت تبدو للفكر الرومانى غريبة عنه، خاصة وأن الدولة قد سيطرت على الكنيسة فى عهد الأباطرة الوثنيين، ثم احتوتها منذ القرن الرابع بعد أن أخذت تميل إلى المسيحية. وكانت سيادة قسطنطين على الكنيسة المثل الذى يحتذيه خلفاؤه من بعد، ولذا كان اصطدام أمبروز بالدولة وسيادتها ممثلة فى شخص ثيودوسيوس الآن حتماً مقضياً. وإذا كان شباب جراتيان وطفولة فالنتينيان الثانى قد ساعدت الأسقف الميلانى على أن يحقق للكنيسة نوعاً من السيادة تجاههما، فإن شخصية ثيودوسوس، وفكرته عن سيادة الدولة، اتساقاً مع الفكر السياسى الرومانى، ورغبته فى تأكيد سيطرة الدولة على كل رعاياها، كان مدخلاً طبيعياً للصدام مع الكنيسة ممثلة فى أمبروز.

لقد أنعم ثيودوسيوس على الكنيسة والأكليروس المسيحى بكثير من الامتيازات.التى ربما فاقت ما أقدم عليه أسلافه فيما يتعلق بالواجبات الشخصية ومسئوليات الحكم، غير أنه مع ذلك وضع فى اعتباره أن لا تتعارض هذه الامتيازات مع اهتمامات واختصاصات الحكومة، ومن ثم فإنه بقرار واحد فرض على الكنيسة التزامات غير عادية extra ordinaria munera من أهمها أن مقدرة الكنيسة على اعتبارها ملجأ وملاذاً للمجرمين والتى احترمت من جانب الدولة من قبل، حددت الآن بصورة كبيرة بسبب سوء استخدام هذا الامتياز، ومن ثم فقد منع المدنيين بصفة خاصة من الاحتماء فى الكنائس هرباً من دائنيهم، ومنع الأكليروس من التستر عليهم(١٤).

(١٤) Vasiliev, op. cit. I p. 82.

ولم تكن السنوات التى أعقبت انتصار ثيودوسيوس على ماكسيموس فى الغرب، إلا محكاً لاختبار القوى بين الكنيسة والدولة، ففى عام ٣٨٨ قام الأسقف والرهبان المسيحيون فى كاللينيكا Callinicum فى ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) Mesopotamia بتحريض الغوغاء من الجموع المسيحية على إحراق معبد لليهود وكنيسة لفريق من الخارجين على النيقية يعرف بالفالنتينيين Valentinians ولما كانت اليهودية تتمتع بالحماية الرسمية من جانب الدولة، فقد أصبح لزاماً عقاب هؤلاء الدهماء، وعلى الفور أصدر ثيودوسيوس أوامره إلى أسقف كاللينيكا بإعادة بناء المعبد اليهودى ثانية [(١٥)]. ولا شك أن الإمبراطور الذى كان موجوداً فى الغرب آنذاك، كان حريصاً على أن يضمن هدوء تلك المناطق الشرقية حتى لا يستغل الفرس هذه الأحداث، وانشغال الإمبراطور بإقرار الأمور فى الغرب، للقفز على جبهة الفرات، التى كانت قد شهدت سلاماً حديثاً فقط جرى به توقيع معاهدة فى العام الماضى، خاصة وأن الثورة فى أنطاكية لم يكن قد انقضى على إخمادها شهور معدودات.

ومن الجدير بالذكر أن العلاقة بين اليهود والمسيحيين منذ البداية لم تكن طيبة على الإطلاق، ظل هذا ديدنها طيلة العصور الوسطى، وكان هذا يعود فى المقام الأول إلى الموقف العدائى الذى اتخذه اليهود من المسيح والمسيحيين، وانعكس ذلك بدوره على علاقتهم مع الإمبراطورية، ذلك أن اليهود لم يجدوا فى المسيح بغيتهم التى كانوا يؤملونها فى الـــ"مسيا" الذى إياه ينتظرون، فقد جاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم وعداً حسناً فى الدار الآخرة، ولم يكن طموحهم أخرويا، بل دنيويا، يتمثل فى مسيح ملك يعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء ومن القوة والعظمة، وينهى بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال، ويثقون فى أن "يهوه" لن يتخلى عنهم، ولم لا ونبوءات أنبيائهم تحدثهم بذلك. فهذا أشعياء يقول :لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً الها قديراً أبا أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته والسلام لا نهاية على كرسى داود

---

(١٥) AME. Ep. XLI 1.

وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا" (اشعياء ٩/٦-٧).

وكان الإذلال الذى تعرض له اليهود إبان العصر الرومانى دافعاً لهم على التعلق بهذه الآمال بعد أن تحطمت آمالهم بيد أباطرة الرومان خلال القرنين الأول والثانى، وكانت اليهودية قد أخذت فى الانتشار الواسع فى حوض البحر المتوسط الشرقى مستفيدة من غزو الإسكندر المقدونى الذى فتح العالم الإغريقى كله أمام اليهود، فاحتلوا مراكز التجارة العامة فيه، وسيطروا على طرق المواصلات الرئيسية، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العسكرية، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم، وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها. حتى أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى جوديا Judaea نفسها . وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سبباً فى إعادة إحياء هذه الديانة، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين، واستطاعات اليهودية أن تجذب إليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من هؤلاء.

وعلى الرغم من أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى، واستسلموا تدريجياً لمظاهر هذه الحضارة، إلا أنهم ظلوا يكونون شكلاً من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى القدس، وعندما أضحت جوديا جزءاً من ولاية سوريا الرومانية فى عام ٦٣ ق.م. حفظت روما لليهود موقفهم إزاءها أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين، كما ذكرت لهم بكل التقدير تخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة فى مصر ووقوفهم إلى جانب أوكتافيانوس، فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من الدول الهلنستية، ولم يطلب إليهم المشاركة فى العبادة الإمبراطورية، وحظوا بنوع من التسامح كانت تقره الوثنية، وتمكن اليهود من التخلص بلباقة من المأزق الذى دفعهم إليه الإمبراطور كاليجولا عندما أصدر أوامره بأن يقدم أتباع كل العبادات قرباناً لتماثيله، حيث قطعوا نصف الطريق إلى ترضية الإمبراطور بقبولهم أن يضحوا للاله يهوه باسم الإمبراطور.

غير أن اليهود قاموا بثورتين خلال هذه الفترة، الأولى فى جودايا فى ستينيات القرن الأول أخمدها الإمبراطور فسباسيانوس بعنف ودمر الهيكل، وأمر بتحويل الضريبة التى يدفعها اليهود إلى هيكل بيت المقدس إلى البانثيون فى روما، والثانية فى عامى ١١٦/١١٥ عندما شبت الثورة فى روما وامتدت منها إلى مناطق عديدة من الإمبراطورية فى برقة ومصر وقبرص وما بين النهرين، وتمكن الإمبراطور هادّريان من القضاء عليها، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوماً يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من الأعياد اليهودية، أو إقامة أى طقس من طقوسهم علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد خلال العام ليسمح لهم فيه بالبكاء أمام خرائب الهيكل.

ولم يتحسن وضع اليهود بمجيء قسطنطين الذى أصدر مرسوماً فى عام ٣١٩ تهدد فيه اليهودِ بعقوبة الحرق إذا ما وقفوا حجر عثرة فى سبيل "التحول إلى عبادة الله". ومن المعروف أن القانون الرومانى لم يكن يستبعد تطبيق عقوبة الإحراق للمجرمين، خاصة إذا كانوا من الطبقات الدنيا. وعبارة المرسوم غامضة لا تشير إلى المسيحية مباشرة، وهذا يؤكد من جديد تلك السياسة التى سار عليها قسطنطين فى علاقته بالعقائد المختلفة فى الإمبراطورية، خاصة وأنه فى هذه السنة كان ما يزال سيد الغرب فقط. وقد أبدى قسطنطين سعادته عندما وافق مجمع نيقية على تعديل عيد الفصح حسب ما تحتفل به كنيستا روما والإسكندرية، خلافاً لما جرى به التقليد الكنسى من قبل من الاحتفال بهذا العيد تبعاً للتقويم اليهودى. ويمكن القول بصفة عامة على حد تعبير المؤرخ جواتكين Gwatkin أن اليهود لم يظهروا فى يوم ما ولاءهم للإمبراطورية، كما أن الإمبراطورية وقد أخذت تتحول إلى المسيحية، كانت تحمل لهم عداء دائماً، وإن كان هذا قد خف بصورة ما على عهد الإمبراطور جوليان الذى عمل على أن يقربهم إليه كجزء من سياسته العامة تجاه المسيحية، وإن كان ذلك لم يظهر فى مرسوم عام من جانبه، ولم تدل عليه الأحداث إلا عند مقدمه إلى أنطاكية التى كان بها جالية يهودية كبيرة، وتشير بعض الروايات إلى أنه سمح بإعادة بناء الهيكل ثانية، وإن كان هذا لم يتحقق.

وعلى أى حال فإن أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية كان كل منهما يحمل العداء للآخر، خاصة من جانب المسيحيين الذين كانوا يذكرون دائماً مواقف اليهود المختلفة من المسيح وعداءهم له. ولم يكن اليهود يقلون عنهم شعوراً بهذا العداء على اعتبار أنهم أتباع المسيح الذى رفضوه، والذين تتهيأ لهم الأمور لتصبح عقيدتهم لها السيادة فى الإمبراطورية، ويصبحون هم بالتالى رعايا لجماعة يعدونها منشقة عنهم وخارجة، ومن ثم كان التوتر قائماً بينهما بصفة مستمرة، ولهاذ فإن ما وقع فى كالينيكا فيما بين النهرين، من إحراق المعبد اليهودى هناك على يد الجموع المسيحية بتحريض الأسقف والرهبان، لهو دليل على هذه الناحية بشكل مباشر. وبينما كان الإمبراطور ثيودوسيوس ينظر إلى هذه الحادثة باعتبارها مسألة تخص الحكومة الإمبراطورية وسلطانها، كان الأسقف الميلانى أمبروز يعتبرها أمراً عادياً جزاء ما قدمت أيادى اليهود فى حق المسيح وأتباعه. ولهذا فإنه على حين أصدر الإمبراطور أوامره بإعادة بناء المعبد ثانية، وأن يتولى الأسقف نفسه هذه المسألة، راح أمبروز يستحث الإمبراطور على العدول عن قراره، حتى اضطره إلى ذلك فعلاً. وقد كتب أمبروز رسالة مطولة إلى ثيودوسيوس حول هذا الأمر، لا يعدلها فى إطنابها إلا رده على سيماخوس.

والرسالة تثنى على رحمة ثيودوسيوس وعدالته، وورعه وتقواه، إلا أن ذلك لا يمنع من الوقوع فى الغواية بتأثير عوامل معينة. ولذا فمن واجب أمبروز كأسقف أن يوجه النصح والرشد للإمبراطور بما يمليه عليه واجبه الدينى وصداقته الحميمة التى تربطه به. ولهذا كان من الضرورى أن يوضح له أن قراره بإعادة بناء المعبد اليهودى ثانية يشكل إثما خطيراً إذ أنه سيدفع رجال الأكليروس المسيحى بعد ذلك إلى سلوك أحد سبيلين، فإما الزيغ والضلال نتيجة سكوتهم عما يرونه من انتهاك لحرمات الدين، وأما الموت خلاصاً من ذلك. وقد أشار أمبروز إلى الرواية التى تقول إن جوليان أمر بإعادة بناء الهيكل ثانية، وما كان من أمر اشتعال النيران فيه قبل إتمام بنائه، وقارن بين قراره هذا وهو إمبراطور مسيحى، وبين موقفه عندما أضرمت النيران من جانب الآريوسيين فى منزل أسقف العاصمة نكتاريوس فى نفس الفترة تقريباً، وراح يعدد الكنائس الكثيرة التى أحرقها

اليهود على عهد جوليان فى غزة وعسقلان وبيروت والإسكندرية، والمذابح التى أوقعوها بالمسيحيين، ويوجه الاتهامات العنيفة إلى اليهود وينعتهم بالإلحاد، ويذكر الإمبراطور بأن انتصاراته على ماكسيموس التى جرت منذ شهور تعود إلى تأييد الله له، فكيف يغضبه الآن لارضاء هؤلاء اليهود؟ وإذا كان قد عفا عن الأنطاكيين الذين أساءوا إلى شخصه بتحطيم تماثيله، فلا أقل من أن يعدل عن قراره هذا. ولم يفت أمبروز أن يشهر فى وجه الإمبراطور فى آخر سطور رسالته سلاح التهديد بقرار الحرمان الكنسى.

ولعله من الضرورى هنا أن نبسط فكر أمبروز حول هذا الأمر، وما تضمنه من علاقة الدولة بالكنيسة، وليس أصدق على هذا "البسط" من أن نترك المجال لأسقف ميلانو كى يعبر بقلمه عما احتواه صدره.. قال:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير الرحيم، والإمبراطور المبارك ثيودوسيوس العظيم.

"أيها الإمبراطور الممجد .. لطالما عانيت .. ولكنى مع ذلك لم أكن فى يوم ما محزونا كيومى هذا. لذا أخذت حذرى موقناً أنه ليس هناك شىء يمكن أن يعزى إلى، ويشتم منه انتهاكاً لحرمة المعابد. ومن ثم فإنى أتوسل إليك أن تصغى بكل الصبر لما أنا قائل، ذلك أنى إذا لم أكن جديراً باصغائك، فلن أكون مستحقاً إذن، وقد حظيت بثقتك، أن أقدم من أجلك النذور والصلوات. ألن تسمع أنت نفسك من ترغب فى أن يسمع من أجلك؟ ألن تصغى لهذا الذى يعرض قضيته هو وقد أصغيت له وهو يتحدث من أجل آخرين؟ ثم ألست خائفاً من أجل قرارك الخاص، بحيث إذا ظننت أنه غير جدير بأن تسمع له، يمكن أن تجعله بذلك غير جدير بأن يصغى إليه أحد من أجلك.

"ومع كل ذلك فليس من حق أى إمبراطور أن ينكر على أحد حرية القول. وليس من واجب أى كاهن أن لا يبدى ما يدور فى أغوار فكره. ولعل أعظم ما فيك أيها الإمبراطور شهرة وتقديراً هو احترامك لحرية حتى أولئك الذين قهرتهم بالقوة العسكرية. وهذا هو الفارق الجوهرى بين الحاكم الصالح ونقيضه، فالأول

يعشق الحرية والثانى يهوى العبودية، كما أنه ليس هناك شيء أعظم من أن يرعى الكاهن حدود الله. ولا أحط فى فكر الناس من أن يعرفون عنه أنه لا يمتلك الحرية فى التعبير عما يجول بخاطره. مكتوب "وأتكلم بشهادتك قدام ملوك ولا أخزى" (مزامير ٤٦/١١٩). ومكتوب أيضاً "يا ابن آدم قد جعلتك رقيباً لبيت إسرائيل" لأن "البار إن رجع عن بره وعمل إثماً وجعلت معثرة أمامه فإنه يموت لأنك لم تذره يموت فى خطيته ولا يذكر بره الذى عمله. أما دمه فمن يدك أطلبه. وإن أنذرت أنت البار من أن يخطئ البار وهو لم يخطئ فإنه حياة يحيا لأنه أنذر وأنت تكون قد نجيت بنفسك". (حزقيال ١٧/٣، ٢٠، ٢١).

• "وتجمعنى وإياك أيها الإمبراطور رفقة خير لا صحبة شر، ولذا كان صمت الكاهن مدعاة لإثارة السخط والغم فى نفسك، بينما يضفى السرور على قلبك حديثه. وليس الفضول من طباعى بحيث أدس فيما لا يعنينى أنفى، إنى لله وتعاليمه متبع. وما فعلت ذلك كله إلا حرصاً على محبتك، ومودة لك، ورغبة فى أن تظل أعمالك على الدوام طاهرة. فإذا لم أكن أعتقد صدق ذلك فعلاً، أو قدر لى أن أحرم من التصرف وفق هذا الأساس، فيكفى أنى سوف أقدم نفسى بكل الاصطبار فداء لك، فربما تكون دون مجازفتى مقبولاً عند الرب ممجداً. ولكن إذا كانت خطيئة الصمت أو الرياء من جانبى سوف تحط من قدرى، وفى الوقت نفسه لن تطلق يدك حرة فى كل الأمور، فإنى أفضل أن تعتبرنى ملحفاً فى القول لجوجا خيراً من أن تنظر إلى على أنى عدم النفع دنيئاً، فقد جاء على لسان بولس الرسول الذى ليس بمقدورك أن تحاجه فى تعاليمه "أعكف على ذلك فى وقت مناسب وغير مناسب. وبخ، انتهر، عظ بكل أناة وتعليم" (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٢/٤).

"وهناك واحد تصنع شرا لو حاولت اغضابه، خاصة وأن الأباطرة أنفسهم لا يسخطون إذا ما أدى كل شخص واجبه، وأنت نفسك تصغى بكل الأناة لكل إنسان يبدى مقترحات فى مجال عمله، ولا حتى تنتهز أحداً انحرف عن جادة الصواب فى ميدانه. فهل يمكن أن يبدو صفاقة من جانب الأكليروس ما ارتضيته أنت من قبل فى موظفيك، خاصة إذا كنا لا نقول ما نحب، بل ما نحن به مأمورون؟ ولا ريب فقد قرأت "فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون فى

تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم" (متى ١٠/١٩-٢٠). ولو فرضنا أنى رحت أتحدث فى قضايا الدولة، وأنا أعلم أن الصدق لابد أن يتوفر أيضاً فى مثل هذا الحديث، فلن أمتعض إذا ما أحسست أن أحدا لا يصغى لحديثى، أما إذا كان الأمر يتعلق بأمر من أمور الله، فلمن تسمع إذن إذا لم تسمع لكاهن؟ من تراه يجترئ على أن يعلن الحق أمامك إذا لم يفعله كاهن؟

"أنا أعلم أنك إنسان تخشى الله وتتقيه، رحيم، وقور، رقيق، دخل الإيمان إلى قلبك فملأك لله خشية، ومع كل ذلك فإن هناك أشياء غالباً ما تغفل عنها العيون. مكتوب "لأنى أشهد لهم أن لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة" (رسالة بولس إلى أهل روما ١٠/٢). ومن ثم كان لزاماً علينا أن نكون حريصين حتى لا يتسلل ذلك إلى الأرواح المؤمنة. وأنا أعلم مدى اتضاعك لله، وكم أنت بالناس رؤوف، وأنا نفسى مدين لك بالفضل، من أجل هذا يساورنى القلق خشية أن تديننى من بعد بحكم خاص تصدره، مبنى على أنك من خلال رغبتى فى أن أكون صريحاً تمامًا، أو بسبب نفاقى وتملقى، لم تسطع أن تتحاشى بعض الهنات، فإذا ما عاينت أنك أخطأت فى حقى، فليس من واجبى أن ألزم الصمت، لأنه مكتوب "وأن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحدا أو اثنين لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة". (متى ١٨/ ١٥-١٧). أترانى بعد هذا إذن أعقل لسانى عن أمر يخص الله؟ والآن دعنى أعرض عليك مخاوفى والهواجس.

"هناك تقرير دبجه القائد العسكرى للشرق يقول فيه أن معبداً لليهود قد تم احراقه، وأن هذا الحادث قد وقع بتحريض من الأسقف، ولقد أصدرت أوامرك على الفور بمعاقبته الآثمين، وألزمت الأسقف ذاك نفسه بإعادة بناء المعبد. ولست أستحثك كى تؤخر بعض الوقت حساب الأسقف، فالذى أعلمه أن الكهان هم مهدئو الفتنة، حريصون على السلام، إلا عندما يستثارون لأمر يخص الله، أو لإهانة لحقت بالكنيسة. ولنفترض أن الأسقف كان حقاً شديد الحماسة فى مسألة إحراق المعبد، شديد الحياء عند منصة القضاء، ألا يتملكك الخوف أيها الإمبراطور خشية أن يتزعزع إيمان الأسقف بإذعانه لحكمك؟

"ألا تخشى أيضاً إذا ما حدث ذلك، أن يواجه الأسقف قائدك بالرفض ومن ثم فإنه أما أن يدفع الأسقف بعذ ذلك إلى أن يصبح مرتداً أو شهيداً. وهذا أو ذاك قد انقضى زمانه، وكلاهما للاضطهاد قرين إذا ما أكره على الارتداد أو سيق إلى الشهادة. وها أنت ترى إلى أى منحدر تسير الأحداث، فإذا ما تبين لك أن الأسقف ثابت على موقفه، فلتحم من الموت رجلاً خلقه الثبات، أما إذا عرفته مزعزعاً، فلتجنب نفسك إثم سوق إنسان يترنح إلى هاوية السقوط، فهذه الأخيرة فى حد ذاتها مسئولية شديدة الوطء.

"ومادام الأمر قد جرى على هذا النحو فلنفترض أن الأسقف المذكور يقول أنه هو الذى أضرم النيران، واستحث الجموع، وجمع العامة من حوله حتى لا يضيع أى فرصة للشهادة، فبدلاً من أن نقدم ضعيفاً، فلنضع فى المقدمة مصارعا. أى سعادة زائفة إذن تلك التى ينالها شخص لنفسه على حساب تبرئة آخرين. وهذا بعينه أيها الإمبراطور ما ألح فى طلبه، بمعنى أن توقع علىّ عقابا ما، فإذا ما اعتبرت ذلك جرماً، فلتعزوه إلىّ. ولماذا تصدر حكماً غيابيا؟ إن المذنب ماثل أمامك يدلى باعترافاته. أنا الذى أشعلت النار فى المعبد، أو قل على الأقل إننى أنا الذى حرضت من فعل ذلك، فليس من الواجب أن يوجد مكان ينكر فيه اسم المسيح، فإذا ما اعترض على قولى بأنى لست أنا الذى أحرق المعبد، فإن إجابتى لن تخرج عن القول بأن الحريق بدأ بقضاء الله وأن دورى قد انتهى فإذا ما طلب الحق لذاته، فإنى أكون فى هذه الحالة أشد ارتباطاً، لأنى لا أتوقع أبدا أن هناك شيئاً يستحق العقاب. ولماذا أقدم على شيء يبدو كما لو كان لن يؤخذ بثأره، وكذلك دون مكافأة؟ هذا القول يخدش الحياء، ولكنه يوجب الصفح، مخافة أن حدث ذلك أن يكون إثماً يرتكب فى حق الله العظيم.

"ولكن دعنا نسلم بأن أحداً لن يذكر أن الأسقف هو الذى فعل هذا، بدلاً من أن أطلب ذلك من رحمتك، ورغم أنى لم أقرأ بعد أن هذا المرسوم قد تقرر الغاؤه، إلا أننا سوف نفترض أنه قد ألغى بالفعل. وماذا لو أن الآخرين الأشد حياء عرضوا إعادة بناء المعبد على نفقتهم الخاصة؟ أو ماذا لو أن القائد وقد وجد هذه النية المسبقة، قد أصدر أوامره ببنائه ثانية بعيداً عن مدخرات المسيحيين؟ إن لديك

أيها الإمبراطور نائباً مرتداً.. فهل يمكن أن تثق فى النصر يجرى إذن على يديه؟ وهل يمكن أن تعهد بحمل لابرومة المسيح إلى من يحاول إعادة المعبد اليهودى الذى لا يعرف من هو المسيح؟ ألا فلتصدر أوامرك بأن تحمل لابرومة المسيح إلى قلب هذا المعبد لنرى هل يظهرون الاحتجاج والرفض أم لا.

"ترى أيمكن أن يخصص مكان للمرتابين اليهود من بين ما غنمته الكنيسة؟ وهل يمكن أن تنتقل الأملاك الكنسية التى حازها المسيحيون بنعمة المسيح إلى خزانة غير المؤمنين؟ ولقد قرأنا حقاً عن معابد قديمة بنيت من أجل أوثان المغتصبين، قد أخذت من الكمبرى Cimbri وغنمت من غيرهم من الأعداء . فهل يكتب اليهود على مدخل معبدهم: "شيد معبد الألحاد من غنائم المسيحيين"؟

"ولكن.. ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. لكن خبرنى أيها أهم وأعظم؟ إقرار النظام أم العقيدة؟ إن الأمر يحتاج إلى أن تكون الأحكام خاضعة لنظم العقيدة.

"ألم تسمع أيها الإمبراطور بما حدث على عهد جوليان عندما أمر بإعادة بناء الهيكل فى بيت المقدس؟ لقد أكلت النار أولئك الذين راحوا يرفعون الأنقاض[١٦]. أفلا تكون حذراً خشية أن يقع مثل ذلك مرة أخرى؟ إن الواجب يقتضيك أن لا تأمر بما أمر به من قلب جوليان.

"ولكن .. ما هى حقاً دوافعك ؟ أتعود إلى مجرد احتراق مبنى عام، أو لأن هذا المبنى بالذات هومعبد اليهود؟ فإذا كان الأول (مع أنه ليس فى المدينة مبنى ذو أهمية).. أفلا تتذكر أيها الإمبراطور كم من بيوت محافظى روما قد التهمته النيران، ولم يعاقب أحد من جراء ذلك؟ وللحقيقة.. فإن أى إمبراطور تحدوه الرغبة فى إنزال العقوبة الصارمة جزاء فعل ما، فإنه بالتالى سوف يسىء إلى أصحاب القضية الذين لحقهم الضرار، وأيهما أجدر بالقصاص؟ .. إضرام النيران فى بعض

(١٦) لقد جاء ذكر الرواية فى كل كتب المؤرخين الكنسيين وتحدث عنها أميانوس ماركللينوس الوثنى فى كتابه Res gestae XXIII. 1 وليس من المستبعد طبعاً أن تكون النيران قد اشعلت على يد الساخطين.

أبنية كاللينيكا، أو تسعيرها فى روما؟ على افتراض أن هذا أو ذاك واجب الوقوع. ولقد حدث مؤخراً أن النار قد اشتعلت فى منزل أسقف القسطنطينية، وقد تشفع ابنكم فى ذلك طالباً منكم الصفح وعدم الانتقام لهذه الإهانة التى لحقت به.. وبمن لحقت؟ بابن الإمبراطور وأسقف العاصمة. ألا تعتقد أيها الإمبراطور أنك لو كنت قد أصدرت أوامرك بالقصاص العادل فى هذا الحادث، أنه كان سيتدخل ثانية من أجل رفع العقوبة؟ ومع ذلك فقد باء الابن بالفضل من أبيه، إذ كان جديراً بالتسامح والعفو عمن أساء إليه. وكانت تلك إذن قسمة عادلة، فالابن تم استعطافه من أجل حقه، والأب من أجل حق ولده. ولم يحدث لك شيء مطلقاً من جراء اصغائك لابنك. إذن.. خذ حذرك.. لئلا تخسر كل شيء من عند الله آت.

"ليس هناك إذن سبب كاف لمثل هذا الهياج بحيث يعاقب الناس بصورة صارمة بسبب إحراق مبنى، تتضاءل أهميته إذا ما عرف أنه المعبد اليهودى، بيت الكفر والإلحاد، وكر الحماقة الذى أدانه الله نفسه. ونحن نقرأ ما تحدث به الرب الهنا على لسان أرميا النبى: "أصنع بالبيت الذى دعى باسمى عليه الذى أنتم متكلون عليه وبالموضع الذى أعطيتكم وآباءكم إياه كما صنعت بشيلوه. وأطرحكم من أمامى كما طرحت كل نسل أفرايم. وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ولا تلح على لأنى لا أسمعك. أما ترى ماذا يعملون فى مدن يهوذا" (ارميا ٧/١٤-١٧) لقد حرم الله الشفاعة لأولاء القوم.

"وبكل تأكيد.. لو أننى كنت مترافعاً بما يمليه القانون، فإن بمقدورى أن أعدد كم من الأسقفيات قد أحرق بيد اليهود زمن الإمبراطور جوليان: اثنتان فى دمشق، إحداهما مما لا يمكن إصلاحها ثانية على نفقة الكنيسة وليس على حساب المعبد اليهودى، أما الأخرى فما زالت أنقاضاً وخرائب، وأحرقت أيضاً كنائس فى غزة وعسقلان وبيروت، وفى كل مكان تقريباً من تلك الأجزاء، ومع ذلك فإن أحداً لم يطلب القصاص. وفى الإسكندرية أشعل الوثنيون واليهود النار فى إحدى الكنائس – وهى تفوق كل ما عداها، ولم تقدم الكنيسة على الانتقام – ترى أيفعل معبد اليهود ذلك؟

"وهل سيثأر أيضاً لإحراق معبد الفالنتينيين؟ Valentinians ما الحال فى معبد لا يمثل إلا تجمعاً للوثنيين؟ فعلى الرغم من أن الوثنيين يبتهلون إلى اثنى عشر ربا، فإن الفالنتينيين يعبدون أثنين وثلاثين دهراً Aeons يدعونهم آلهة. ولقد عرفت أيضاً فيما يتعلق بهذا الأمر أن الأوامر قد صدرت بانزال العقوبة ببعض الرهبان، إذ بينما هم فى طريقهم للاحتفال بعيد المكابيين ينشدون المزامير كما جرت بذلك العادة منذ القدم، اعترضهم نفر من الفالنتينيين وأثاروا بوقاحتهم غضب هؤلاء الرهبان، فأقدموا على إحراق معابدهم التى بنيت على وجه السرعة فى بعض قرى المنطقة.

"وكم منهم كان عليه أن يقدم نفسه لمثل هذا الاختيار؟ إذا ما تذكر أنه على عهد الإمبراطور جوليان، الذى ألقى بالمذبح ودنس القربان، قد أدين وعانى الشهادة، على يد القاضى الذى لا يمكن أن تحسبه أكثر من ورع، ولم يظن أحد أنه جدير بالمودة. فإذا لم يكن قد مات.. أتراك أيها الإمبراطور كنت آخذ بالثأر منه، رغم أنه لن يهرب من انتقام السماء الأبدى؟

"ولقد قيل أن القاضى أمر بأن يطلع على حيثيات القضية، لا ليكتب عنها تقريراً بل ليقرر فيها العقوبة، وأن صناديق النذور التى نهبت يجب أن تعاد ثانية. ولسوف أتغاضى عن الموضوعات الأخرى، ولكن كنائسنا أحرقت بيد اليهود، ولم يعد شىء مرة أخرى، بل لم يطالب بعودته. وما الذى يمكن أن يمتلكه معبد لليهود فى مدينة قصية، إذا كان كل ما هناك ليس كثيراً، بل ولا قيمة له، ولا وفرة فيه؟ وما الذى يمكن أن يفقده اليهود الكائدون فى الحريق؟ إن هذا ولا شك بعض من خداع اليهود الذين يحيكون بنا المكائد، ذلك أنه بناء على شكواهم سوف تتواجد هناك قوة عسكرية كبيرة، وسوف يأتى قائد عسكرى، (وقائد) ربما يردد ما قاله واحد من الناس قبل اعتلائك العرش أيها الإمبراطور "كيف يكون بمقدور المسيح مساعدتنا ونحن نحارب من أجل اليهود ضد المسيح الذى أرسل ليقتص من اليهود؟. لقد حطموا أسلحتكم وهم الآن يحاولون نفس الشىء معنا.

"انهم بأى وشاية إذن سوف ينطلقون، إذ لم يتورعوا عن الوشاية حتى بالمسيح. إنهم لن يرجعوا عن أى نميمة، وكيف ذلك وهم الذين كذبوا على الله؟

ومن تراهم يتهمون بأنهم المحرضون على هذه الفتنة؟ من تراه لم يتعرض لقحتهم، حتى من بين أولئك الذين يعرفون أنهم ليسوا لذلك أهلاً؟ ألم يروا إلى هذه الأعداد التى لا حصر لها من المسيحيين على مختلف طبقاتهم فى السلاسل يسحبون؟ وإلى رقاب المؤمنين الصادقين فى الأسر قد أذلت؟ وإلى رجالات الله وهم إما يتخبطون فى الظلام، وإما قطعت رؤسهم، وإما ألقى بهم فى النار، أو قذف بهم للعمل فى المناجم؟ ولكم طال بهم العذاب؟

"أتراك تهدى هذا النصر على كنيسة الله إلى اليهود؟ أتراك أيها الإمبراطور تدشن هذا النصب الذى أقيم بمناسبة الانتصار على رعية المسيح؟ وتمنح هذه البهجة لأولاء الملحدين؟ أيكون التهليل من نصيب معبد اليهود؟ وللكنيسة الغم والحزن؟ إن اليهود سوف يضفون هذه القداسة والمهابة على أعيادهم، وسوف يضعونها بلا شك بين انتصاراتهم على العموريين والكنعانيين، أو حتى خلاصهم من أيدى فرعون ملك مصر، أو نبوخذ نصر ملك بابل. إنهم سوف يجلون هذا ويذكرونها دائماً بالانتصار على شعب المسيح.

"وحيث أنهم هموا أنفسهم ينكرون التزامهم بالقوانين الرومانية ويعتبرونها شراً محضاً، فكيف يظنون الآن أنه من الواجب القصاص لما نزل بهم حسب هذه القوانين الرومانية؟ وأين كانت هذه القوانين عندما أقدموا هم على إضرام النيران حتى أسقف الكنائس المقدسة؟ وإذا لم يكن جوليان قد اقتص للكنيسة باعتباره مرتداً، فهل تقتص أنت لما حل بمعبد اليهود باعتبارك مسيحياً؟

"وما الذى سوف يقوله لك المسيح؟ ألا تذكر ما قاله الله على لسان نبيه ناثان إلى المقدس داود[١٧]. "من بين إخوتك اصطنعتك لنفسى ومن نسل رجل ممجد اخترتك إمبراطوراً، وعلى عرش الإمبراطورية أقمت ثمرة غرسك[١٨]. وأذللت لك جميع أمم البرابرة، وأنعمت عليك بالسلام، وقوضت جميع أعدائك من أمامك. ولم تكن لديك الحنطة التى تمون بها جيشك، ففتحت أمامك الأبواب، وصوامع الغلال

(١٧) (صموئيل الثانى ٧/٨ وما بعدها).
(١٨) يعنى ابنه أركاديوس.

بأيدى أعدائك أنفسهم جعلتها طوع أمرك، فقدموا لك بذلك ما كانوا لأنفسهم قد اختزنوه، وحيرت مستشارى عدوك فجعلته بذلك مكشوفاً أمامك. وعرقلت خطط مغتصب(١٩) العرش الإمبراطورى وأدخلت على عقله، إذ بينما توفرت لديه وسائل الهرب، فإنه خوفاً من أن ينضم بعض جنده إليك فارين، إلا أنه أغلق عليه. أما قائد القوات الأخرى(٢٠) وقائدها، الذين بددت شملهم حتى لا تتحد قوتهم جميعاً ضدك، فقد جمعت شتاتهم ثانية حتى يكتمل نصرك. أما جيشك الذى جيشته من أمم عديدة لم يتيسر لك إخضاعها، فقد حفظت عليه إيمانه وهدوءه وألفت بين قلوب جنده حتى غدوا كما لو كانوا أبناء أمة واحدة، فلما لاح فى الأفق تهديد جديد متمثل فى إمكانية اختراق البرابرة، الذين تنطوى على الغدر نفوسهم، جبال الألب، خلعت عليك النصر عبر هذه السلسلة الجبلية الضخمة، حتى يتحقق لك النصر دون أية خسارة. وهكذا بينما قدت خطوك إلى النصر على عدوك، رأيتك تسلم هذا النصر لأعدائى على شعبى.

"ألم يكن من نتيجة هذا كله أن تم هجران ماكسيموس ونبذه، وهو الذى أقدم قبل أيام من الحملة، عندما ترامى إلى سمعه أن معبداً لليهود فى روما قد تم إحراقه، على إرسال مرسوم إلى روما كما لو كان هو صاحب الأمر فيها، وحيث قال المسيحيون ساعتها، لا خير فى الإبقاء عليه. لقد أصبح ذلك الملك إذن يهودياً وعلمنا أنه أضحى مدافعاً عن هذا الأمر، ولكن المسيح، الذى مات لأجل الخطاة، فإنه سرعان ما أدخله فى تجربة. وإذا كان هذا قد حدث فقط لمجرد قول قيل، فما بالك إذا كان الأمر عقوبة واقعة؟ ولقد هزم أكثر من مرة من قبل على يد الفرنجة والسكسون فى صقلية عند سيسكيا Siscia وبتافيو Petavio ، وباختصار فى كل مكان. ما الذى يجمع إذن بين المؤمن والكافر؟ إن الأمثلة الدالة على كفره يجب أن تطرح سوياً مع صاحبها نفسه. هذه الأمور التى جلبت الضرار لصاحبها وأوردته مورد التهلكة، لا يجب على المنتصر أن يحذو حذوها بل عليه أن يدينها.

---

(١٩) ماكسيموس.

(٢٠) يشير هنا إلى أسطول ماكسيموس الذى كان يقوده أندراجاثيوس Andragathius وأعد بناء على احتمال توقع مجيء ثيودوسيوس عن طريق البحر.

"ولتعلم يقينا أنى لا أعيد ذكر هذه الوقائع على مسامع إنسان جاحد ينكر المعروف، ولكنى أسردها باعتبارها نعماً وهبت بحق، منبها إياك بها، أنت يا من يحمل لك قلبى الحب كله. ولعلك تذكر أن سمعان عندما أجاب بمثل هذه الكلمات قال له الرب يسوع "بالصواب حكمت" (لوقا ٧/٤٣) ثم التفت على الفور إلى المرأة التى بللت قدميه بالدموع، وقال مخاطباً سمعان، واضعاً نظام الكنيسة: "من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، والذى يغفر له قليل يحب قليلا" (لوقا ٧/٤٧) تلك هى المرأة التى دخلت بيت الفريسى، ونبذت اليهودى ولكنها كسبت المسيح. لقد أوصدت الكنيسة الباب فى وجه المعبد اليهودى، فلماذا تجرى المحاولات الآن فى شخص خادم المسيح كى يجتث المعبد الكنيسة من جذور إيمانها، من بيت المسيح؟

"أيها الإمبراطور.. لقد سقت كل هذه الأمور فى خطابى هذا بدافع الحب لك والغيرة عليك، ذلك أنى مدين بذلك لرحمتك (حيث أعدت – بناء – على شفاعتى – كثيرين من منفاهم، وأطلقت سراح العديدين من سجنهم، وأنجيت غير هؤلاء وأولئك من الموت)، بحيث لا يخيفنى حتى مهاجمة شعورك من أجل خلاص نفسك. (فليس هناك أجدر بالثقة كلها من إنسان يحب ملء قلبه.. وبكل تأكيد فإن أحداً لا يمكن أن يسبب الضرار لشخص يملأ عليه كل فكره) – ولن أفقد فى لحظة واحد ذلك الشرف الذى يمنح لكل كاهن وتلقيته لسنين عديدة مضت، لكن الخسارة كلها أن أعرض للدنس الخلاص.

"أيها الإمبراطور.. إنه لأمر جلل أن لا تعتقد أنه من الضرورى الاستفسار أو القصاص لأمر كهذا الذى حدث فى ذلك اليوم ولم يلفت نظر أحد، وإنك لتأتى أمرا إذا تضحى بخلاصك من أجل اليهود. ألم تقرأ أنه عندما أقدم جدعون [(٢١)]. على ذبح الثور المقدس، خلص الوثنيون إلى أن الآلهة هى التى سوف تنتقم لما حل بها. فمن ذا الذى سوف يقتص لما حل بالمعبد اليهودى؟ أهو المسيح الذى صلبوه بعد أن أنكروه؟ أم هو الله الأب الذى رفضوه حيث رفضوا الإبن؟ ومن تراه سينتقم لما حل بالفالنتينيين؟ فكيف يمكنك أنت إذن أن تثأر لهم وأنت ترى أن المراسيم قد

(٢١) قضاة ٦/٢٥-٣٢.

صدرت بطردهم وتحريم اجتماعاتهم؟ وهل إذا بسطت أمامك قصة يوشيا[٢٢] كملك عمل المستقيم فى عينى الرب، أتراك تدين فيهم ما من أجله رضى الرب عنه؟

"وإذا كان هناك أى نوع من عدم الثقة فىّ، فلتأمر أيها الإمبراطور أولئك الأساقفة الذين تعتقد فى صلاحهم، ولتدعهم يتباحثون فيما يجب عمله دون إلحاق أى أذى بأمر العقيدة. وإذا ما كنت تستشير مرءوسيك فى الأمور الدينية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجالات الله فى أمر يخص العقيدة.

"ولتضع فى اعتبارك أيها الإمبراطور كم عانت الكنيسة من المتآمرين والعيون، وإذا كانوا قد أحدثوا بها شرخاً واهياً، إلا أنهم قد دقوا فيها إسفينا. وإنى لأتحدث فقط فيما يخص سلوك الناس، ولكن لله فى النفس خشية تفوق الناس، وتعلو حتى الأباطرة. وإذا ما اعتقد أحد أنه من الصواب أن يوقر صديقاً له أو أحد أبويه أو جاره، فإن الصواب حليفى إذا حكمت بأن الوقار كله يجب أن يقدم لله، وأنه وحده له المجد. أيها الإمبراطور عد إلى نفسك فأعمل بنصحها أو اسمح لى بأن أكون لك ناصحاً.

"وماذا يكون قولى فيما بعد لو اتضح أن المسيحيين، بمقتضى السلطة التى منحت من هذا المكان، قد ذبحوا بالسيف، أو ضربوا بالهراوات، أو كبلوا بأساور من جلود شدت بالرصاص؟ وكيف يمكن أن أوضح مثل هذه الحقيقة وبأى أسلوب أعتذر لأولاء الأساقفة الذين يذرفون الآن الدمع مدرارا، بعد أن قاموا بأعباء الوظائف الكهنوتية وغيرها من الخدمة الكنسية على امتداد نيف وثلاثين سنة، ثم جردوا من وظائفهم المقدسة وأكرهوا على القيام بأعمال مدنية[٢٣] وإذا كان من يحاربون من أجلك يعملون لفترة محدودة فى خدمتك، فلا بد يبدو حتماً مقضيا أن تقدر أولاء الذين يحاربون فى سبيل الله. أقول، بأى أسلوب أعتذر لأولئك الأساقفة الذين تتعالى شكاياتهم من أجل الأكليروس، ومن أجل الكنائس التى خربت من جراء ما تعرضت له من هجمات خطيرة تتكرر.

---

(٢٢) الملوك الثانى ١/٢٢ وما بعدها.

(٢٣) قارن ذلك بما جاء فى Ep. XVII.

"ولكم كنت أتمنى أن يبلغ كل ذلك مسامعكم، عندما كنتم ستتعطفون بالنظر إلى ذلك بعين الاعتبار، وتصدرون أوامركم بما يتفق ومشيئتكم، منحيا ومستبعداً كل ما يؤرقنى.. أقول الحق.. يؤرقنى. لقد فعلت بنفسك ما أمرت به أن يفعل، حتى ولو لم يفعله نائبك، لا شك يفضل عندى أن تكون رحيماً من ذلك الذى لم يفعل ما به قد أمر.

"إن لديك من الواجب ما يدفعك إلى الابتهال إلى الرب من أجلهم(٢٤) لصالح الإمبراطورية الرومانية، وإنك لتؤمل لهم بأن يكونوا أسعد منك قدراً.. ألا فلتحل بهم رحمة الله، وليتحقق لهم الخلاص من خلال كلماتى. إن الخوف ليتملكنى خشية أن تأتمن الغير على قضيتك ليصدروا فيها حكمهم. كل شىء واضح أمامك لا لبس فيه ولا غموض، وإنى بهذا الخصوص أدع نفسى عند الله من أجلك رهينة، ولا تخشى يمينك(٢٥). وهل من الممكن أن يغضب الله من أجل السعى لإعلاء مجده؟ إنك لا تحتاج إلى تغيير أى شىء فى تلك الرسالة سواء إذا كانت قد أرسلت أم لم ترسل بعد، وما عليك إلا أن تصدر أمراً آخر بالإيمان يمتلىء، وبالرحمة يمطر. فأنت من جانبك من الممكن أن تغير إلى الأفضل، ومن ناحيتى فلا يمكننى السكوت عن الحق.

"لقد عفوت عن الأنطاكيين من قبل عندما أساءوا إليك، ولقد استدعيت بنات عدوك وعهدت بتربيتهم إلى أحد المقربين، وأغدقت على أم عدوك من خزانتك الخاصة. يا لها من رحمة! يا له من إيمان بالله عظيم! ولكنه سوف يذهب إلى غيابة الظلماء بما أنت مقدم عليه الآن. أتوسل إليك يا من صارعت الأعداء، وأبقيت على خصومك كرامة، أن لا تعتقد بأن المسيحيين يجب أن يعاقبوا بمثل هذه الحماسة.

"وبعد .. أيها الإمبراطور، إنى أضرع إليك أن لا تزدرى حديث من يتملكه الخوف لأجلك ولأجل نفسه، فها هو صوت أحد القديسين ينادى: "لماذا خلقت كى أرى شقاء شعبى"، ذلك لأنى بهذا أصنع الشر فى عينى الرب. الحق يقال، لقد

(٢٤) يقصد بذلك ولدى الإمبراطور ثيودوسيوس، أركاديوس وهونوريوس.
(٢٥) يعنى بهذا أنه من الممكن أن يكون الوفاء بالوعد مناقضاً للواجب.

فعلت كل ما يمكن فعله متناغماً وسمو قدرك، ولكن عليك إذن أن تصغى إلىّ فى قصرك حتى لا تصغى إلىّ كارها فى الكنيسة".

على هذا النحو جاءت رسالة الأسقف الميلانى إلى الإمبراطور الرومانى، حادة عنيفة، تحذر ثيودوسيوس صراحة من تنفيذ ما أقدم عليه من إلزام رهبان وأسقف كاللينيكا بإعادة بناء كنيس اليهود وكنيسة الفالنتينيين، ويبدو أن أمبروز عندما كتب هذه الرسالة لم يضع فى اعتباره مطلقاً ما أشرنا إليه سابقاً من الظروف السياسية الصعبة التى كانت تحيط بالإمبراطورية فى الشرق والغرب على السواء، وإنما جعل نصب عينيه فقط مسألة تدخل الدولة فى أمور الكنيسة، بمعاقبة نفر من رهبانها وإكليروسها على عمل جرى ارتكابه ضد اليهود والفالنتينيين، مسقطاً من حسابه كلية أن ما وقع هو مسألة تخص الإدارة المدنية وحدها فى الدولة باعتبارها المسئولة عن إقرار الأمن فى الداخل، ونسى أمبروز تماماً ما قام به هو من قبل باعتباره حاكماً مدنياً، عندما أسرع على الفور إلى كنيسة ميلانو ليحول دون وقوع الاضطراب والفوضى فى المدينة على أثر موت أوكسنتيوس الأسقف الآريوسى. وكتب إلى الإمبراطور رسالة تفصح عن وجهة نظره إزاء العلاقة بين الدولة والكنيسة. استهلها بقوله: "... لطالما عانيت، ولكنى مع ذلك لم أكن فى يوم ما محزوناً كيومى هذا"[٢٦].

ويدفع أمبروز فى رسالته هذه ببطلان الدعوى، حيث يتهم النائب الإمبراطورى فى الشرق بأنه "دبج" تقريراً ضمنه إحراق المعبد اليهودى بتحريض من الأسقف فى المدينة[٢٧]، ويدافع عن الأسقف بأنه لا يمكن أن يكون قد أقدم على ذلك إلا بناء على أمور استثاره بها اليهود حتى دفعوه إلى ذلك [٢٨] وهو بهذا العمل ليس آثماً لأنه ينفذ – فى رأى أمبروز – إرادة الله[٢٩] ويحمل أمبروز فى رسالته على اليهود بعنف، ويتهمهم بالإلحاد وبأنهم أشد من الوثنيين كفراناً[٣٠]. ويشير إلى

---

(٢٦) AMB. Ep. XL 1.

(٢٧) Ibid 6-8.

(٢٨) Id.

(٢٩) Ibid. 8.

(٣٠) Ibid, 10.

قيام الآريوسيين باضرام النيران فى منزل نكتاريوس أسقف العاصمة فى نفس العام، وكيف أنهم لم يعاقبوا على ذلك[٣١]. وهو يلقى باللوم أيضاً على الفالنتينيين ويعتبرهم السبب فى إثارة شعور الرهبان مما دفع هؤلاء إلى احراق كنيستهم[٣٢]. وبعد أن يعدد له ما فعله اليهود فى الكنيسة والمسيحيين من قبل، ويذكره بما جرى لماكسيموس خصمه قبل شهور قليلة[٣٣]. ويحذره من التمادى أو الإصرار على تنفيذ العقوبة، مخاطباً إياه: "وإذا ما كنت تستشير مرءوسيك فى الأمور المدنية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجالات الله فى أمر يخص العقيدة"[٣٤]. ثم يفصح فى آخر فقرة فى الرسالة عن التهديد المباشر للإمبراطور بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضده، دون أن يشفع للإمبراطور كل ما قدمهُ من أجل المسيحية حتى جعلها الدين الرسمى للإمبراطورية، ويقول: "... عليك أن تصغى إلى فى قصرك، حتى لا تصغى إلى كارها فى الكنيسة"[٣٥].

ولا شك أن ثيودوسيوس قد تملكه الذهول لهذا الذى يقرأ، ودار بخلده ما قدمته للكنيسة يداه، بحيث جعلت للمسيحيين فى الدولة المكان العلى. ولا شك انتابه شعور بالقلق وهو يرى أسقف ميلانو يطلب إليه صراحة أن يتغاضى عن النظام العام للدولة من أجل الكنيسة، إذا يخاطبه صراحة: ".. ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. ولكن خبرنى، أيها أعظم وأهم؟ إقرار النظام أم العقيدة"[٣٦]. وكانت تلك مشكلة ثيودوسيوس الرئيسية، نذلك أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بكل ما يتعلق بإقرار الأمور فى داخل الدولة، دافعه إلى ذلك رغبته فى مواجهة مشاكله الخارجية، وما أكثرها، بدولة منظمة مستقرة، فالفرس على الفرات يتحفزون، والجرمان فى البلقان وولايات الدانوب يعبثون، والحروب الأهلية فى الغرب قائمة، ومن ثم كان حريصاً على إقرار سيادة الحكومة فى الداخل، ومن هنا جاءت قراراته فى كثير من الأحيان سريعة وصارمة فى كل ما يشتم منه المساس

(٣١) Ibid, 13.
(٣٢) Ibid, 16.
(٣٣) Ibid. 15, 19, 21, 23.
(٣٤) Ibid. 27.
(٣٥) Ibid. 33.
(٣٦) AMB. Ep. XL 11.

بسلطان الدولة وهيبتها فى الداخل. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك، أحداث أنطاكية، وفوضى كاالينكيا هذه التى نحن بصددها، ومذبحة سالونيك من بعد. ولهذا اتسمت قراراته فى هذه الأحداث بالعنف ولكنها فى الوقت ذاته مهدت السبيل أمام حكم هادئ ومستقر فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، فلم نجد مغتصباً واحداً للعرش طيلة عهده، على حين شهد الشطر الغربى إمبراطورين مدعيين فى أقل من عشر سنوات.

والحقيقة أن ثيودوسيوس كان يرفض التضحية بالعدالة، ويأبى على حد قول نورمان بينز N. Baynes أن تقدم العدالة قرباناً على مذبح الأرثوذكسية المتعصبة، ومع ذلك فإن هذا قد حدث فى حالة واحدة فقط، حيث انتصر الإصرار العنيف للأسقف الميلانى أمبروز، وأعفى الرهبان المسيحيون الذين دمروا المعبد اليهودى فى كاللينيكا من إعادة إصلاح ما أفسدوه، حسبما كانت تقضى أوامر الإمبراطور(٣٧). لكن هذه الأوامر فى حد ذاتها توضح مبادئه الأساسية التى كانت تحكم أسلوبه فى الإدارة(٣٨). ولعل ثيودوسيوس كان يضع فى اعتباره عندما أقدم على إلغاء قراره السابق الخاص بهذه الحادثة، وإصدار عفوه عن الرهبان الآثمين، أن عرشه لا يعتمد على دعائم أسرية تعود إلى الأسرة الأصلية الحاكمة وهى أسرة فالنتينيان، التى كان الغرب مقراً لها، وأن شخصية فالنتينيان الثانى تتضاءل كلية إلى جانب شخصية أسقف ميلانو، وأن موقف هذا الإمبراطور الصبى فى الغرب ما يزال مزعزعاً رغم القضاء على ماكسيموس. ولما كان ثيودوسيوس قد أصبح صهراً لفالنتينيان الثانى بزواجه مؤخراً من أخته، فقد كان يعنيه تماماً، أن تستقر الأمور فى هذه الولايات الغربية، وهذه تتحقق إذا ما ضمن جانب أمبروز ووقوفه إلى جانب صهره هناك، وأكد له ذلك الجهود الدبلوماسية التى بذلها الأسقف الميلانى من أجل انقاذ عرش فالنتينيان والإبقاء على إيطاليا بمنجاة من غزو ماكسيموس خلال الفترة بين عامى ٣٨٤-٣٨٧، ولهذا فقد نزل على إرادة أمبروز.

ولم يمض على ذلك عامان، حتى دخلت العلاقة بين الدولة والكنيسة فى تجربة أشد من سابقتها وأقسى، ويعود ذلك حسب رواية سوزومنوس إلى أنه عندما

---

(٣٧) AMB. Ep. XLI 25-28.

(٣٨) C. M. H. I. P. 248.

كان بوثريك Buthericus قائداً عاماً لفيالق الليريا، ثبت لديه أن هناك علاقة دنسة جمعت بين أحد غلمانه الذى كان على قدر من الجمال، وواحد من سائقى عربات السباق فى الهبدروم فى سالونيك، فأصدر القائد أوامره بالقبض على هذا اللاعب وإيداعه السجن، فلما جرى السباق من بعد، ولم يعثر النظارة لأثر على ذلك اللاعب الذى كان مفضلاً لديهم أثيرا، ولما لم تكن الأخلاق تعنى شيئاً فى عرفهم إلى جوار إشباع لهوهم ومسراتهم، فقد طالبوا بالإفراج عن السجين العاشق، وازداد صخبهم برفض القائد الاستجابة إلى مطالبهم، ثم تحول الأمر إلى فتنة عارمة فى المدينة وصب المتمردون غضبهم على بوثريك فذبحوه، وأشركوا معه فى نفس المصير موظفى الإمبراطور[٣٩].

كان ثيودوسيوس ما يزال آنذاك (٣٩٠) مقيماً فى الغرب ولم يعد إلى القسطنطينية، وما أن أعلم بهذه الأنباء حتى استبد به الغضب وتملك عليه كل سبيل، ولما كانت هذه الفوضى تمثل اعتداء على هيبة الحكومة وسلطان الدولة، فقد أمر على الفور بإنزال عقاب صارم بالمدينة كلها دون استثناء، وحتى يتم تنفيذ الأوامر الإمبراطورية على الوجه الأكمل، دعى الناس لميقات يوم معلوم يلتقون فيه فى الهبدروم بدعوى مشاهدة بعض الألعاب، ولم يفطن الناس إلى ما يدبر لهم، إذ كان هوس مشاهدة العروض الرياضية يسيطر على الرومان بصفة عامة[٤٠]، ومن ثم احتشدت المدينة فىالهبدورم، وصدرت الأوامر ببدء المذبحة، فجرت حمامات الدم "حيث حصدت سيوف الجند جموعاً حاشدة كحصاد سنابل القمح فوق سيقانها، وبلغ عدد القتلى على أقل تقدير سبعة آلاف بينهم كثير من الغرباء"[٤١].

---

(٣٩) SOZOM. hist. eccl. VII 25; THEOD. hist eccl . V 17.

(٤٠) استغل بعض الأباطرة هذه الناحية لتنفيذ مآربهم على نحو ما جرى فى سالونيك، فقد أقدم الإمبراطور جوستنيان على اتخاذ نفس الإجراءات لعقاب أهالى القسطنطينية فى عام ٥٣٢ عندما حدثت الفتنة الشهيرة بثورة النصر Vika (Nika) (نيقا)، بسبب الصراع بين حربى الزرق والخضر الذى جرى فى الهبدروم وتحول إلى ثورة عامة ، فوجهت الدعوة إلى أهالى المدينة لمشاهدة بعض العروض، وجرى لهم ما جرى من قبل على أهالى سالونيك.

(٤١) THEOD. HIST. eccl. V. 17; SOZOM. hist. eccl. VII 25.

كانت هذه الأوامر الإمبراطورية تتمشى مع السياسة العامة لثيودوسيوس فيما يتعلق بالشئون الداخلية، ولعل الإمبراطور كان يدرك فداحة الخطر المتمثل فيما أقدم عليه أهالى سالونيك، ذلك أن الحامية وقائدها بوثريك كانوا من الجرمان، والاعتداء على قائد جرمانى على هذا النحو، لقاء لاعب فى الهيدروم، يشكل خطراً كبيراً كان الإمبراطور يتحاشى وقوعه، ألا وهو إثارة مشاعر الجرمان وعدائهم بعد المعاهدة التى وقعها معهم ثيودوسيوس قبل ذلك بسنوات قلائل. لقد كان الإمبراطور يعلم جيداً مدى قوة الجرمان ومدى اعتماده الكامل عليهم الآن فى جيشه، وكان هذا العمل معناه، أن يقدم الجرمان على إنزال "إدرنة" أخرى بالإمبراطورية لم تكن هذه لتتحملها الآن، ومعناه أيضاً الإطاحة بكل جهود ثيودوسيوس التى بذلها عبر أحد عشر عاماً عقب هزيمة إدرنة، للحصول على قدر من الولاء للإمبراطورية من جانب الشعوب الجرمانية، التى تنهال جحافلها داخل الحدود بصفة مستمرة منذ عام ٣٧٨، ولهذا فقد جاء قراره تهدئة لمشاعر الجرمان، أكثر منه قصاصاً من مثيرى الشغب، بالإضافة قطعاً إلى تأكيد هيبة الحكومة وسلطانها.

غير أن مذبحة سالونيك كانت فجيعة لنفس الأسقف الميلانى أمبروز، أدت إلى اعتلال فى صحته، ودفعته إلى الإنسحاب من ميلانو ورفض مقابلة الإمبراطور عندما قدم إلى المدينة، وأعلن حرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة، حتى يقدم ثيودوسيوس ندامته وتوبته على ما اقترفت يداه [٤٢]. وكتب أمبروز رسالة إلى ثيودوسيوس يفصح له فيها عن السبب فى عدم لقائه[٤٣]. وهو إن كان يثنى فى رسالته على إيمان الإمبراطور ويمتدح رحمته[٤٤] إلا أنه يبين له أن فعلته هذه لن تغفرها الكنيسة إلا بتوبة صادقة، وإذا كان داود قد أصغى لناثان، فلابد أن يصغى هو إلى رجل الله[٤٥]. ويدعوه إلى الإسراع فى طلب العفو والصفح من

(٤٢) يذكر سوزُمنوس أن أمبروز لقى ثيودوسيوس عند باب الكنيسة عندما أتى إليها للصلاة، فأخذ بجامع عباءته الإمبراطورية، موجها خطابه له أمام الجموع قائلاً: "عد أدراجك، فليس من حق رجل تدنسه الخطايا، وتلطخ يديه بالدماء، أن يدخل دون توبة هذا الحرم القدسى وأن يتناول الأسرار المقدسة: انظر: SOZOM. Hist. eccl VII, 25

(٤٣) AMB. E p LI

(٤٤) Ibid. 4

(٤٥) Ibid. 7-9

الكنيسة حتى لا يسمح "للشيطان" أن يتملك عليه قلبه[٤٦]، ويوصيه بالضراعة إلى الله بالصوات حتى يقضى الله فى أمره ويغفر له خطاياه[٤٧]. ويطلب إليه أن يضع ثقته فيه، لأنه رغم كل ذلك فإنه يحمل له كل الحب والتقدير، وإلا فإنه سيفوض فيه أمره إلى الله[٤٨]. ولكنه رغم كل ذلك فإنه فى رسالته يخاطب الإمبراطور فى جرأة بالغة عندما يقول له "لست إلا رجلا استولت عليك الضلالة.. فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"[٤٩].

ونضع الآن بين يدى القارئ الرسالة التى بعث بها الأسقف إلى الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك. وقد بدأها أمبروز بتقديم الأسباب التى أدت إلى عدم مقابلته له عند عودته إلى ميلانو، ثم عرج على مشاعر الأساقفة فيما يتعلق بهذه المذبحة الحادثة فى سالونيك، وأكد على العفو وتحقيق النصر على الشيطان المدبر الحقيقى لهذه الجريمة. ولم يستطع أمبروز أن يقدم القربان فى حضرة الإمبراطور، ولما كان يحب الإمبراطور حقاً، فقد اغتم لهذا المسلك ولكنه كان يعلق على توبته الآمال. قال:

"إن ذكرى صداقتنا القديمة لتدخل السرور على قلبى، وإنى لممتن كل الامتنان لرحمتكم التى – استجابة لندائاتى الصريحة – أسبغتموها بكل الكرم على عديدين، لذا يجب أن يكون معلوما أن عدم استقبالى لك عند قدومك لم يكن نوعاً من نكران الجميل، خاصة وأنتم تعلمون مدى حرصى على لقائكم دوماً من قبل، ولذا فإنى سوف أعرض عليكم الآن الأسباب التى دفعتنى إلى سلوك هذا السبيل.

"لقد اتضح لى جلياً أننى الوحيد الذى حرم حقه الطبيعى فى يسمعنى بلاطك، وحرمت أيضاً مكانتى كمحدث، وما ذلك إلا لأنك اغتممت صراحة بسبب علمك بأن أموراً معينة طرحت فى مجلس مستشاريك قد بلغتنى تفاصيلها، وإنى دون أى قدر من التعالى، حيث قال الرب يسوع : "لأنه ليس خفى لا يظهر" (لوقا ٨/١٧)،

---

(٤٦) Ibid. 11-12

(٤٧) Ibid. 15

(٤٨) Ibid. 17

(٤٩) Ibid. 11

وبكل التبجيل، امتثلت للإرادة الإمبراطورية وأخذت حذرى حتى لا أسبب لك أى ضيق، فسعيت جاهداً حتى لا يروى أمامى شىء من المراسيم الإمبراطورية، وإنى لن أسمع – حالة حضورى – من خلال خوف الآخرين، ومن ثم ألحق الضرار بمن يبتغى التستر، أو أسمح لأذنى بأن تكون مصغية على أية صورة، وأمسكت عن النطق لسانى حتى لا أتفوه بما سمعت خشية أن ألحق الأذى وأعرض للتهلكة أولئك الذين هتكوا غشاوة الغدر والخيانة.

"وبعد – ما الذى بمقدورى أن أفعل ؟ هل أصم أذنى؟ ولكنى لست بقادر على أن أصب فيها شمع تلك الأساطير، أم هل ينطق لسانى بما سمعته أذناى؟ غير أنى ملزم بأن أكون حذراً فى حديثى عن تلك الأشياء التىأتقى فيها أوامرك،، أعنى مخافتى من ارتكاب عدد من الفعال الدموية، أم هل التزم الصمت؟ ولكن ضميرى بهذا سوف يغدو موثقاً، وأقوالى مبعدة (خفيضة)، وعندها سوف تكون الأوضاع للكل فى منتهى سوئها. وأين إذن سوف يحدث هذا؟ وإذا لمن ينذر الكاهن الشرير، فذلك الشرير يموت بإثمه، ويصبح الكاهن بذلك واقعاً تحت طائلة العقاب لأنه لم ينذر من غوائل الرديئة.

"أيها الإمبراطور العظيم.. إسمع.. لا يمكننى إنكار أن قلبك على الإيمان غيور، وأن عندك لله خشية، ولكنك فى الوقت ذاته ذو حمية، إذا ما جهد إنسان لإرضائك سرعان ما تغدو رحيماً، فإذا ما أغضبك إنسان، ثارت حميتك بحيث يتعذر عليك كبح جماحها، ومن ثم فإذا لم يكن هناك من يسترضيها، فلا أقل من عدم وجود من يؤججها. أما فيما يتعلق بك، فإنى عن طيب خاطر أضع ثقتى كلها، وأنت قادر على كبح جماح نفسك وعلى قهر سورة الغضب فيك بتقواك والورع.

"ومن المفضل أن تمتدح هذه الحمية لك شخصياً وبصفة سرية، عن إثارتها بأى عمل من جانبى فى العلن، ولئن يرانى الناس مقصراً بعض الشىء فى واجبى خير من أن يروننى مستذلاً فى تواضعى، ولئن يظنون بى ضعف التأثير فى كهانتى، أكرم من أن يجدون فى عوزاً للاحترام المبنى على المحبة. ولن يبدو قهرك لحميتك وغلبتك على سلطان قراراتك ضعفاً أو تخاذلاً، وإنى لأعتذر إليك بعلتى التى ثقلت على وطأتها، ولا أظن البرء منها بالأمر اليسير، ومع ذلك فإنى

أفضل الموت على أن لا أكون فى انتظارك ليومين أو ثلاثة ، ولكن هذا لم يكن ممكناً بالنسبة لى.

"ولقد وقع فى مدينة سالونيك ما لم نسمع بمثله من قبل، لقد وقع ما لم أكن قادراً على منعه، ذلك الذى قلت أنه سوف يصبح أمراً عظيماً عندما رحت أتوسل مراراً من أجل العدول عنه، وهو ما أظهرته أنت نفسك بنقضه وإن كان ذلك قد جاء متأخراً جداً، فغدوت مغتماً حزيناً، ولم يكن باستطاعتى أن أخفف منه عندما وقع، وما أن سمع به، حتى التأم مجمع محلى بسبب وصول أساقفة الغال، ولم يبق هناك أحد لم تنهمر على الخد دموعه، ولا أظن أن هذا الفعل لم يصدر عن نزق وتهور، ولم تنجك صداقتك لأمبروز من أن يطوق عنقك بما أثمت يداك. والآن فإن توجيه اللوم على ما اقترفت، قد وضع على كاهلى أثقالى، ولم يقل أحد إن عودتك إلى الله لم تكن ضرورية.

"هل تخجل أيها الإمبراطور من أن تفعل ما فعله النبى الملك داود جد المسيح فى الناسوت؟ لقد قيل له كيف أن الرجل الغنى الذى له غنم وبقر كثيرة جداً "قد أخذ نعجة الرجل الفقير وذبحها" ليهئ للضيف الذى جاء إليه، وقد اعترف بنفسه أنه أدين فى هذه القصة، لأنه هو نفسه قد فعل، وقال: "قد أخطأت إلى الرب"[(٥٠)]. فإذا ما رددت ثانية كلمات النبى الملك وهو يقول: "هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا" (مزامير ٩٥/٦)، فسوف يقال لك: "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك لا تموت" (صموئيل الثانى ١٢/١٣).

"ومرة ثانية، عندما أمر داود بإجراء تعداد للشعب، "ضرب قلبه" وراح يخاطب الرب: "لقد أخطأت جداً فيما فعلت، والآن يا رب أزل اثم عبدك لأنى انحمقت جداً" (صموئيل الثانى ٢٤/١٠)، وأرسل إليه النبى ناثان مرة أخرى ليخيره بين أمور ثلاثة: فإما أن يأتى عليه ثلاث [(٥١)] سنى جوع فى أرضه، وإما أن يهرب

---

(٥٠) صموئيل الثانى ١٢/١٣. وراجع القصة فى السفر نفسه والاصحاح نفسه. الآيات من ١-١٥.

(٥١) يذكر الكتاب المقدس أنها سبع سنوات: "... وقال له أتأتى عليك سبع سنى جوع فى أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك" (صموئيل الثانى ٢٤/١٣).

ثلاثة أشهر أمام أعدائه وهم يتبعون، وإما يكون ثلاثة أيام وباء في الأرض. فقال داود: "قد ضاق بي الأمر جداً، فلنسقط في يد الرب لأن مراحمه كثيرة ولا أسقط في يد إنسان" (صموئيل الثاني ١٤/٢٤) كل هذا لأن خطأ داود كان فقط رغبته في معرفة عدد كل الشعب الذي معه، وهي المعرفة التي يجب أن نترك لله وحده[٥٢].

"ويخبرنا الكتاب المقدس أيضاً أنه عندما راح الوباء يحصد الشعب من الصباح إلى الميعاد، ورأى داود الملاك يبسط يده ليهلك الشعب، قال: "ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا، فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي". (صموئيل الثاني ١٧/٢٤). وقد ندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك للشعب كفى، وأمر داود أن يقرب محرقات، ذلك أن الأضحيات كانت تقرب تطهراً من الخطايا أما الآن فهي تقدم من أجل التوبة، وهكذا غدا داود بهذا الاتضاع أكثر قبولاً عند الله وقرباً، لأنه ليس مما يثير الدهشة أن يخطئ الإنسان، ولكنه يصبح مستحقاً للزجر والتعنيف إذا لم يعترف بخطيئته، ويخر ذليلاً أمام الله.

"وأيوب المقدس نفسه كان قوياً في هذا العالم حين قال: "أنا لا أخفي إثمي في حضنني، بل أمام جمهور غفير أعلنه"[٥٣]. على حين راح يوناثان يخاطب أباه المتجبر شاول الملك: "لا يخطيء الملك إلى عبده داود" (صموئيل الأول ٤/١٩) وأضاف: "فلماذا تخطيء بدم بريء بقتل داود بلا سبب" (صموئيل الأول ٥/١٩). لأنه وإن كان ملكاً إلا أنه سوف يغدو آثماً لو أنه قتل بريئاً، داود أيضاً عندما كان ملكاً وعلم أن أبنير البريء قد قتل على يد يوآب قائد داود، قال: "اني بريء أنا ومملكتي لدى الرب إلى الأبد من دم أبنير بن نير". (صموئيل الثاني ٢٨/٣). وصام حزنا.

---

(٥٢) يذكر الكتب المقدس أن داود أقدم على ذلك بتوجيه من الله: "وعاد فحمي غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً أمض واحص إسرائيل ويهوذا. فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع وعدوا الشعب فأعلم عدد الشعب".

(٥٣) "إن كنت قد كتمت كالناس ذنبي لإخفاء اثمي في حضني إذ رهبت جمهوراً غفيراً وروعتني إهانة العشائر فكففت ولم أخرج من الباب- من لي بمن يسمعني، هو ذا امضائي، ليجبني القدير" (أيوب ٣١/٣٣-٣٥).

"ولتعلم أنى لم أكتب هذا كى يختلط عليك الأمر فتبدو حائراً، ولكنى سقت هذه الأمثلة عن هؤلاء الملوك حتى تحفزك لتنفض الرأس، عن مملكتك أدران هذا الاثم، باتيانك إلى الله خاضعاً خفيض الرأس، فلست إلا رجلاً استولت عليك الضلالة فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة. وليس الملاك بقادر على أن يفعل ، ولا رئيس الملائكة. الله وحده هو القادر على أن يقول: "ها أنا معكم" (متى/٢٠) كلنا خطاءون وخيرنا التوابون.

"إنى أستحث، أتوسل، أحذر، أنذر، لأنه من الصعب على نفسى، وقد كنت أنت مضرب الأمثال فى التقوى ومعقد الآمال فى الرحمة، كيف لا يذرف الدمع انتحاباً من أجل عديدين ذبحوا، ذلك الذى لم يكن يرضى بأن يعانى العقاب من اثم! ورغم أنك خضت الحرب بكل نجاح، ورغم أنك بالثناء فى أمور أخرى جدير، فإن الرحمة كانت دائماً التاج الذى يزين أعمالك. لقد حسد عليك الشيطان أعز ما كنت تملك، ألا فلتقهره ما دمت لا زلت تمتلك ما أنت به قادر على قهره. لا تضف إلى ذنبك إثماً آخر بالإقدام على عمل يوقع بالكثيرين الضرار.

"وللحقيقة، فعلى الرغم من أنى مدين لرحمتك بشكل لا يمكن إنكاره، تلك الرحمة التى فاقت ما كان غليه كثير من الأباطرة، ولم يتساو فيها إلا واحد فقط، رغم كل ذلك أقول إنه ليس هناك ما يدعونى لاتهامك بالعصيان، بل إن لدى فقط ما يدعونى إلى الخوف، ذلك أنه لا يمكننى أن أتجاسر بتقديم القربان إذا ما كنت قد عزمت على الحضور إلى الكنيسة. وهل يمكن أن يسمح بهذا بعد إهراق دماء الكثيرين، بينما لم يسمح به بعد قتل رجل واحد برىء؟ لا أعتقد.

"وأخيراً فقد خططت بيدى ما يجب أن تطالعه أنت وحدك، وكلى أمل فى أن يرفع الله عنى كل ما أعانى، لقد حذرت، لا عن طريق إنسان أو من خلاله، ولكن بالله وحده بكل وضوح بما يعز على ذلك أنى بينما كنت فى قلقى إبان تلك الليلة التى كنت أستعد فيها للسفر، تبديت لى فى منامى آت إلى الكنيسة، وعندها لم يسمح لى بتقديم القربان. وإنى لأتغاضى هنا عما يمكننى تجنبه، واحتمله من أجل محبتى لك.. هذا ما اعتقده.

وقد يهيئ الرب الأسباب ليمر كل شيء في سلام، وإن الله ليضع أمامنا المحاذير في صور مختلفة، بأدلة سماوية، بوصايا الأنبياء، حتى برؤى الخطاة حيث قضت مشيئته أن نتدبر، كى نضرع إليه أن يدفع عنا كل نازلة ، وأن يحفظ السلام من أجلك،، ومن أجل إيمان الكنيسة وسلامها، ومن أجل أن يبقى لها بهاؤها بأباطرة مسيحيين أتقياء.

"ولا ريب فى أن الرغبة تحدوك فى أن يصفح الله عنك، ولكن مكتوب "لكل شيء زمان" (الجامعة ٣/١). ومكتوب أيضاً: "إنه وقت عمل للرب" (مزامير ١١٩ /١٢٦). وكذلك: "فى وقت رضى يا الله" (مزامير ٦٩/١٣). ومن ثم فإن عليك أن تقرب تقدمتك عندما يسمح لك بذلك، عندما تتقبل من الله. أليس مما يدخل السرور على قلبى أن أهنأ بحظوة الإمبراطور، وأن أتصرف كما يهوى، إذا ما كان الأمر يسمح بهذا. والصلاة فى حد ذاتها نوع من القربان يجلب العفو والمغفرة، عندما يكون القربان مجلبة للغضب، فالأول دليل الخضوع والمذلة، والثانى علامة الخزى، ولأن كلمة الله نفسه أخبرنا أنه يفضل الاستمساك بتعاليمه على تقديم القربان. ولقد أوصى الله بهذا، وأعلنه موسى لقومه، وكرز به بولس بين الأمميين. ولعل هذا الذى فهمته يكون أعظم نفعاً لهذا الزمان، مكتوب "أنى أريد رحمة لا ذبيحة" (متى ٩/١٣). وبعد، أليس المسيحيون الذين يدينون خطاياهم أقرب إلى الحق من أولاء الذين يفكرون فى التوارى بها "الأول فى دعواه محق" (أمثال ١٨/ ١٧). فالعادل من يدين نفسه عندما يخطئ، وليس الذى يمتدحها.

"أيها الإمبراطور.. إنى لآمل أن تكون ثقتى فى نفسى أكثر منها فى سجاياك، وعندما أضع ذلك فى اعتبارى تماماً، عليك أن تسرع الخطى لطلب العفو، وأن تنقض على الفور قرارك، كما كنت تفعل دائماً. لقد أسلفت، أما أنا فلم أعرض عن شيء كنت أخشاه. الحمد لله وحده، الذى شاء أن يبتلى عباده حتى لا تفسد حالهم، وأنا فى هذا رفيق الأنبياء، وسوف تكون أنت به أيضاً إلى جوار القديسين.

"أترانى لن أجل قدر أب جراتيان أكثر مما تبصره عيناى؟ أن عهودك المقدسة الأخرى تطلب الصفح. لقد أضفيت من جانبى قبلاً صيتاً ذائعاً على كل من يحمل الحب لهم قلبى. ولقد تابعتك بحبى، ووددى، وصلواتى، فإن كنت مصدقى

فعليك أن تتبع رشدى، أما إن لم تكن على ثقة من قولى، فمعذرة عما فعلت، وأفوض فيك إلى الله أمرى، ولعلك أيها الإمبراطور العظيم من خلال ذريتك المطهرة، تقيم السلام الدائم والسعادة والرخاء".

على هذا النحو جاءت رسالة أمبروز، شديدة اللهجة، وإذا كان أمبروز يصف ثيودوسيوس بأنه رغم تقواه إلا أنه رجل فيه حمية، فإن أمبروز نفسه كان ينطوى على حدة طبع. ويبدو أن البلاط الإمبراطورى كان قد بدأ يضيق ذرعاً بتدخل أمبروز فى كثير من الأمور التى تخص الدولة، ومن ثم فقد راح يحاول التقليل من هذا النفوذ داخل البلاط، خاصة بعد حادثة كالينيكا، وأمبروز نفسه يشير إلى هذه الحقيقة فى صدر رسالته ويعزوها إلى الإمبراطور نفسه، ويقول إنه لم يعد يحظى بالثقة الكاملة من جانب ثيودوسيوس. ولا يخفى علينا أن موقف أمبروز من أحداث كاللينكيا كان له أثره الكبير فيما يشير إليه الآن الأسقف فى رسالته، غير أن استجابة الإمبراطور لرأى أمبروز عام ٣٨٨ قادت إلى تشدد الأسقف إزاء أحداث سالونيك، فهو لم يكتف بالتهديد بالحرمان من رحمة الكنيسة، بل أصدر فعلاً هذا القرار.

لكن نفس ثيودوسيوس، بالإضافة إلى كل ما سبق أن ذكرناه عن الظروف السياسية فى الغرب، كانت تنطوى على قدر كبير من الإيمان والتقوى، وفى الوقت نفسه شجاعة كاملة ونادرة، فلم يستبد به الغضب لما احتوته هذه الرسالة، بل تاقت نفسه إلى التوبة والندامة [٥٤]، فخلع عن جسده رداءه الإمبراطورى، نعنى العباءة الأرجوانية، وترك أشعرته، وسار وسط الجموع المحتشدة على طول الطريق فى ميلانو من القصر الإمبراطورى إلى مقر الكنيسة، حافى القدمين، عارى الرأس مطأطئها، يردد صرخات داود بالتوبة [٥٥]، ومع ذلك لم يسمح له أمبروز بدخول القاعة المخصصة للأكليروس ساعة التناول، وأمره أن يقف وسط الجموع وشأنها، وخاطبه قائلاً "إن العباءة الإمبراطورية يمكن أن تصنع الأباطرة، لكنها لا ترسم الكهنة"!! وقد تقبل الإمبراطور ذلك بنفس راضية، وأعلن أمبروز الصفح عن ثيودورسيوس، ورفع عنه قرار الحرم الكنسى، وقبل توبته[٥٦]. ويبدى المؤرخ

(٥٤) C.M.H.I p, 245

(٥٥) THEOD. Hist. eccl. V 17 وراجع ، مزامير ٢٥/١١٩.

(٥٦) THEOD. hist. eccl. V 17.

الكننسى ثيودوريتوس إعجابه بالرجلين، الإمبراطور لإيمانه القوى وشجاعته، والأسقف لجرأته وحفاظه على قدر الكنيسة، ويضيف أن ثيودوسيوس أبدى احترامه وتقديره صراحة لأمبروز أمام نكتاريوس أسقف القسطنطينية بقوله : "لقد تعلمت منه الكثير، إنه الوحيد الذى يستحق لقب الأسقف"(٥٧).

هنا يجب أن نتوقف قليلاً لأن ما حدث فى ميلانو يعد نقطة فاصلة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، فلم يكن قد مضى على الاعتراف بالمسيحية كديانة شرعية Religio Licita فقط لها حق الوجود إلى جوار اليهودية وتحت مظلة الوثنية، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية، إلا ثلاثة أرباع القرن فقط (٣١٣-٣٩٠)، ولم تقدم الدولة على الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية إلا خلال هذه السنوات الأخيرة من حياة وعهد الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه، وعلى وجه التحديد منذ مجمع القسطنطينية المسكونى الذى عقد فى عام ٣٨١، أى أقل من عشر سنوات. حقيقة أن الأباطرة بدءاً بأبناء قسطنطين الثلاثة وحتى ثيودوسيوس كانوا على المسيحية باستثناء الإمبراطورجوليان، ومن ثم ظلت من وجهة النظر الطبيعية "مسيحية حكومية"، حتى إذا كان عهد ثيودوسيوس تبدلت الحال غير الحال، وراح المسيحيون يسقون الوثنيين كئوس الهوان عدة قرون تالية.

ورغم حدب الأباطرة "المسيحيين" هؤلاء على الكنيسة إلا أن أحداً من أساقفتها لم يجرؤ على أن يرفع الرأس معارضا سلطان الدولة، خاصة فيما يتعلق بالأمور المدنية التى تتعلق بالأمن العام داخل حدود الإمبراطورية، ولم يكن عناد أثناسيوس السكندرى وتحدية للسلطان الرومانى إلا دفاعاً عن العقيدة التى آمن بها وهو وشعب الكنيسة فى الإسكندرية، وما أتفق عليه الأساقفة فى المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥.

والغريب فى الأمر أن يأتى هذا التحدى من جانب أسقف ميلانو .. وليس من البابوية، لكن الغرابة سرعان ما تزول إذا ما استدعينا ما ذكرناه آنفا عن خلو

---

(٥٧) THEOD. Loc. Cit وراجع أيضاً:
Chadwick, op. cit p. 168; Stephenson, op. cit. pp. 79, 252; Bainton, early Christianity, p. 76; Downey, op. cit. pp. 68-69.

العرش البابوى آنذاك من الشخصيات الاكليروسية القوية، وعدم وجود منافس آخر لميلانو فى الغرب، بالإضافة إلى الشخصية القوية التى كان يتمتع بها أمبروز نفسه.

وعلى أية حال .. فإن ما حدث فى ميلانو من "إذلال" للإمبراطورية فى شخص إمبراطورها على يد الكنيسة، كان يعد سابقة خطيرة وبعيدة فى هذه الرحلة الطويلة فى العلاقة بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى، أما بالنسبة للقسطنطينية فقد كانت الاستثناء الوحيد الذى شهدته الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، وكانت عاملاً أساسياً فى سعى الأباطرة البيزنطيين جميعهم لتدعيم نفوذهم فوق الكنيسة حتى غدت طيلة ألف ومائة من السنين دائرة من دوائر الحكومية البيزنطية، وبات أسقف العاصمة موظفاً كبيراً لدى الإمبراطور، بينما أضحى هذا الإمبراطور هو نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض.

هكذا وللمرة الأولى، حققت الكنيسة أول نصر لها على الدولة، لقد ظلت عدة قرون تخشى بأس الوثنيين، ثم لقيت العنت أشد وأقسى من جانب الأباطرة المسيحيين. لقد خضعت كارهة تظهر الرضى لقسطنطين، ولم تلبث أن أخذت تتململ تحت سيادة ولده قسطنطيوس، حتى إذا واتتها الفرصة الأولى على عهد أسقفها أمبروز، أذلت كبرياء الدولة، التى قدمت من قبل يدها لانتشالها بجهود هؤلاء الأباطرة جميعاً وخاصة ثيودوسيوس، فى شخص هذا الأخير. حقيقة أن ثيودوسيوس أقدم على ذلك عن طيب خاطر واقتناع بأنه وإن كان إمبراطوراً، إلا أنه يعتبر أيضاً واحداً من رعايا الكنيسة، وهذا هو ما أثبته له أمبروز عندما طلب إليه أن يقف وسط الجموع ساعة التناول وقد جاء تائباً، لكن هذا الرضوخ من جانب الإمبراطور فتح الباب على مصراعيه من بعد لصراع طويل، ظل قائماً حتى القرن الثالث عشر بين الدولة والكنيسة فى الغرب، وأصبح قرار الحرمان الكنسى سلاحاً تشهره الكنيسة فى وجه كل من تسول له نفسه الخروج عن طاعتها أو إعمال فكره فيما تفترضه الكنيسة. وكان إذلال ميلانو الذى جرى على هذا النحو، إرهاصاً جديراً بالاعتبار – كما يقول Rand – لما سيحدث بعد ذلك من

إذلال للإمبراطور فى كانوسا عام ١٠٧٧ (٥٨). وإن كان من الأهمية بمكان أن نضيف إلى هذا القول، أنه بينما أقدم ثيودوسيوس على ذلك بدافع من إيمان، لم يقبل هنرى الرابع ذلك من بعد إلا لدوافع سياسية بحتة، وبينما كان أمبروز صادقاً فى موقفه مع ثيودوسيوس، سرعان ما عدل جريجورى السابع عن قرار عفوه، وأعاد إنزال الحرمان واللعنة بهنرى من جديد لدوافع تسلطية.

لقد كان أمبور يؤمن يقيناً بعلو السلطة الروحية، وكان ثيودوسيوس أيضاً يؤمن تماماً بسمو السيادة الزمنية، امتدادا تقليدياً وطبيعياً لما كان عليه الفكر السياسى الرومانى، ولذا كان ضرورياً أن يقع بين الرجلين الصدام، ولكن هذا أمكن تجنبه بحصافة ثيودوسيوس، وبتقدير الرجلين كل منهما للآخر. وإذا كانت الكنيسة قد كسبت أولى جولات الصراع الطويل، فإنها راحت منذ الآن تسير الطريق حتى منتهاه. لكن هذه الحادثة أو بتعبير آخر، هذا "الإذلال" الذى حدث للدولة فى ميلانو، كان دافعاً قوياً لأباطرة القسطنطينية كى يزيدوا من قبضتهم على الكنيسة وأن يحققوا سيادتهم الكاملة عليها، لتغدو إحدى دوائر الإمبراطورية. وهذا واضح فى سياسة جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) تجاه الكنيسة، إذ حرص فى متجدداته دائماً على أن يحقق دون أدنى شك مبادئ القيصرية البابوية التى وضع قواعدها قسطنطين، حتى إذا جاء ليو الثالث الأيزورى إمبراطوراً (٧١٧-٧٤١) كانت هذه المسألة قد رسخت بصورة كاملة، فقد كتب إلى البابا جريجورى الثانى (٧١٥-٧٣١) يقول له واصفاً نفسه بأنه (إمبراطور وقس)، أما فى الغرب فكان الأمر على غير هذا تماماً، منذ سار أمبروز أولى خطوات الطريق بلوغاً إلى السيادة.

---

(٥٨) Founders of the Middle Ages, p. 77 وقد جرى هذا الإذلال نتيجة للصراع السافر بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع، مستتراً خلف مشكلة التقليد العلمانى، بينما جوهره النزاع على السيادة العالمية بين القوة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية والقوة الروحية متجسدة فى الكنيسة، وقد أصدر البابا قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور، الذى سعى إلى البابا ليرفع عنه هذا القرار. واحتمى البابا بقلعة كانوسا فى تسكانيا عند حليفته الكونتيسة ماتيلدا وكان الإمبراطور متجرداً - شأن ثيودوسيوس من أرديته الإمبراطورية، غير أن جريجورى أوصد باب القلعة فى وجه هنرى ثلاث ليال، ثم سمح له بالدخول حيث راح يقبل قدم البابا ويغسلها بدموعه، حتى رفع البابا قرار عنه الحرمان. وعرفت هذه الحادثة بإذلال كانوسا. ولمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف،، الفكر السياسى الأوربى فى العصور الوسطى.

وقد جمع أمبروز خلاصة فكره حول العلاقة بين الدولة والكنيسة فى عبارات واضحة قاطعة، وذلك فى رسالة بعث بها إلى أخته فى أحد أعياد الفصح(٥٩). وضمنها كل آرائه حول هذا الأمر.. قال:

".. إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحد".

".. هل تسلمتم حقوق الرومان حتى تجعلوا من أنفسكم معكرين لصفو السلام العام؟ ولو دمرت كل هذه الأشياء فأين تذهبون؟".

"... ليس من حقى أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها. إنك لا تستطيع دون حق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟". "أيها الإمبراطور .. لا تحمل على كتفك أثقال مثل هذا الظن بأن لك سلطاناً إمبراطورياً على تلك الأشياء التى تخص الله وحده.. لا تزكى نفسك.. فإذا أردت عهداً طويلاً، فلتخضع لله نفسك لأنه مكتوب: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (متى٢٢/٢١)، القصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس. لقد خولت السيادة فقط على المرافق العامة، لا على الأبنية المقدسة".

ويذكر الآراء نفسها مؤكداً عليها فى إحدى عظاته ضد الأسقف الآريوسى أوكسنتيوس (٦٠)، يقول: "... نحن نعطى ما لقيصر لقيصر، فليكن ما لله لله، الجزية لقيصر، لا ننكر ذلك، والكنيسة لله، ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القيصر.

"... هل هناك احترام أكثر من أن يدعى الإمبراطور ابن الكنيسة ، إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها".

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الأسقف الميلانى أن يستصدر من ثيودوسيوس مرسوماً يقضى بعدم تنفيذ أوامر الإمبراطور التى تتضمن عقوبة الإعدام، إلا بعد ثلاثين يوماً من صدورها (٦١). وكان الهدف من ذلك واضحاً وهو

---

(٥٩) SOZOM. hist, eccl. VII 25; THEOD. hist. eccl. V 17.

(٦٠) AMB. Ep XX.

(٦١) AMB. Sermo contra Auxentium

إعطاء الفرصة للإمبراطور كي يتدبر الأمر ثانية قبل أن تحيق بمن يعنيهم العقوبة، وإن كان هذا المرسوم لم يدخل حيز التنفيذ.

أمضى ثيودوسيوس بقية العام وأوائل العام التالى (٣٩١) فى الغرب، ثم عاد إلى القسطنطينية عن طريق سالونيك، وفى الوقت ذاته كان فالنتينيان الثانى قد غادر ميلانو إلى الغرب، ليصل إلى غالة فى خريف هذا العام. وكان قد انقضى ثلاث سنوات منذ تمكن ثيودوسيوس من الانتصار على ماكسيموس، تركزت السلطة فى غالة خلالها فى يد القائد الجرمانى الفرنجى أربوجاست الذى عهد إليه ثيودوسيوس بقيادة القوات الإمبراطورية فى الغرب، ويصفه سقراط بأنه شخصية متعجرفة متسلطة يتطلع إلى اغتصاب العرش(٦٢). إلا أنه تمكن من كسب ولاء جنده بما كان يغدقه عليهم من المنح والعطايا، وزاد فى نفوذه وتعلق الجنود به، عدم وجود الإمبراطور فالنتينيان هناك، وبقاؤه فى ميلانو بعيداً فى معية إمبراطور الشرق ثيودوسيوس. وقد أدى هذا أيضاً إلى أن تصبح إرادة أربوجاست فى الغرب هى القانون، وأن يوجه ولاءه فقط إلى ثيودوسيوس الذى عهد إليه بالقيادة (٦٣). فلما قدم فالنتينيان الثانى مؤخراً إلى غالة، لم يجد له بين الجنود أى نفوذ، بل أصبح سجيناً فى قصره، وفشلت محاولته التى أقدم عليها للتخلص من أربوجاست بعزله، ولم يؤد ذلك إلى إلى التعجيل بما كانت تتوق إليه نفس القائد الجرمانى، إذ لم يلبث أن أذاع فى الناس نبأ اغتيال فالنتينيان الثانى، وكان فى العام التالى (٣٩٢) لوصوله إلى غالة(٦٤).

ولما لم يكن من السهل على الرومان تقبل إمبراطور جرمانى، كما أن التنافس الجرمانى والحقد كان يحولان أيضاً دون ذلك، فقد أصبح صعباً على أربوجاست أن يعلن من نفسه إمبراطورا خلفاً لفالنتينيان، ولذا لم يجد بداً من اختيار أحد الرومان ويدعى يوجنيوس، وهو فيلسوف عمل استاذاً للبيان فى أول الأمر، ثم شغل بعد ذلك منصب السكرتير الأول فى خدمة الإمبراطور (٦٥). وكان من

---

(٦٢) SOCRAT. Hist. Eccl . V 23.

(٦٣) C. M. H. U p. 254.

(٦٤) SOCRAT. hist. eccl. V. 25; RVFIN. hist. eccl. II 31-32.

(٦٥) SOCRAT. Loc. Cit.

الطبيعي أن تدور المراسلات بين بلاط غالة وبلاط القسطنطينية حول الاعتراف بثيودوسيوس وأركاديوس أباطرة شركاء في محاولة من جانبه وأربوجاست لكسب ود بلاط القسطنطينية.

غير أن هذه المراسلات بين الجانبين لم يكن يقصد بها فقط إلا كسب الوقت عند كل من الطرفين، ذلك أن ثيودوسيوس لم يكن راضياً عن هذه الأحداث، وهكذا جذبته وقائع النصف الغربى إليها مرة أخرى ولم يمض على عودته إلى القسطنطينية أكثر من عامين، فأعلن ابنه الثانى هونوريوس أوغسطسا فى ١٠ يناير ٣٩٣، ثم أعد قواته ليتجه بها ناحية الغرب. وفى نهاية مايو ٣٩٤ ارتحل عن القسطنطينية مخلفاً وراءه ولديه أركاديوس وهونوريوس، وأعلن كثير من القوط تطوعهم للخدمة فى الجيش، وعين الإمبراطور تيماسيوس Timàsius قائداً عاماً يعاونه ستيليكو Stilicho[٦٦]. بينما اعتمد أربوجاست ويوجنيوس على أعداد كبيرة من الفرنجة والألمانى، وعند نهر فريجيدوس Frigidus فى منطقة تبعد حوالى ستة وثلاثين ميلاً عن أكويليا، دارت رحى المعركة الفاصلة بين الجانبين، وخسر ثيودوسيوس الجولة الأولى، حيث فقد عشرة آلاف قوطى حياتهم ومعهم قائدهم باكوريوس Bacurius ويعلق سقراط على ذلك بذكاء ولماحية تشير إلى الفارق الكبير فى الناحية الفنية العسكرية التى كان عليها الرومان والقوط، حين يذكر: "إنه فى حالة تصارع القوات الرومانية مع بعضها البعض، فإن نتيجة الصراع يكون مشكوكاً فيها، أما عندما شاركت القوات الجرمانية المساعدة فى جيش ثيودوسيوس فإن النصر كان لابد أن يصبح حليف يوجنيوس، ومن ثم التجأ الإمبراطور إلى السماء يدعوها أن تكون بجانبه[٦٧].

وفى اليوم التالى، السادس من سبتمبر ٣٩٤، تقدم أربوجاست قواته، وراح يسخر من الإمبراطور معلناً أن إلهه سوف يخذله بينما ستنصره أربابه. وكان ثيودوسيوس يدرك تماماً النتائج التى سوف تترتب على انتصار أربوجاست فى هذه المعركة، إذ أنها سوف تصبح إدرنة أخرى، وسوف يعبث الجرمان بالإمبراطورية

(٦٦) انظر Id (وأيضاً) SOZOM. Loc. Cit.

(٦٧) SOCRAT. Hist. Eccl. V 25.

الآن كيف شاءوا ودون رادع، ومن ثم أعاد من جديد تنظيم صفوف قواته. غير أن الأقدار كانت رحيمة به وبالإمبراطورية، فانضم إليه أربيتيو Arbitio أحد قواد أربوجاست بمن معه من قواته، وساعدت الظروف الطبيعية أيضاً فى هذه المعركة، إذ أن رياح الهاريكين العنيفة هبت فى اتجاه مضاد لقوات أربوجاست وكان لها أثرها البالغ فى قلب ميزان المعركة لصالح ثيودوسيوس، وقتل يوجنيوس بيد قواته بينما أنهى أربوجاست حياته بسيفه بعد أن تمكن من الفرار، وأدرك أن ذلك لن يجديه نفعاً(٦٨).

وهكذا خضعت الإمبراطورية من جديد لحاكم فرد هو ثيودوسيوس، غير أن هذه الفترة كانت قصيرة جداً، إذ لم يلبث الإمبراطور أن مات فى السابع عشر من يناير سنة ٣٩٥ بعد انتصاره هذا بأربعة شهور وأحد عشر يوما. ويبدو أن الحروب المتواصلة التى خاضها من أجل الحفاظ على هيبة الإمبراطورية فى الغرب قد أرهقته كثيراً. وقد أحس ثيودوسيوس بدنو أجله، فاستدعى إليه ابنه الأصغر هونوريوس ليعلنه أوغسطساً فى الغرب، لتعود الإمبراطورية ثانية يعتلى عرشها إمبراطوران، وإن كانت فى الحقيقة واحدة. ورغم أن هذا التقسيم لإدارة الحكم قد ساعد ضمن عوامل عديدة غيره فى التباعد بين شطرى الإمبراطورية، إلا أن النظرية السياسية الرومانية القائلة بإمبراطورية واحدة، ظلت قائمة.

---

(٦٨) انظر Id وأيضاً SOZOM. Hist. Eccl. VII 22 ويضفى ثيودوديتوس على هذه المعركة جوا من الأسطورة، فيروى أن الإمبراطور أرسل إلى راهب مصرى يدعى حنا يسأله عن هذه الحرب المقبلة، وكان يعيش في صحراء أسيوط Lycopolis فأخبره الراهب أنه سوف ينتصر، وإن كان سيفقد عدداً كبيراً من قواته، ويضيف أنه قد جاءه فى نومه قبل أن تبدأ المعركة رجلان يرتديان ثياباً بيضاء ويمتطيان صهوتى جوادين، وأخبرا أنهما جاءا يحاربان فى صف قواته، وأن أحدهما هو يوحنا الانجيلى والثانى فيليب الرسول، ويقول إن الرؤيا نفسها رآها أحد الجنود الذى نقلها إلى قائده وهذا إلى قائده حتى وصلت مسامع الإمبراطور الذى ازداد سروره تبعاً لذلك!! انظر: THEOD. hist eccl. V 24.

المصادر والمراجــــع

أولاً : المصادر الأصلية :

AMBROSIVS: De fide ad Gratianum Augustum : Nicene X 2, 199-314 (=P. L. XVI 527-698) – De offciis Ministrorum: Nicene X 2, 1-89 – AD Valentinianum Imperatorem ep. XVII: Nicene X 2, 411-414 (=P.L. XVI 961-971) – Ad Valentinianum Imperatorem, ep. XXI : Nicene X 2, 423-429 (=P. L. XVI 1002-1007) EP. XX: Nicene X 2, 422-426 – Ep. XXII: Nicene X 2, 436-440 – Ad Theodosium Augustum, ep. XL: Nicene X 2 440-445 – Ep. XLI: Nicene X 2, 445-450- Ad Theodosium Augustum, ep. LI: Nicene X2 , 450-453 Ad Theodsium Augustum, ep LXII: Nicene X 2, 455-456- Ad Eugenium Imperatorem ep LVII: Nicene X 2, 453-455- Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=P.L. XVI 1007-1018).

AMMIANVS MARCELLENVS : Res Gestae, trans. By Jhon C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

ATHANASIVS: Ad Iovianum Imperatorem : Nicene IV 2, 567-569 (=P.G. XXVI 813-824- Epistola de synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene VI 2, 451-480 (=P.G. XXVI 681-793)- Ad Afros episcopos: Nicene IV 2, 489-494 (=P.G. XXVI 1029-1048)- Narratio Athanasii ad Ammonium episcopos : Nicene IV 2, 478 (= P.G. XXVI 980-981) – Tomus ad Antichenos: Nicene IV 2, 483-485 (=P.G. XXVI 796-809)- Orationes contra Arianos: Nicene IX 2, 306-447 (=P.G. XXVI 12-523).

BASILIVS: De Spiritio sancto: Nicene VIII 2, 1-50 (=P.G. XXXII 68-217)- Athanasio Alexandriae episcopo, epp. LXI, LXVI, LXVII, LXIX: Nicene VIII 2, 161, 163, 164, 165 (=P.G. XXXII 416-417, 424-425, 429-433)- Meletio episcopo Antiochiae, epp. LVII, LXVIII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI: Nicene VIII 2, 159, 164, 175, 192, 197, 225 (=P.G. XXXII 405-408, 428, 429, 469-472, 537-540, 557-561, 791-794) – Ad episcopoa Italos et Gallus, ep. XCII: Nicene, VIII 2, 177-179 (= P.G. XXXII 477-484)- Sanctissimis fratrubus ac episcopis occidentalibus. Epp. XC.

CCLXIII: Nicene VIII 2, 176-301 (=P.G. XXXII 472-476, 973-982) – Ad Valerianum, ep. XCI: Nicene VIII 2, 176-177, Eusebio episcopo, epp. CXXXVIII, CCXXXIX; Nicene 2.

EVSEBIVS, vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

GREGORIVS NAZIANZENOS,

Orationes contra Iulianum IV, V (P.G. XXXV 531-720)- Funebris in laudem Caesarii oratio: Nicene VII 2, 229-238 (=P.G. XXXV 755-788)- Funebris oratio in patrem oratio XVIII: Nicene VII 2, 254-269 (=P.G. XXXV 985-1044)- Oratio XXXIV; Nicene VII 2, 332-338; Oratio XLI: Nicne VII 2, 378-385-In laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269-280 (=P.G. XXXV 1081-1128)- Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328-334 (=P.G. 213-328) – Ad Cledonium contra Apollinarium, epp. CI, CII: Nicene VII 2, 439-445-Funebris oratio in laudem Basilii magni Caesareoe in Cappadocia epeicopi, oratio XLIII: Nicene VII 2, 395-422 (=P.G. XXXVI 493-606)- Ad Sophronium, ep. CXXXV: Nicene VII 2, 466.

GREGORIVS NYSAEVS,

Contra Eunomoium; Nicene V 2, 33-248 (=P.G. XLV 243-1122).

HIERONIMVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 359-384 (=P.L. XXIII 2, 601-720) – epp. XLIII, LXXXIV: Nicene III 2, 57-58, 175-181.

HILARIVS, De synodis seu fide Orientalum: Nicene IX 2, 4-29 (=P.L. X 471-546).

HOSIVS, Ad Constantium Imperatorem, ep. (In historia Arianorum ad monachos: Nicene IV 2, 270-302),

LACTANTIVS, De mortibus persecutorum: Ante Nicene, VII 301-322, (=P.L. VII 2, 189-276).

Nicene and post Nicene fathers of the Christian church, ed. By Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

RVFINVS, Historia ecclesiastica: P.L. XXI 467-538.

SOCRATES, Historia ecclesiatica: Nicene II 2, 1-178 (=P.G. LXVII 29-342).

SOZOMENVS, Historia ecolesiastica: Nicene II 2, 239-427 (=P.G. LXVII 343-1630).

SVLPECIVS SEVERVS, Historia sacra; Nicene XI 2, 83-122 (=P.L. XX 952-160).

SYMMACHVS, Memorial of, Nicene X 2, 414-417.

THEODORETVS, Historia ecclesiastica: Nicene III 2, 33-159 (=P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانياً: المراجع الأوروبية:

Bainton (R.H), Early Christianity, New Jersey, 1960.

- The penguin history of Christianity, 2 vols. Penguin books 1964.

Barry (W.), The papal monarchy from st. Gregory the great to Boniface VIII, New York, 1906.

Baynes (N.H.) & Moss (H.ST.L.B.),

Byzantium, an introduction to East Roman civilization, Oxford 1969.

Browne (CH. G.) & Swallow (J.E.),

Prolegomena (GREGORIVS NAZIANZENVS, orations et epistolae): Nicene VII 2, 187-202.

Bryce (J.), The holy Roman empire, London 1950.

Bury (J.B.), History of the later Roman empire, 2 vol. London 1931.

Cambridge Medieval History, 8 vols. Cambridge 1964.

Cary (M.) A history of Rome down to the reign of Constantine, London 1954.

Chadwick (H.), The early church, London 1974.

Chambers (M.), The fall of Rome, can it be explained, New York 1970.

Copleston (F.), A history of philosophy, Medieval philosophy, p. I New York 1962.

Davis (R.H.C,), A history of Medieval Europe from Constantine to st. Louis, London 1975.

Dawsom (CH.), Religion and the rise of Western culture, New York 1958.

Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab conquest, New York 1961.

- The late Roman empire, New York 1969.

Hear (F.), The Medieval world, trans, from the German by Janet Sondheimer, New York 1963.

Hefele (C.J.), History of the councils of the church, trans. From the German in 5 vols. And ed. By W.R. Clark, Edinburgh 1972.

Hughes (PH.), A history of the church, vol. 2, London 1948.

Jenkins (C.), Some aspects of Medieval latin literature (in legacy of the Middle Ages, pp. 147-172).

Jones (A.H. M.), The decline of the Ancient world, London 1975.

- Later Roman empire, 3 vols. Oxford 1964.
- Constantine and the conversion of Europe, London 1948.

Ker (W.P.), The dark Ages, New York 1958.

Laistner (M.L.W.), Thought and letters in western Europe, New York 1957.

Martin (H.), Histoire de France, 8 tomes, Paris 1869 et sqq.

Neander (A.), General history of the Christian religion and church, trans. From the German by Joseph Tarrey in 9 vols. London 1851-1858.

Oman (CH.), The dark Ages, European history 476-918, London 1928.

Percival (H.R.), The seven ecumenical councils, Nicene XIV 2).



Pirenne (H.), A history of Europe, London 1961.

Rand (E.K.), Founders of the Middle Ages, New York 1975.

Romestin (H.De.), Prolegomena (AMBROSIVS, Nicene X2,XI-XXII).

Shaff (PH.), History of the Christian church, 8 vols. Michigan 1956 et sqq.

Shiel (J.), Greek thought and the rise of Christianity, London 1968.

Slesser (H.), The Middle Ages in the west, London s.d.

Stephenson (C.), Mediaeval history, New York 1962.

Strayer (J.), & Munro (D.),

The Middle Ages 395-1500, New York 1970.

Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.),

An introduction to Medieval Europe, New York 1965.

Ullmann (W.), A short history of the papacy in the Middle Ages, London 1974.

Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine empire, 2 vols. Madison & Milwauke 1964.

Waston (E.W.), Introduction (HILARIVS, select works: Nicene IX, 2, 1 – 96.

ثالثا: مراجع عربية وأجنبية:

أسد رستم (دكتور) : كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ثلاثة أجزاء، بيروت. بدون تاريخ.

ـــــــــــــ : الروم، جزءان، بيروت. ١٩٥٨.

اسحق عبيد (دكتور) : روما وبيزنطة، القاهرة ١٩٧٠.

أومان (ش.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣.

بينز (ن.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد. القاهرة، ١٩٥٧.

جوزيف نسيم (دكتور) : الدولة والإمبراطورية فى العصور السوطى، القاهرة، ١٩٧٠.

جيبون (أ.) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة للمختصر الذى نشر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٦٠. ترجم الجزء الأول محمد على أبو درة، والثانى نجيب اسكندر، والثالث دكتور محمد سليم سالم، القاهرة، ١٩٦٩.

داونى (ج.) : أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة دكتور ألبرت بطرس. بيروت، ١٩٦٨.

رأفت عبدالحميد (دكتور) :

الدولة والكنيسة : الجزء الثانى: الوثنية والمسيحية. القاهرة، ١٩٩٩.

الدولة والكنيسة : الجزء الثالث: قيصر والمسيح. القاهرة، ٢٠٠٠.

العالم البيزنطى ، ترجمة عن كتاب ج. م هسى، القاهرة، ١٩٩٧.

الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، القاهرة، ٢٠٠٠.

عبدالقادر اليوسف (دكتور) :

الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت، ١٩٦٦.

على الغمراوى (دكتور) :

دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. جزءان، القاهرة، ١٩٧٥.

موسى (م.) : ميلاد العصور، ترجمة عبد القادر جاويد. القاهرة، ١٩٦٧.

المحتوى

ثيودوسيوس للمسيحية النيقية - تداعى المسيحية الهوموية (الحكومية) - وفاة الإمبراطور جراتيان واعتلاء أخيه فالنتينيان الثانى العرش - انحيازه وأمه جوستينا للآريوسة - رسالة أمبروز إلى فالنتينيان الثانى حول هذا الأمر - مجمع القسطنطينية المسكونى عام ٣٨١ - مشكلة الروح القدس - ماكيدونيوس والماكيدونية - اختيار جريجورى النازيانزى أسقفاً للقسطنطينية رسمياً ودحض ادعاءات ماكسيموس السكندرى - وصول تيموثى أسقف الإسكندرية الجديد إلى القسطنطينية وإعلان الحرب على جريجورى النازيانزى - انسحاب الأخير وإيثاره حياة الهدوء - دوافع الأسقف السكندرى لهذا العداء - قوانين وقرارات مجمع القسطنطينية - اختيار نكتاريوس أسقفاً للعاصمة - وثيقة الإيمان "النيقو - قسطنطينى - القانون الثالث وإعادة ترتيب الكنائس الرسولية - احتجاج روما وازورار الإسكندرية - نهاية المسيحية الحكومية وبداية السيادة للمسيحية الجديدة فى صورتها النيقية.

الفصل الثالث

الفصل الرابع

المسيحية النيقية الدين الرسمى للإمبراطورية -------------- ١٠٧ - ١٦٩

الإمبراطور جراتيان والتأييد الصريح للنيقية – أمبروز ورسالته "عن الإيمان" – شخصية أمبروز أسقف ميلانو – نشأته الأولى وتعليمه – كتابه عن "وظائف الأكليروس" عمله الإدارى وتأثير ذلك على منصبه الكهنوتى من بعد – الظروف السياسية والعقيدية والأكليروسية التى ساعدت أمبروز على النجاح الكبير فى أسقفيته – ثيودوسيوس والفرق الآريوسية العديدة – نكتاريوس وجهالته بالمسائل اللاهوتية – ثيودوسيوس يعلن المسيحية النيقية دينا رسمياً للإمبراطورية – ثورة الآريوسيين فى القسطنطينية – فالنتينيان الثانى وجوستينا ومناصرة الآريوسية فى الغرب – ثيودوسيوس يعلن الحرب على الوثنية والآريوسية – رد الفعل الوثنى – السناتو الرومانى – المثقفون الوثنيون – سيماخوس الخطيب المفوه وزعيم الأغلبية الوثنية فى مجلس الشيوخ – المعركة الدائرة حول مذبح النصر فى مجلس الشيوخ فى روما – ملتمس سيماخوس إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى حول مذبح النصر وعظمة الرومان – رسالتا أمبروز إلى فالنتينيان الثانى للرد على سيماخوس – المعركة البلاغية الرائعة بين سماخوس وأمبروز – النص الكامل للرسائل الثلاث – اغتيال الإمبراطور الصبى فى الغرب – إعلان يوجنيوس إمبراطورا – رفض ثيودوسيوس وتعيين إبنه الطفل هونوريوس خلفاً لفالينتينيان الثانى – يوجنيوس وتجدد مسألة "مذبح النصر" رسالة أمبروز إلى الإمبراطور – تدمير المعابد الوثنية على يد الرهبان المسيحيين – ثيوفيلوس السكندرى – معبد السرابيوم – قرارات ثيودوسيوس عامى ٣٩١-٣٩٢ بالقضاء على الوثنية –إعلان المسيحية الجديدة – النيقية – دينا رسمْياً للإمبراطورية.





لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً بوجود دولة داخل الدولة، مهما كان شكل هذه الدولة "الداخلة" وماهيتها، حتى وإن غدت الإمبراطورية الرومانية مسيحية، والإمبراطور الرومانى هو "نائب المسيح" على الأرض، والكنيسة هى هذا الكيان الجديد.

وخلال الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى حدث أول صدام حقيقى على أرض الواقع بين الدولة والكنيسة، فقد استغلت هذه الأخيرة الفرصة التى أتيحت لها بجعل المسيحية فى شكلها الجديد، الذى اتفق عليه فى نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية عام ٣٨١، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية، لتقف للإمبراطورية على الفور بالمرصاد، ولتطبق لأول مرة فى تاريخها قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور نفسه الذى جعل لها السيادة!! ولتخط بذلك أول صفحات الصراع الطويل بين الدولة والكنيسة فى الغرب اللاتينى، وأسس علو هامة الدولة فى الشرق البيزنطى.

أحمد غريب